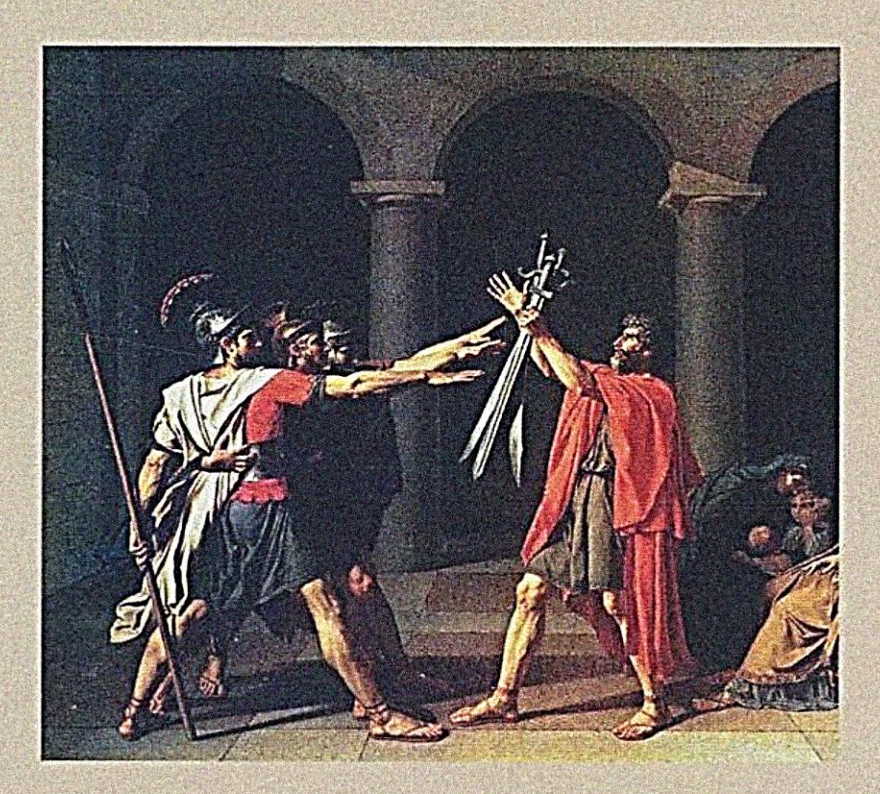
مونتسكيو

تأملات في تاريخ الرومان

أسباب النهوض والانحطاط



نقله من الفرنسية إلى العربية

عبد الله العروي



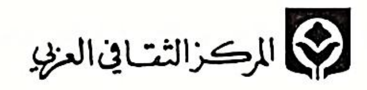
مونتسكيو

تأملات في تاريخ الرومان
أسباب النهوض والانحطاط

نقله من الفرنسية إلى العربية

عبد الله العروي

عن طبعة 1748



الكتاب
تأملات في تاريخ الرومان
تأليف
مونتسكيو

ترجمة
عبد الله العروي

الطبعة
الأولى، 2011

عدد الصفحات: 272
القياس: 14.5×21.5
ISBN: 978-9953-68-463-4

الناشر

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء - المغرب
ص .ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 303339 522 212+
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت - لبنان
ص .ب: 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 01750507 - 01352826
فاكس: 01343701 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

تقديم

المؤلف

هو شارل لوي دي سكوندا، المعروف بمونتسكيو، اسم حصن في جنوب شرقي فرنسا ورثه عن أحد أعمامه.

ولد سنة 1689 قرب مدينة بوردو، وتوفي في باريس سنة 1755، عاش إذاً نهاية حكم لويس الرابع عشر التي تميزت بالتزمت والاضطهاد الديني، والانتكاسات السياسية والعسكرية، وبسخط النبلاء وتذمر الطبقات الشعبية. عاش كذلك عهد الردة، تحت وصاية آل أورليان، حيث تحررت الطبقة العليا من كل القيود الدينية والأخلاقية، وانتشرت فيها الدعوة إلى الزندقة. وأخيراً عاش صدر حكم لويس الخامس عشر الذي حاولت أثناءه فرنسا تضميد جراحها واستعادة مركزها داخل أوروبا جديدة ظهرت فيها قوى نامية مثل بروسيا وروسيا.

لا حاجة لنا في تتبع مراحل سيرة مؤلفنا، نكتفي بالتوقف عند النقاط التي تساعدنا على فهم منحاه الفكري وأسلوبه في الكتابة.

كان من الآفاقيين الطارئين على العاصمة الفرنسية، ولهذا الجانب أهمية، لا سيما أن الأمر يتعلق بمنطقة غويانه (Guyenne)، التي ظلت عقوداً عديدة تابعة للتاج البريطاني، والتي ارتبطت دائماً بعلاقات تجارية

قوية مع الجارة الإنجليزية. اتصال مونتسكيو بالفكر الدستوري والسياسي البريطاني أساسي، لا هامشي كما هو الحال عند جلّ كتّاب القرن الثامن عشر الفرنسي.

رغم ما يوحي به الاسم لم يكن المؤلف ينتمي إلى أسرة عريقة النبل. شرِّفت عائلته مؤخراً، أثناء القرن السادس عشر تحديداً، جزاءً لخدمة أسداها للعرش أحد أجداده. لكن، إن لم يكن نبيلاً عريقاً، كان مونتسكيو من الأعيان المحظوظين، ملاكاً واعياً بحقوقه وامتيازاته. يرى في الاستبداد آفة الملكية، وفي هذه ضمانة للحرية الفردية. ورث ضيعة عن والدته، وأخرى عن عمه، واشتغل جدياً بإدارتهما، كما ورث عن نفس العم منصباً قابلاً للتفويت في برلمان بوردو.

تلقى تعليماً عصرياً علمانياً في مؤسسة قريبة من باريس، تديرها جماعة الأوراتوريين (Oratoriens)، وهي جماعة رهبانية معروفة بانفتاحها الفكري، بخلاف جماعة الياسوعيين. تابع دراساته القانونية في جامعة بوردو، وبعد تخرجه اشتغل عدة سنوات مستشاراً قضائياً لدى البرلمان المحلي. كانت له إذَن تجربة واسعة في شؤون المال والصرف، كما كان له اهتمام بطرق التدبير والاقتصاد عامة.

اقترن بفتاة بروتستانتية العقيدة، ثرية ومقتدرة. فوض لها في عدة مناسبات مهام تسيير ممتلكاته، بعد أن تعرف على الحياة الباريسية وانغمس في كل أنشطتها العلمية والترفيهية. انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية، كما استقبل في أندية مغلقة ميالة إلى البطالة والمجون.

بين سنة 1728 ونهاية سنة 1731، تجول بصحبة نبيل إنجليزي في بلاد النمسا والمجر وإيطاليا وألمانيا وهولندا. بعد ذلك استقر بإنجلترا، ومكث فيها طويلاً. صادق ساساتها وعلماءها وكتابها. انتخب عضو

شرف في الجمعية العلمية الملكيّة كما استقبل في المحفل الماسوني.

بعد كل هذا عاد إلى وطنه وانعزل استعداداً لتدوين مؤلفه الرئيس **روح القوانين**.

نستخلص مما سبق أن الرجل خير مثال على ما يعرف بعقلية القرن الثامن عشر الأوروبي. كان واسع الاطلاع، متحرر الفكر، متنوع التجربة، يجمع بين ذوق الأديب وعمق الباحث المدقق. نجد هذه الصفات واضحة في كل مؤلفاته، القصيرة والطويلة، الهزلية والجدية، الأدبية والفلسفية. في **الرسائل الفارسية** (1721)، التي لم يكن أحد ينتظرها من قاضٍ وقور، **التأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانهيار** (1734) التي لم تكن الأوساط الباريسية تتطلع إليها من مؤلف الكتاب السابق، وأخيراً **روح القوانين** (1748)، الكتاب الذي أثار إعجاب القراء خارج فرنسا وانتقادات كثيرة داخلها إلى حدّ أن كنيسة روما أدرجته ضمن لائحة الكتب «المحظورة على الكاثوليك»، وقضى مونتسكيو السنوات الثلاث الأخيرة من حياته يدافع عن مؤلفه.

اشتهرت آراؤه أولاً في البلاد البروتستانتية. اعتبر الإنجليز أنه قدم أعمق تحليل لتقاليدهم السياسية غير المكتوبة، وأقوى دفاع عن الحرية في وجه الاستبداد. أما الفرنسيون، كغيرهم من الشعوب اللاتينية الكاثوليكية، فلم يصغوا إلى دعوته إلا بعد أن قامت الثورة وعكفوا على تحرير دستور جديد لهم.

كان مونتسكيو المعين الذي ارتوى من مياهه فقهاء القانون، مؤسسو علم الاجتماع، التاريخ المقارن ودعاة الليبرالية السياسية.

التأملات

يقول المدققون إن كتاب مونتسكيو كان متجاوزاً حتى عند صدوره، وهو اليوم متجاوزاً أكثر بعد التحولات التي طرأت على مناهج التاريخ أثناء القرن التاسع عشر.

تجول المؤلف طويلاً في إيطاليا، رأى بعينيه آثار الحضارة الرومانية التي بدأت تجمع، تصنف، وتدرس دراسة نقدية. ذكر نقشاً واحداً، اتضح فيما بعد، لسوء حظه، أنه لم يكن أصلياً، اعتمد فقط على الرواية التقليدية المكتوبة التي سينكبّ الباحثون في القرن اللاحق على تمحيصها وتفنيد أدق تفاصيلها.

لكن هل عنوان كتابه **تاريخ روما**؟ كان يستطيع أن يفعل مثل ماكيافلّي ويقول إنه يكتب حواشي وتعقيبات على ما ألفه القدماء عن الرومان، وعندئذ لم يكن من داع للمؤاخذة.

ما يهم مونتسكيو، وما يهم غير المتخصصين في الرومانيات من منظرين في العلوم السياسية، ليس دقة المعلومات بقدر ما هو عمق التحليل والقدرة على استخلاص العبر. ما يقوله عن سر الفتوحات العربية يظل موضوع استلهام مهما تراكمت المعلومات الجزئية حول الحدث، وكذلك ما يقوله عن خطر التوسع المفرط، أو محاولة فرض وحدة العقيدة.

التأملات جزء من مشروع أوسع تجسد لاحقاً في كتاب **روح القوانين**. ما هي علاقات كل قانون أعلى (كل دستور، كل شريعة) بالعوامل المتواجدة معه، المناخ، الاقتصاد، الأخلاق، الأعراف، الطقوس الدينية، الذهنية العامة...إلخ. **تاريخ روما**، شهادة الرومان على أنفسهم، هو أول مختبر يجرب فيه المؤلف صحة فرضياته في هذا المجال. معلوم أنه أثناء مكوثه الطويل في إنجلترا حرّر بحثاً عن النظام السياسي البريطاني، بعد

ذلك كتب **التأملات**، وفكر أن يطبع البحثين معاً على اعتبار أن الإنجليز يحبون مقارنة أنفسهم بالرومان.

لُبّ منهج مونتسكيو المقابلة والموازنة، وتظل العملية مشروعة مهما كان مستوى المعلومات حول الأشياء التي تراد مقارنَتها.

المقارنة

هذا الاتجاه متجذر، كما ذكرنا في مسيرة المؤلف، في آفاقيته، في اقترانه بسيدة بروتستانتية، في انتمائه إلى منطقة متميزة وإلى طبقة النبلاء الجدد، في دراسته القانون الفرنسي الذي يمتزج فيه الإرث اللاتيني بالتقاليد الجرمانية، في تجواله بين أقطار أوروبا المتباينة المناخ والعقيدة، التنظيم والمعاش.

في أول كتاب صدر له، **الرسائل الفارسية**، ذهب إلى أبعد مدى في هذا الاتجاه. ألف الكاتب الفرنسي جان راسين مأساة **ميثريدات** ثم مسرحية **بايزيد**، ولا يوجد في العملين سِمَة واحدة تدل على خصوصية الإنسان المشرقي. الكلام كله يجري بحسب المعروف لدى المشاهد من معاصري لويس الرابع عشر. الأمر الذي يشهد على عجز الفنان الكلاسيكي ونفوره من معاكسة الموروث. تنطبق الملاحظة نفسها على الرحالة الأوروبي عندما يصف ما يشاهده في تركيا أو بلاد فارس. ثم يأتي مونتسكيو ويتقمص شخصية السائح الفارسي. هذه ثورة ذهنية قاطعة بكل معاني الكلمة. لم يقدم على مثلها فرنسي آخر إلا بعد مرور قرنين، عندما كتب أندره مالرو رسائله الصينية تحت عنوان **إغراء الغرب** (La tentation de l'Occident).

طبعاً لم ينسلخ المؤلف عن «جلده». منظور **الرسائل الفارسية** هو منظور مونتسكيو الآفاقي، المتسامي عن جنسه وعقيدته وثقافته، وهذا التسامي ما كان ليحدث لولا التجارب والمؤهلات التي سقناها هنا.

المراجع

الثبت المرفق بالملاحق، يظهر تنوع مراجع المؤلف، تنوعاً أتاح له التوسع في المقارنة. أولاً وأساساً بين النظامين الغربي والشرقي، أي «الأوروبي والآسيوي». يتساءل المؤلف كما تساءل المفكرون القدامى، لماذا الغالب على الدول الأوروبية القديمة النظام الجمهوري وعلى الشرقية النظام الملكي؟ ينقل مونتسكيو هذه الثنائية من الماضي البعيد إلى التاريخ القريب. فيبحث في أسباب تجاوب الديانة المسيحية مع الجمهورية والإسلامية مع الملكية. لا يحصر الشرق في الإسلام (العرب، الفرس، الترك)، بل يتعداه إلى الهند والصين واليابان، معتمداً على كتب الرحّالة، معظمهم من التجار، وعلى شهادات المبشرين المسيحيين. يضم أحياناً إلى هذه المعلومات أخبار هنود أميركا وزنوج أفريقيا. هذا مسح جغرافي إثنوغرافي يتوجّه بمسح تاريخي آخذاً في الاعتبار عامل التطور، وانتقال المجتمعات من حال إلى حال، من عقيدة إلى عقيدة. يقابل باستمرار روما الوثنية وروما المسيحية، كما يفرق بين المسيحية الرومانية والمسيحية البيزنطية. فيما يتعلق بالتاريخ الحديث المقابلة الجوهرية هي بين النظامين الفرنسي والإنجليزي، ملكية مطلقة من جهة، وملكية مقيدة من جهة أخرى. وراء هذا التعارض يوجد بالطبع اختلاف في العقيدة، في الأعراف الشرعية، في الذهنية العامة، في التركيبة الاجتماعية، في النشاط الاقتصادي، وفي آخر تحليل في المناخ إن لم يكن في الانتماء العرقي.

من يريد التوسع في هذه النقطة عليه الرجوع إلى الكتاب الجامع **«روح القوانين»**، لكن القارئ سيجد شيئاً مما ذكرنا في المؤلَّف الذي نقدم له. لا تخلو صفحة من مقابلة، تلويحاً أو تصريحاً، بين فترتين أو نظامين أو عقيدتين أو ذهنيتين، عليها يرتكز الحكم أو التطلع وأحياناً التنبؤ.

سبق لي أن أكدت، في بحوث أخرى، أن منهاج المقارنة هو أساس العلوم الاجتماعية كلها، من سياسة وتاريخ وأنثروبولوجيا، لا سيما عند المؤسسين أمثال ابن خلدون وماكيافلّي. المنهاج واحد وميزة هذا على ذاك، مونتسكيو على ماكيافلّي، ماكيافلّي على ابن خلدون، تكمن في مدى تلك المقارنة. واضح أن المجال أوسع عند المفكر الفرنسي، وذلك للأسباب التي ذكرناها آنفاً.

مونتسكيو وأقرانه

صحيح أن ماكيافلّي يقارن باستمرار بين النظامين الجمهوري والأميري، بين روما القديمة وإيطاليا الحديثة، بين الدويلات الإيطالية والممالك العظيمة الموحدة كفرنسا وإسبانيا، لكن همّه الأول هو كيف تؤسس دولة لتدوم. سؤال عملي، سياسي في العمق، لا يلزم صاحبه التوسع في المقارنة. لا يعنيه كثيراً التنقيب عن أسباب التطور، النهوض، الانهيار. هدفه النصح المفيد المستوحى من تاريخ روما في أوج عظمتها. لذا يكتفي بتسجيل ملاحظات على العشرية الأولى من تاريخ تيت-ليف.

أما ابن خلدون فهمّه المعلن هو كيف تمحّص الأخبار. قد ينتهي الناظر في أحداث التاريخ إلى الاتعاظ، إلى استخلاص العبر، الأمر الذي يشير إلى عنوان الكتاب الذي يأتي بعد المقدمة. لكن المؤلف لم يعد في حاجة إلى استفادة. لقد جرّب وفشل، كل ما يصبو إليه هو أن يوضح لغيره سبيل الاستفادة، وذلك بتلقينه طرق النظر والتمحيص. إذا كان ماكيافلّي ينظّر لمخططي السياسة العملية، فابن خلدون يمهّد للسوسيولوجيا كعلم مساعد لقراءة التاريخ . المطلوب في هذا الإطار هو أن تتسع المقاربة لتشمل أكبر عدد من الأمثلة، هل هذا هو حال ابن خلدون؟

لا يحق لنا أن نؤاخذه بما جاء بعده، الاكتشافات الجغرافية والمكاسب في مجال الحفريات واللغويات. لكن أي عيب في مؤاخذته بما كان قبله، بتلك المراجع التي كانت جاهزة، في متناوله لو توافرت الشروط؟ ما العيب أن نقول متأسفين، آه، لو اطلع في النص على أخبار اليونان وروما؟

اعتمد هو الآخر منهج المقارنة، لكن بين من ومن؟ بين البدو والحضر، العرب والفرس، العرب والترك، العرب والبربر. استخلص من ذلك ثنائية العمران البدوي والعمران المدني، تابع نتائج تلك المعارضة على كل المستويات. فعل ذلك ببراعة وحذق وجرأة. لم يحجم عن ربط هذه الثنائية بأخرى ذات طابع سياسي. فميّز بين حكم مدني مطلق عادل سديد يتوخى خير الجميع، أو متهور جائر يستهدف إشباع الشهوة، وبين حكم شرعي يضمن سعادة الفرد في الدنيا والآخرة. أمسك بهذا الاستنتاج لأنه تيقن أن الجمهورية، حكم الغوغاء، فاسد من الأصل، ينتهي حتماً إلى الفوضى وعموم الظلم. هذا ما وجد في كل مراجعه، من فلاسفة متأخرين ومؤرخين مسيحيين. ماذا لو اطّلع على نصوص الأوائل، وعلى أقوال قدماء اليونان والرومان دون تأويل الوسطاء وتحريف التراجمة؟ ماذا لو أتيح له ما أتاحته الأقدار لمونتسكيو؟

قد يقال، اطلع على جانب من أحوال الروم والإفرنج المعاصرين له، عبر آداب الرحلة، على أوضاع الصين والهند والسودان، كما تدل على ذلك عبارات «**المقدمة**». لا ينفع في هذا الباب السمع المبهم، لا بد من تلمس الأصول وفحصها بمثابرة وانتظام. يعترضنا هنا ذلك السقف المعرفي الذي أوضحنا في مناسبات عدة آثاره على المفكرين المصلحين.

الجبرية والحرية

كان مكتوباً على روما أن تعلو وتسمو وتصل إلى القمة، كما كان مكتوباً عليها أن تنحط إلى الحضيض قبل أن تطرد نهائياً من مسرح التاريخ. هذا ظاهر قول مونتسكيو. ما وراء هذا المكتوب؟ الدهر أم الرعاية الربانية؟ لا جواب على هذا السؤال الذي شغل بال الكثيرين ممن ألّفوا في هذا الباب، وعلى رأسهم الأسقف الفرنسي بوسويه.

يقول مونتسكيو إن أسباب نهوض روما هي نفسها التي أدت إلى الخلل والانحطاط ثم الانهيار، أسباب عائدة إلى التشريع، التربية، رعاية الأعراف، تدبير المعاش، رسم الضرائب، تعبئة الجيش...إلخ. أعمال يقوم بها البشر في ظروف خارجة عن إرادتهم. يقول إن الجمهورية لَوْ لم تمت على يد يوليوس قيصر لماتت على يد زعيم آخر يتصف بأوصاف قيصر. يقول إن جيش هنيبعل لو لم ينحل في قصور «كابو» لانحل في قصور أية مدينة غير «كابو». يقول إن العرب كانوا مؤهلين لتأسيس دولة خاصة بهم على أنقاض دولتي الفرس والرومان متى سنحت الفرصة. يدّعي بعض المعلقين أن حتمية مونتسكيو لا تعني التوكل والاستسلام. تظل المسألة غامضة، ما لم توضع في إطار المقارنة مع ماكيافلّي وابن خلدون. أيّهم أكثر إيماناً بالجبرية؟

بما أن هدف ماكيافلّي تأسيس دولة، إبتداءً أو استئنافاً، كان لزاماً عليه أن يقلل من أثر الحظ، تاركاً بعض المجال للعامل البشري، لذا قال بالمناصفة . في كل عمل تتحكم الإرادة البشرية في نصف النتيجة، ويظل النصف الآخر موكولاً إلى الحظ، لكن بما أن المبادرة دائماً بيد البشر، فلا بد في الختام من أن يستجيب القدر، كما يقول الشاعر. واضح إذاً أن وطأة الحتمية أخف عند ماكيافلّي منها عند مونتسكيو.

يقول هذا الأخير، إن لكل دولة مساحة لا يجب أن تتعداها. ويقول ابن خلدون إن لكل دولة عمراً لا تتجاوزه أبداً. مفهوم الدولة مختلف عند الرجلين، فما يجمع بينهما ويبرز مدى الجبر عند كل واحد منهما، هو استحالة الإصلاح بعد أن تظهر في الدولة ملامح الانحطاط، والسبب هو تغير الأحوال. كل دولة تنمو وتتسع بسبب مزايا خاصة في ظروف ملائمة، بعد حين تنقلب الأوضاع، فتتحول تلك المزايا إلى عوائق، عندها لا بد من إبدال تلك الصفات بأخرى مناقضة لها ومسايرة للظروف الجديدة. لكن هذا التطور غير ممكن إذ لا أحد يتصور أن ما حصل بسبب أمر ما قد يتجدد بعكسه. الحكمة تقضي أن الأواخر لا تصلح إلا بما صلحت به الأوائل. فما نسميه القدر، هو في الواقع مجسد في الذات وليس طارئاً عليها. الإجراء الذي يوصي به ماكيافلّي، وهو بالضرورة إجراء استئناف، لا يكون إلا جزئياً وموقتاً، يؤخر الانهيار ولا يمنعه أبداً. نبّه مونتسكيو على أن هذا ما حصل لإمبراطورية الروم، وتنبّأ أن نفس الأمر سيحصل للأيالة العثمانية التي خلفتها. لكنه في الوقت نفسه، وفي ما يبدو حكماً مناقضاً، أثنى على إصلاحات بطرس الأول في روسيا، وقال إنه غيّر من شؤون مملكة يديرها أكثر مما كان يفعل حاكم أجنبي لو استولى عليها، يعني أنه أعاد تأسيسها. لكن هذه الإصلاحات الجريئة، والأخرى التي قامت بها كاترين الثانية وقياصرة القرن التاسع عشر، هل منعت حدوث ثورة عارمة في بداية القرن العشرين؟ وفرنسا، وطن الكاتب، ألا يصح القول إن استبداد لويس الرابع عشر، الذي خرّب الدولة وفكّك أواصر المجتمع، لم يترك أي مخرج من الأزمة سوى ثورة شاملة جاءت في أقل من قرن بعد وفاته، وإن كل الإصلاحات التي أنجزها بعض الوزراء المتنورين لم تفعل سوى تأجيل الانهيار المحتوم؟

التاريخ في مجمله يحكم لصالح نظرية مونتسكيو المستمدة من تجربة روما. كل دولة، بالمعنى الواسع، تنمو لأسباب موضوعية، مادية وتنظيمية وخلقية، ثم تنحط وتنهار لنفس الأسباب التي لم تعد توافق الظروف التي عملت هي على إنشائها. لم يكن في مقدور الجمهورية الرومانية أن تتوقّف عن التوسع، وبعد أن تأسست إمبراطورية لم يكن في الإمكان الحفاظ على النظام الجمهوري، بل لم يكن في الإمكان أن تظل الإمبراطورية رومانية حقاً. تتوالى الدول إثر قواطع، التي هي ثورات شاملة، لا يستطيع أحد أن يتنبأ بها، أو يتحكم فيها أو يستعدّ لها.

هل هذه الجبرية هي التي قال بها ابن خلدون؟ الظاهر أن الأمر كذلك، إذا اسقطنا بعض العبارات التقليدية الوقائية أو التمويهية - ويوجد مثلها عند مونتسكيو كما نبّهنا على ذلك في الهوامش - وكذلك إذا وسعنا مفهوم الدولة وقصدنا به دولة الجنس أو الأمة، دولة الترك أو الفرس أو العرب، لا دولة الأسرة أو القبيل، دولة الأمويين أو الموحدين.

المصطلح والأسلوب

ألمحنا فيما سبق إلى غزارة مصادر مونتسكيو، وقلّتها عند ابن خلدون. أهم من الكم النوع. مراجع الفرنسي أصلية، يقرأ في النص ما كتبه القدماء، وما أضاف إليه المحدثون، نستثني بالطبع المراجع الخاصة بالمجتمعات غير الغربية. الوضع معكوس عند ابن خلدون، يعتمد فيما يتعلق بالتاريخ القديم، وهو ما يهمنا الآن، على نصوص معرّبة، لا لفظاً فقط، بل مفهوماً كذلك، وهنا مكمن الخطر. لكي تكون المقارنة مفيدة حقاً، لا بد من المحافظة على أصالة وفرادة المواد المزمع مقارنتها. لم يكن هذا الأمر متاحاً لابن خلدون ولا لغيره من المفكرين المسلمين.

أشار عبدالرحمن بدوي إلى أن معلومات ابن خلدون حول التاريخ القديم مأخوذة في مجملها من كتاب أوروز «هوروزيوس». لا ندري بالضبط ظروف نقله إلى العربية، لكن نلاحظ أن المعرب حاول أن يقرب الألفاظ والعبارات والمصطلحات إلى ذهن القارئ العربي، فالتصق بجذور المفردات واجتهد ليجد ما يقابلها في اشتقاق اللفظ العربي، فعرب دكتاتور بوضّاع وليجيون بعرافة.

لو سرنا على نفس النهج وعربنا كوميثيا Comitia بندوى، تريبون Tribun بنقيب، سنسور Censor بمحتسب، بريتور Praetor بولي، كْوِيستور Questor بعامل، سيناتور Senator بشيخ، امبراطور Imperator بأمير، فلامين Flamine بإمام، أوسبيس Auspice بعرّاف،إلخ، أما كنّا طمسنا خصوصية تاريخ الرومان وجعلنا من أخبارهم جزءاً من أخبار عامة الملوك والسلاطين؟ الهاجس عندي هو أن هذا هو ما حصل بالضبط للمفكرين المسلمين في القديم تاركاً بصماته في نظرتهم إلى التاريخ. فهموا من المقابلة المماثلة. رأوا كل شيء في تاريخ الرومان، حتى في العهد الجمهوري، على ضوء ما عهدوه في أخبار الأمويين والعباسيين وغيرهم. امتنع عليهم أن يدركوا ما وعاه مونتسكيو من اتفاق ومن افتراق، من تشابه ومن تعارض. لم يروا مثلاً أن الفرق الجوهري ليس بين نظام إسلامي وآخر مسيحي، بل بين نظام ديني يتحكم فيه الرهبان أهل الجبة والزنّار، وآخر مدني يسيره سياسيون أهل البدلة والقبعة. من هذا المنظور النظام الرومي البيزنطي أقرب إلى الإسلام منه إلى الروماني القديم.

مشكل قائم باستمرار هو كيف يتم تعريب الألفاظ دون أن يستدعي ذلك تعريب المفاهيم وبالتالي طمس الخصوصيات التي هي لبّ التاريخ كما يقول الفرنسي جول ميشله.

نقل تراجمتنا القدامى عن لغات ميتة ، واليوم نحن نترجم عن لغات حية. يبدو أننا نواجه صعوبات أقل، لكن اللغات الحية تتطور بسرعة متزايدة، فنواجه صعوبات من نوع جديد. فرنسية مونتسكيو غير فرنسية اليوم. يقول (d'abord) فنفهم أولاً مع أنه يعني في الحال. زد على ذلك خصوصية الأسلوب. لاحظ المعاصرون أن كتاب التأملات حرّر بكيفية غريبة، فقالوا متندرين إن الانحطاط المذكور في العنوان ينسحب على المؤلف كذلك.

قد يكون مونتسكيو قد تعمد الغموض خشية الرقيب، إذ كان متّهماً عند رجال الكنيسة والدولة. لكن الواقع هو أنه لم يكن بصدد كتابة مؤلف في التاريخ، بل تسجيل ملاحظات على هامش ذلك التاريخ المعروف للجميع. يفترض أن القارئ ملم بالأحداث التي يعلق عليها بعبارات يأمل أن تجري مجرى الأمثال. من هنا التلخيص والتركيز والإيماء. يتعمد أحياناً مجاراة كبار كتاب اللاتينية فيما تميزوا به من إيجاز وتلميح.

كيف التعامل مع نص من هذا النوع؟ خصائصه كلاسيكية. هذا يعني أنها شبيهة بصفات الأسلوب العربي البليغ. هناك إغراء بـ«تعريب» بيان مونتسكيو. هل هذا مطلوب ومفيد؟ هل نجنح إلى التعقيد، تحقيقاً لأغراض المؤلف، أم إلى التبسيط رفقاً بالقارئ وتعميماً للفائدة؟

قررنا في النهاية أن نسلك مسلكاً وسطاً. في بعض الحالات عربنا المفاهيم. فقلنا مملكة الروم، إمارة الجيش، محتسب، نقيب أو وكيل الشعب، إلخ. لم نفعل ذلك بانتظام حتى لا يتحول المؤلَّف إلى كتاب تاريخي عربي تقليدي. حافظنا قدر الإمكان على خصائص أسلوب مونتسكيو بما فيه من تناثر وتفكك. أردنا أن يستحضر القارئ باستمرار أن ما بين يديه هو نص مترجم حول تاريخ غير معهود، مكتوب بعقلية غير

عادية. عليه إذن أن يتمعن فيما يقرأ ويقارنه بما هو في مستواه، أعني **مقدمة ابن خلدون**، المليئة هي الأخرى بالألغاز والمعمّيات.

تنبيه

يوجد في نص مونتسكيو هوامش كثيرة، توضيحية أو تكميلية. حتى لا يحصل خلط بينها وهوامش المعرب، أرفقنا الأولى بعلامة (م م)، أي ملحوظة المؤلف.

وتسهيلاً على القارئ أدمجنا مراجع مونتسكيو، مرتّبةً ترتيباً أبجدياً لاتينياً في ملحق. مثلاً [5ك 2ف18] ترمز إلى أوغسطين، **المدينة السماوية**، [الكتاب 2 الفصل 18]. [11هـ ك4 رسالة8] إلى شيشرون، **رسائل إلى أتيكوس**،[الكتاب 4 رسالة 8]. وهكذا...

فيما يتعلق بأسماء الأعلام الأعجمية ورسمها بالحرف العربي يبدو أن الإجماع على طريقة واحدة أمر ممتنع. الاختلاف موجود عند الغربيين أيضاً، بين الفرنسيين والانجليز. هؤلاء يحافظون على النطق اليوناني أو اللاتيني أكثر من أولئك. ونفس الاختلاف موجود عند قدماء المترجمين إلى العربية. ذلك راجع فيما يبدو إلى نوعية الأصل المنقول (يوناني، لاتيني، سرياني) وربما أيضاً إلى جنسية الناقل ولغته الأم، إذ نفس الحرف ينطق بكيفية مختلفة في هذه اللغة أو تلك.

أميل بطبعي إلى اتباع عادة الانجليز لقربها من الأصل، فأقول تاقيتوس عوض تاسيت، تيتوس ليفيوس عوض تيت ليف، انطونيوس عوض أنطوان. لكن بما أن النص المنقول فرنسي وبما أن التقليد الفرنسي أخف على اللسان، اعتمدته في النهاية. أول ما يعرض اسم علم أضع بين قوسين الجزء الساقط، أكتب مثلاً كلود [يوس]، تاسيت [وس]، أوروز [يوس]،

وبعد ذلك أكتب الاسم مرخماً على طريقة الفرنسيين.

كذلك كان بودي أن أرسم دائماً حرف [c] قافاً، كما في قيصر (Caesar) ومقدونيا (Macedoine)، فأقول قراقلا (Caracalla) عوض كراكلا أو ليقينيوس (Licinius) عوض ليكينيوس. نفس الأمر بالنسبة لحرف[v]. كما نقول وندال (vandale) لماذا لا نقول والنس (Valens)، ولنتينيان (Valentinien)؟

تخلينا عن كل هذا حتى لا نزيد الأمور تداخلاً وابهاماً. كما تخلينا عن اثبات الأسماء كما جاءت في النصوص العربية القديمة (المسعودي، البيروني، ابن العبري، الخ). الفائدة من اثباتها ضعيفة لكثرة التحريف فيها.

النص المنقول

نشر مونتسكيو كتابه أولاً في امستردام بعيداً عن الرقيب سنة 1734. ثم في السنوات التالية، أثناء تحريره كتاب "**روح القوانين**"، تراكمت لديه معلومات جديدة حول تاريخ الرومان. فكان يثبتها في هوامش وحواش بنية إصدار طبعة جديدة منقحة وموسعة.

لم يتأت له ذلك إلا سنة 1748، شهوراً قبل صدور "**روح القوانين**" خارج التراب الفرنسي.

درج الناشرون منذ 1758 على إعادة نشر هذا النص المطول. إلى أن أقدمت سنة 2000 مؤسسة فولتير المتمركزة في جامعة أوكسفورد والمتخصصة في تحقيق مؤلفات القرن الثامن عشر الفرنسي، على إعادة نشر الطبعة الأولى، تماشياً مع الطريقة الجديدة في تحقيق النصوص القديمة. الفائدة واضحة بالنسبة لمن يؤرخ لتطور الأفكار وآليات تغلغلها

في المجتمع. لكنها أقل وضوحاً بالنسبة للناقل إلى لغة أخرى.

لذلك اخترنا أن نعرب نص 1748، الأكثر وضوحاً ودقة، كما وجدناه في النشرات التالية:

- Considérations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur décadence. Avec des notes inédites de Frédéric II. Paris, Librairie Firmin-Didot et Cie, 1879.
- Montesquieu, (œuvres complètes. Préface de Georges Vedel. Présentation et notes de Daniel Oster. Paris, Editions du Seuil, 1964.
- Grandeur et décadence des Romains. Chronologie et préface de Jean Ehrard. Paris, G.F. Flammarion, 1968

الفصل الأول

أوليات روما وحروبها

لا يصح أن نتصور مدينة روما في بداية أمرها على نمط أمصار اليوم، إلا إذا قسنا حالها على ما نرى حالياً في جزيرة القرم، مجموعة ملاجئ لربط الحيوان، ومخازن لحفظ الغلال. وهذا ما تدل عليه بالضبط الأسماء التي تطلق على أهم مواقعها.

لم تكن بها أزقة، إلا إذا أطلقنا هذا اللفظ على رؤوس الطرق المؤدية إليها. كانت المساكن فيها حقيرة متباعدة، إذ قلما كان الناس يمكثون فيها. يمضون جل أوقاتهم إما في الحقل، وإما في الميدان للتخاطب والتشاور.

بعكس هذا بدت عظمة روما مبكراً في هندسة عماراتها العمومية. المعالم التي جسدت ومازالت تجسد إلى اليوم تلك العظمة، أقيمت في عهد الملوك.[1] بدأ منذ التأسيس تخطيط "المدينة الأبدية"[2].

كان الملك رومولوس الأول[3] وخلفاؤه في حرب متواصلة مع

---

(1) يذكر المؤلف بإعجاب مصارف المياه المستعملة التي تعود إلى عهد الملك طاركوين (وس)، ولا تزال قائمة إلى يومنا هذا. م م

(2) نعت تقليدي لمدينة روما.

(3) توفي سنة 715 ق.م. بحسب الرواية التقليدية.

الجيران، وذلك لدوافع قاهرة. كانوا في حاجة إلى الرجال لتعزيز الجيش، إلى النساء للإنجاب، إلى الأرض للتوسع والاستغلال. يعود المحاربون بعد المعركة إلى المدينة مثقلين بالمغانم والأسلاب، أي الحبوب والكراع، فيستقبلهم السكان مبتهجين. بهذا نشأت **حفلات النصر** التي شكلت فيما بعد الوازع الأهم لما حققته المدينة من غلبة وتفوق[1].

تعززت روما كثيراً باتحادها مع شعب **السابين** الذي ورث عن أسلافه القادمين من **لقدمونيا** Lacédémone [2]، الشدة والاستماتة في القتال. أخذ **رومولوس** عن السابين، الدرع العريضة، واستبدل بها درع **أرغوس**، الأصغر حجماً والمعروفة وحدها لدى الرومان إلى ذلك الحين[3]. وبهذه المناسبة نلاحظ أن ما جعل منهم أسياد الدنيا أنهم حاربوا الواحد تلو الآخر كل شعوب الأرض، وبعد كل مواجهة كلما وجدوا أن أساليب العدو أنجع من أساليبهم، زهدوا على التو في هذه واعتنقوا تلك.

في ذلك الزمان كان سكان إيطاليا يرون أن أي اتفاق أبرموه مع أحد الملوك لا يلزمهم بالنسبة لمن يأتي بعده. كان الأمر بمثابة قانون دولي[4]. كل شعب غُلب إلا ويستعيد حريته بمجرد أن يموت من تغلب عليه، فتشتعل الحرب مجدداً.

بعد رومولوس تولى الأمر **نوما** Numa[5] لمدة طويلة، نعمت أثناءها

---

(1) حفل النصر (**تريونف**) ينظمه مجلس الشيوخ لقائد فاز في معركة ضد الأعداء. تعرض أثناءه الغنائم والسبي وينتهي في **الكابطول** بقربان إلى رب الأرباب **جوبيتر**. طوال الحفل يقف القائد المنتصر متوجا بإكليل من غار مرتديا جبة مدادية مرصعة.

(2) وطن **اسبارطا** المشهورة بإتقانها لفنون الحرب.

(3) [49]. م م

(4) كل تاريخ ملوك روما يبرز ذلك. م م

(5) حكم من 714 ق.م. إلى 671 ق.م.

روما بالسلم. فكان من شأن هذا الخمول أن يضع حداً لطموحاتها. لا شك أنه لو كانت آنذاك مساحتها كافية ومواردها وافرة لتوقف نموها فوراً ولما تجاوزت ما حققته إلى ذلك العهد.

من حسن طالع روما وأحد أسباب سعادتها أن ملوكها كانوا دائماً أصحاب همة وموهبة. لا نلاحظ في تاريخ الآخرين سرداً من الساسة وقواد الحرب بالكفاءة التي برهن عليها حكام روما.

عند تأسيس دولة ما يكون الرئيس هو الذي يُشكل المؤسسة. في ما بعد تعود المؤسسة هي التي تُشكل الرئيس.

ترامى على العرش **طاركوين**[1]، دون أن يصوت عليه مجلس الشيوخ ودون أن تزكي هذا الاختيار الجمعية الشعبية[2]. منذ عقود كان الاتجاه العام إلى أن تعود سلطة الملك وراثية. فجاء طاركوين وجعلها في نفس الوقت وراثية ومطلقة. ثورتان خطيرتان لم تلبث أن عززتهما ثورة ثالثة.

أقدم **سكستوس**، ابن الملك طاركوين، على اغتصاب فتاة اسمها **لوكريزيا**، ومثل هذه الفعلة تؤدي في الغالب إلى سقوط وطرد مقترفيها. إذ بها يكتشف الشعب وضعه المخزي، فيغضب ويثور ثورة عاتية تأتي على الأخضر واليابس. يتحمل الشعب ثقل الضرائب ويصبر على مضاعفتها لأنه يواسي نفسه بأنها ستصرف في مشاريع تعود عليه ببعض الفائدة. أما عندما يهان فإنه لا يشعر إلا بالضيم الذي يلحقه في الحال، ويرتقب ما هو أسوأ في المستقبل.

---

(1) حكم إلى غاية 579 ق.م.

(2) بعد وفاة الملك كانت العادة أن يختار مجلس الشيوخ حاكماً مؤقتاً. فيعين هذا خلفاً للملك الراحل بموافقة الشيوخ ثم يصادق على الاختيار المحفل الشعبي. [15 ك 2، 3، 4.]. م م

الصحيح هو أن مأساة لوكريزيا كانت مجرد ذريعة للثورة على الملكية والتخلص منها. هذا شعب أبي، شجاع، مقدام، ومع ذلك مطوق وراء أسوار، فكان عليه إما أن يثور ويتحرر وإما أن يخضع ويستسلم.

كان لا مفر من أن يحصل أحد الأمرين: إما أن تغير روما نظام حكمها، وإما أن تحافظ على الملكية وتظل فقيرة حقيرة.

ولنا في التاريخ الحديث حالة مماثلة، من المفيد أن نتأملها. أهواء بني آدم ثابتة لا تتغير. الظروف وحدها تختلف، أما الدوافع العميقة وراء أهم تحولات التاريخ، فقارة دائمة.

قرر **هنري السابع** ملك انجلترا[1] إذلال النبلاء فرفع من شأن العموم. وبدا **لسربيوس توليوس**[2] أن يقلص نفوذ الشيوخ فزاد في صلاحيات المحفل الشعبي[3]. في كلا الحالتين شعر الشعب بالقوة فتخلص من الملكية رأساً.

لم ينصف التاريخ **طاركوين**[4]، إذ دأب الخطباء والمؤرخون على ذمه كلما طرقوا موضوع الطغيان ومساوئه. الحق أنه لم يكن دنيئاً كما ادعوا. الدليل على ذلك سلوكه قبل أن تصيبه الفاجعة، التي كان يتوقعها، بحسب كل القرائن، أعواماً قبل حدوثها[5]. نذكر تسامحه مع الشعوب المغلوبة، سخاءه مع الجنود، قدرته على استمالة القلوب واستدراج الجماهير إلى مناصرته، سهره على المصالح العمومية، ثباته في الشدائد، صبره في

---

(1) حكم من 1485 إلى 1509م .

(2) سادس ملوك روما، اغتيل سنة 534ق.م.

(3) [71؛ 15ك 4]. م م.

(4) الملقب بالمغرور أو المتغطرس (Superbus).

(5) هذا ما يؤكد أن حادثة لوكريزيا كانت ذريعة فقط. أما التخلص من الملكية فكان مقرراً منذ زمان.

المحن، استماتته في الحروب، تلك التي قادها بنفسه، وتلك التي أوعز بشنها ضد روما[1]. وذلك طيلة عشرين سنة. هذه الأفعال تدل على همة عالية.

حكم التاريخ كحكم المجتمع، كلاهما خاضع لتقلبات الدهر. الخزي ، كل الخزي، لحاكم اضطهد حزباً انتهى بالانتصار، أو حاول استئصال خرافات وأوهام[2] ظلت حية بعد وفاته. بعد أن تخلصت روما من النظام الملكي عينت لإدارة شؤونها قنصلين ينتخبان لمدة سنة، وهذا الإجراء هو الذي ضمن لها الرفعة والمجد. الملك قد يبدي من حين لآخر شيئاً من العزيمة والطموح، لكنه لا يلبث أن يخضع لهوى معاكس، بل قد يركن إلى البطالة التامة. أما القنصل، الذي ينتخب لسنة واحدة، فإنه يطمح لمنصب ثان، فيجتهد أثناء ولايته القصيرة لكي ينجز ما يذكر عنه ويقربه مما يتمناه. يظل طموحه طافحاً باستمرار . لذا كان كل قنصل يبحث دائماً عن عدو جديد، يلفت إليه نظر مجلس الشيوخ، ويندب هذا الأخير إلى تحريض الشعب على محاربته.

وهذا المجلس الذي كان يواجه تظلمات لا تنتهي ومطالب لا يستطيع تلبيتها، غالباً ما كان يرى فائدة في تحويل هموم الشعب إلى الخارج، حتى ينسى أسباب تذمّره وسخطه[3].

والشعب نفسه، كان يرى بعين الرضا تجدد القتال، إذ التوزيع العادل للغنائم يجعل الحرب دائماً مفيدة له.

---

(1) بعد أن طرد منها.

(2) المقصود بالأساس هنا الدين المسيحي. كتاب مونتسكيو مشحون بالنقد المبطن للكنيسة.

(3) لا ننسى أن صلاحيات مجلس الشيوخ كانت واسعة في السياسة الخارجية ومحدودة في الشؤون الداخلية. م م

لم يكن الرومان أصحاب تجارة أو صناعة، فكانت الحرب الوسيلة الوحيدة لديهم للكسب والثراء.

لذلك وضعت قواعد صارمة لتوزيع الفيء، كما هو الحال اليوم عند قراصنة البحر الأسود. بمجرد أن تنتهي المعركة، تجمع كل المغانم بدون استثناء، قبل أن يشرع في توزيعها على المقاتلين[1]. ويؤدي المقاتل قبل الخروج إلى الحرب يميناً مغلظة حول هذا الأمر بالذات، ولا يوجد بين الرومان من يجرؤ على الحنث إذ الوفاء بالقسم ركن أساس في عقيدتهم، وعماد التحامهم أثناء القتال.

والقاعدون في المدينة كانوا ينالون أيضاً حظهم من الغنيمة. تؤخذ من أرض العدو المهزوم مساحة، فتقسم إلى جزأين، جزء يباع بالمزاد لتزويد الخزانة العامة بالمال ، وجزء يوزع على المواطنين المعوزين، مقابل خراج يؤدونه للدولة.

لا يكرم القنصل بحفل النصر إلا إذا فتح مصراً أو حقق فوزاً كاسحاً. لهذا السبب، كان يتصدر القتال ويقود المعركة بحزم، دون مراوغة أو تردد، فيتحقق النصر في الحين بحد السلاح.

كانت روما في حرب مستمرة وجد عنيفة. أمة هذا دستورها، هذه قاعدة حكمها، إما أن تندثر وإما أن تسود. الشعوب الأخرى تتناوب عليها فترات حرب وفترات سلم، فلا تكون مثل روما في كل حين على أتم استعداد للهجوم والدفاع معاً.

لهذا السبب تراكمت لدى الرومان خبرة فائقة بفنون القتال. عندما تكون الحرب حالة عابرة، ما يكتسب فيها من دروس ينسى أثناء السلم

---

(1) [50 ك 10]. م م

أو تطمسه هموم آخرى. تغيب عن الذهن الهفوات ومواطن الضعف، بل حتى الفضائل وأسباب التفوق.

نتج عن هذا الوضع الخاص أن الرومان لم يهادنوا قط إلا على نصر، إذ أي فائدة في مصالحة شعب قبل أن يقر بالهزيمة والتوجه لمهاجمة غيره؟

وجرياً على هذا المنطق، حتى في حالة انكسارهم، لم يكونوا يخففون من شروط الصلح، بل كانوا يضيفون شروطاً جديدة، يصدمون بذلك العدو ويلزمون أنفسهم بالانتصار.

كان المقاتل الروماني يعلم ما ينتظره من تنكيل إن هو سقط في يد عدوه، فلا يسعه عندئذ إلا الصمود والاستماتة دفاعاً عن نفسه وعائلته ووطنه دون أن يميز بين هذه الدوافع الثلاثة.

كانت آلة الحصار غير معروفة في إيطاليا آنذاك[1]، وبما أن المجند متطوع، يقاتل بدون راتب، فلم يكن ممكناً إجباره على الخدمة طويلاً. لهذا السبب قلما كان النزاع يحسم أثناء حملة واحدة. ينهب معسكر العدو، تخرب أراضيه، ثم يعود كل من الغالب والمغلوب إلى دياره. لذا صمدت مدن إيطاليا في وجه روما التي قادت ضدها الحملة تلو الأخرى من دون أن تتمكن من إخضاعها بصفة نهائية. إلا أن هذا التعثر أفاد الرومان كثيراً، إذ لم تكن انتصاراتهم بالسرعة التي تفسد أخلاق المنتصِر، فحافظوا طويلاً على عاداتهم من القناعة والتقشف.

لو سهل على روما إخضاع كل الشعوب المجاورة لها، لوجدت نفسها

(1) هذا واضح من تتبع سير الأحداث [15ك9]. لم يكن المقاتلون يحفرون خنادق للاحتماء من رشق المحاصرين. فيحاولون اقتحام المدن متسلقين الأسوار. أول من اخترع الآلات لزعزعة الجدران ارطيمون المهندس [21]. وأول من استخدمها بريكلس لدى حصاره جزيرة ساموس [49]. م م

في حالة ضعف وانحلال عندما توالت عليها هجمات **فيهروس** المقدوني ثم **الغال** ثم **هنيبعل**[1]، ولمرت بما مرت به شعوب كثيرة قبلها، أي لانتقلت بسرعة من الخصاص إلى الوفرة، ومن الترف إلى الميوعة.

فرض عليها الموقع أن تكون باستمرار في حالة تأهب، تواجه صعوبات متجددة. فتجلت قوتها للغير دون أن تترجم في الحين إلى توسع. في نطاق ضيق جداً تمرنت روما بالتدريج على تلك الأخلاق العالية التي عانى منها باقي سكان الأرض.

لم تكن جميع شعوب إيطاليا ميالة للحرب. كان الغنى قد أوهن سكان **طوسكانيا** شمال روما، وفي الجنوب تعوّد سكان **تارنتا** و**كابوه** على البطالة والتمرغ في الملذات، شأنهم شأن **كامپانيا**، وموانئ إغريقيا الكبرى[2]. لكن الشعوب القريبة من روما، **اللاتين والهرنك، والسابين والإيك، والفولسك**، كل هؤلاء كانوا يهوون القتال حد الوله. فقاوموا الرومان بشراسة فائقة. وبذلك علموهم الصمود والعناد.

كانت مدن اللاتين من تأسيس **ألبا** المدينة الأم، على يد **لاتينوس سلبيوس**[3]. يجمع سكان ألبا وسكان روما أصل واحد، وطقوس دينية واحدة، لذا دعا **سربيوس توليوس** أهل ألبا إلى بناء معبد في روما، يكون رمزاً لوحدة الشعبين[4]، ولما انهزموا في وقعة بحيرة **رجيل (يس)** الشهيرة[5]،

(1) هجوم فيهروس سنة 272ق.م.، الغال سنة 247ق.م. ، هنيبعل سنة 182ق. م.
(2) تطلق العبارة على جزيرة صقليا وجنوب إيطاليا حيث أسس الإغريق مستعمرات كثيرة في منافسة شرسة مع قرطاج.
(3) انظر [7]. م م
(4) [15ك6]. م م
(5) سنة 496ق. م.

فرضت عليهم روما حلفاً دائماً، وشراكة أبدية في الحرب والسلم[1].

أثناء الفترة القصيرة التي اغتصب فيها الحكم جماعة العشرة[2]، تجلى للجميع إلى أي حد يرتبط توسع روما بحرية شعبها.

لم يمكث في المدينة إلا خانع قانع أو طامع جشع، الأول يتوخى من خضوعه الراحة، والثاني المصلحة. غادرها الشيوخ بعد أن أنكروا حالها واستباحها الجيران بعد أن توجسوا عجزها عن المدافعة.

ثم استطاع مجلس الشيوخ أن يخصص راتباً للمقاتلين. حينها أقدمت روما على محاصرة مدينة **ڤييس**[3]. طال الحصار عشر سنين، وخلال تلك المدة اهتدى الرومان إلى إبداع طرق في القتال لم يسبقهم إليها أحد. توالت الانتصارات وتراكمت لديهم الثروات، استولوا على مساحات شاسعة أقاموا فيها مستوطنات كثيرة مأهولة. باختصار شكل احتلال ڤييس نقطة تحول وثورة بكل المقاييس.

لكن هذا الفوز الباهر رافقته محن وشدائد كانت في مستواه، إن كال الرومان ضربات موجعة لشعوب **الطوسكان والإيك والڤولسك**، في المقابل هجرهم حلفاؤهم **اللاتين والهرنك** الذين يقاتلون بمثل أسلحتهم وعلى شاكلتهم في التعبئة والاصطفاف. تحالفت ضدهم مدن الطوسكان **والسابين**، أي أكثر شعوب إيطاليا شغفاً بالقتال، فحاربوهم بشراسة نادرة.

بعد أن عاد الجنود يتقاضون راتباً معلوماً كف مجلس الشيوخ عن مصادرة أراضي الأعداء المهزومين، وتوزيعها على المقاتلين. عوض ذلك

---

(1) انظر نص إحدى وثائق الحلف في [15ك6]. م م

(2) اغتصبوا الحكم بدعوة تزويد الشعب بقوانين مكتوبة تلحق بالأعراف المعتمدة [15ك11] م م. دام حكم العشرة سنتين، 450و451ق.م.

(3) حاصرها **كامل**(وس) أوائل القرن الرابع ق. م.

فرض على المغلوبين شروطاً أخرى، كأداء رواتب الجنود الرومان لمدة محددة أو تزويدهم بالمؤونة واللباس[4].

لما أغارت قبائل **الغال** على مدينة روما[5] مثّل ذلك حادثاً عابراً. لم يغير شيئاً من مجرى الأمور. تفرق الجيش من دون أن يهزم، انحاز كل الجنود إلى مدينة **ڤييس**، فيما لجأ الشعب إلى المدن المجاورة. فلم يتضرر من النار التي أضرمها المغيرون في المدينة المحتلة سوى بعض أكواخ الرعاة.

---

(4) انظر نص الاتفاقيات في كتب الأخبار. م م

(5) سنة 391ق. م.

الفصل الثاني

الرومان وفن الحرب

جعل الرومان من الحرب همهم الأول وصناعتهم الوحيدة. فاجتهدوا لإتقانها وتطوير أساليبها، إلى حد أن ڤجيس(يوس) Végèce [1] رجح أن تكون الكتيبة[2] من وحي إلهي[3].

رأوا أن يزودوا الكتيبة بأسلحة هجومية ودفاعية أمتن وأتقن مما كان عند غيرهم من الشعوب[4].

وبما أن هناك مهام لا يستطيع الرجل المثقل أن يقوم بها، وضع الرومان في قلب كل كتيبة فيلقاً خفيفاً ينطلق عند الحاجة، يقضي الغرض ثم يعود ليحتمي بها. كما كانت تحتوي الكتيبة على مجموعة من الفرسان والرماة وأصحاب المقالع، لملاحقة الفلول وإحكام النصر. كانت أيضاً برفقتها آليات تعززها وتحميها. إذا تحصنت صارت كالقلعة المنيعة، بحسب عبارة ڤجيس[5].

---

(1) مؤرخ روماني متخصص في شؤون الحرب عاش في القرن 4م.

(2) الكتيبة (لجيون)، أساس تعبئة الجيش الروماني، مكونة على العموم من 6000 جندي. عبر عنها في الترجمات العربية القديمة بكلمة عرافة.

(3) [29ك2ف25]. م م

(4) لا فرق بين الجندي الروماني المسلح والحصان [30ب]. انظر [50]. يحمل الجندي الروماني من المؤونة ما يكفيه لمدة أسبوعين. كما يحمل كل ما يحتاج إليه ويتقوى به. أما السلاح فلا ينظر إليه إلا كاليد التي يبطش بها [11ب ك3]. م م

(5) [69ك2ف25]. م م

لكي يستطيع المقاتل الروماني أن يحمل سلاحاً أثقل مما يحمله العدو، كان لزاماً عليه أن يكون أقوى جسماً من عامة الناس، لهذا الغرض كان يكثر من الرياضة والتمرين حتى تفتل عضلاته، وينوع التداريب حتى ينمي مهاراته، إذ المهارة ليست سوى التوزيع المتكافئ للقوة البشرية.

نرى اليوم عدداً كبيراً من الجنود يقضون نحبهم بعد مزاولة عمل شاق[1] خلافاً للرومان الذين كانوا يزدادون قوة بالمواظبة على الشغل. السبب فيما أرى هو أنهم كانوا لا يعرفون الراحة، في حين أن جنودنا يترددون دون تدرج بين العمل المتعب والبطالة التامة. الأمر الذي يؤدي حتماً إلى الهلاك.

لا مناص لي من أن أذكر هنا ما رواه القدامى عن تأهيل الجندي الروماني[2]. يمشي عادة مهرولًا، يقطع عشرين ميلًا[3]، حتى أربعة وعشرين ميلاً، في خمس ساعات. هذا ويحمل على ظهره وزن ستين رطلاً[4]. يتدرب باستمرار على الركض والقفز وهو شاكي السلاح. يحمل أثناء التداريب، من سيف وحربة أو سهم، ما يزن في الغالب ضعف وزنه العادي. والتدريب على هذه الطريقة متواصل لا ينقطع.

كما لا يقتصر على المعسكر. في كل مصر يوجد ميدان مخصص لهذا الغرض، مفتوح في وجه كل مواطن، وهو المعروف باسم شان دو

---

(1) حفر الخنادق بخاصة. م م

(2) [69ك1]، انظر أيضاً في [67 ك 26] ما يرويه المؤلف عن التداريب التي فرضها شبيون الإفريقي على الجنود بعد استيلائهم على قرطاج الجديدة. وهذا ماريوس، رغم سنه المتقدمة، يذهب كل يوم إلى الميدان شان دو مارس ليتريض. وپومپيوس، وهو في الثامنة والخمسين، يذهب شاكي السلاح وينازل الشبان، يمتطي الجواد، ينطلق بأقصى سرعة، ويرمي النشابة [49]. م م

(3) الميل يساوي 1.5 كيلومتر.

(4) [69ك1]. م م

مارس[1]. بعد التدريب يقصد المرء نهر التيبر ويغطس في مياهه غسلاً للعرق وتخلصاً من الغبار، وكذلك إتقاناً للسباحة. لا ندرك اليوم الهدف الحقيقي من الرياضة البدنية. نحتقر من يتعاطاها بانتظام، ونرى فيها ضرباً من التسلية والترفيه، في حين أن القدامى كانوا ينظرون إلى كل أشكالها، حتى الرقص، كوجه من وجوه الاستعداد للحرب.

بل أصبحنا نستخف بمن يتفنن في استعمال الآلات المخصصة للقتال. مع انتشار عادة المبارزة الفردية صرنا نقول: إن المثابر على المساقرة جبان متنطع.

يلوم البعض الشاعر **هوميروس** لأنه عندما يعدد خصال الأبطال يلح على قوة الجسم وخفة الحركة ولياقة البدن. هلا سخروا أيضاً من المؤرخ **سالوست**(وس) الذي يمدح **پومپيوس** لأنه كان يبز معاصريه في العدو والقفز وحمل الأثقال[2].

كلما شعر الرومان بخطر يحدق بهم، أو ارتكبوا خطأ وأرادوا استدراكه، أو تعرضوا لفشل، عادوا وشددوا على ضرورة الانضباط العسكري. هذا القنصل **مانليوس**، وهو في مواجهة صعبة مع **اللاتين**، شعب لا يقل عن الرومان حزماً وإباءً، لم ير حافزاً أنفع من تعزيز سلطة القواد فأعطى المثال بإعدام ابنه، لأنه هاجم العدو قبل أن يتلقى الأمر بذلك، رغم أنه خرج منتصراً من المجابهة[3]. وهذا القنصل **شيپيون الأميلي** أثناء محاصرته حصن **نومنثيا**[4]، يرى جيشه يتراجع، فيقرر أن يجرد الجنود من كل أسباب الميوعة والاسترخاء[5]. وهذا القائد **متلوس**، في مواجهة **يوغورتا**، يرى

---

(1) مارس إله الحرب

(2) [نقلاً عن 59ك 1ف 9]. م م

(3) سنة 340ق.م. **مانليوس توركواط**(وس) كان قنصلاً سنة 347، 344، 340ق.م.

(4) في اسبانيا سنة 133ق.م.

(5) باع الدواب وأجبر كل جندي على حمل مؤونة ثلاثين يوماً وسبعة أوتاد [25ك57]. م م

إهانة الكتائب باستعراضها تحت النير[1]، فيستعيد النظام القديم فينجح ويمحو العار. وهذا **ماريوس** يحاول قهر قبائل الجرمان **القنبر والطوطون**، فيأمر بتحويل مجرى الأنهار[2]. وسولا (Sylla) يرى جنوده ترتعد فرائصهم خشية ملاقاة **ميثريدات** فينهكهم بأشغال شاقة حتى يهون عليهم القتال ويطالبونه بالمبادرة[3].

والقنصل **پوبليوس ناسيكا** أمر جنوده بتركيب قوارب حربية لا حاجة له بها لأنه كان يخشى عليهم مفاسد البطالة أكثر من حر القتال[4].

يؤول المؤرخ **أولو(س) جلي(وس)** فيما أرى تأويلاً ضعيفاً عادة غريبة خاصة بالرومان وهي أن كل جندي أخل بواجبه يعاقب بالفصد. الصحيح عندي هو أن رأس مال الجندي سلامة جسمه والفصد إضعاف له فهو إذن غاية الذل والإهانة.

رجال هذا مستواهم من البأس والتمرين كانوا يتمتعون في الغالب بصحة جيدة. حاربوا في أقطار شتى تحت طقوس مختلفة وأحوال مناخية متقلبة، ولم يذكر عنهم أنهم تعرضوا كثيراً للأوبئة والأمراض الفتاكة. عكس ما نلاحظ اليوم إذ كثيراً ما نرى جيوشاً تنحل وتذوب في الخلاء قبل أن تباشر أي قتال.

تتكرر في أيامنا حالة الفرار من الخدمة العسكرية لأن الجندي المعاصر غالباً ما ينتمي إلى حثالة الشعب، ولأن أحوال الأمم اليوم تكاد أن تكون متساوية. لا فضل لأمة على غيرها ولا تعتقد أية منها أن لها ميزة خاصة. أما الرومان فكانوا أصحاب نخوة وأنفة، يشعرون بأنهم ولدوا ليسودوا.

---

(1) عارضة يمر تحتها الجندي المغلوب إشارة إلى أنه فقد حريته.

(2) سنة 101 و102 ق.م.

(3) سنة 155 ق.م.

(4) [6ك 10ف 8]. م م

من ينتمي إلى أمة هذه عقيدتها، وهو حامل للسلاح، لا يفكر أبداً أن ينحط إلى حد التخلي عن جنسيته.

وبما أن الجيوش كانت قليلة العدد كان تموينها سهلاً، فيما يعرف القائد المقاتلين واحداً واحداً، فيدرك في الحين أنهم ارتكبوا خطأ أو خرقوا نظاماً.

كان من آثار تدريبهم القاسي، وجودة الطرق التي يجبرون على تعبيدها، أن يقطعوا المسافات الطويلة في أوجز مدة[1]، فيباغتون العدو وينشرون الرعب في صفوفه. سيما بعد معركة غير حاسمة، يظن العدو أنه كسبها فيكون لاهياً ساهياً.

في الحروب المعاصرة لا يحارب المرء باطمئنان إلا وهو في حمى جماعة، أما المحارب الروماني وهو أقوى جسماً وأحسن تدريباً من خصمه، فإنه يعتمد بالأساس على نفسه. الشجاعة طبع له، خصلة يغذيها الشعور بقوته الذاتية.

وبما أن جنود الرومان كانوا دائماً الأكثر انتظاماً والتحاماً، حتى في المواجهات الأقل تكافوءاً، قلّ ما لا تسنح فرصة يتجمعون فيها لالتقاط الأنفاس، فيما تعم الفوضى صفوف العدو. نرى ذلك باستمرار في أخبارهم. في بداية اللقاء يصدمون بكثرة وحماسة المهاجمين ثم في النهاية ينزعون منهم الفوز نزعاً.

همهم الأول البحث عن موطن القوة لدى العدو فيعالجونه تواً بما يلزم. تعودوا منذ الشباب على رؤية الدم يتدفق من الجراح بمشاهدة المصارعين في الملاعب، وهو تقليد ورثوه عن شعب **الطروسك**[2].

---

(1) انظروا كيف هزموا **هاسدروبال** ولاحقوا بهمة وإصرار **ڤيرياط**. م م.

(2) [454] قبل أن يغادر الجندي روما لميدان القتال كان يدعى لمشاهدة مباراة **مجالدة** [ج31]. م م

كلما واجهوا سلاحاً غير معروف لديهم، لم ينخدعوا به إلا مرة واحدة. حصل ذلك مع السيف الخاص بشعب **الغال**[1]، كما حصل مع فيلة **فيهروس**. أصلحوا حالة خيالتهم[2]. تخلوا عن اللجام حتى لا يحد من اندفاع الفرس. ثم ضموا إلى الخيالة مشاة بسلاح خفيف[3]. ما إن تعرّفوا على السيف الاسباني حتى تخلوا عن سيفهم التقليدي[4]. وفي المواجهات البحرية، حيث لم تكن لهم خبرة تذكر، استدركوا ضعفهم إزاء تجربة ملاحي العدو باختراع آلة تسمى الغراب وصفها لنا المؤرخ **پوليب**(وس). بالجملة بحسب عبارة **فلافيوس يوسف**(وس)[5]، كانت الحرب بالنسبة للرومان فرصة للاعتبار، وكان السلم مناسبة للاختبار.

إن كان لأمة ما أي تفوق، طبعاً أو تطبعاً، استعاروه منها في الحين. وهكذا حرصوا على امتلاك خيل **نوميديا** وأقواس جزيرة **كريت** ومقاليع جزر **الباليار** وأجفان جزيرة **رودس**.

في الخلاصة لم توجد قط أمة استعدت للحرب بمثل احتراس روما وخاضت غمارها بمثل حزمها وهمتها.

---

(1) قاوموه بالحربة. فبعد عدة ضربات كان حده يفلّ. م م

(2) مع ذلك كانت الأجود في الربوع الإيطالية. مكونة من أفضل المواطنين، تزودهم الدولة بالخيول وتسلحهم سلاحاً خفيفاً، عكس المشاة. عند الحاجة تترجل وغالباً ما تحسم المعركة. م م

(3) شبان بمنتهى الخفة، يحاربون كمشاة ويقفزون على ظهر الفرس عند الإشارة. [68ك2؛ 67ك26]. م م

(4) [60 نقلاً عن 50]. م م

(5) [30ب 25]. م م

الفصل الثالث

السر في توسع روما

شعوب أوروبا اليوم متساوية في مجال الصناعة والتسلح. تطبق نفس النظام وتقاتل بنفس الأسلوب. لذا لا نكاد نفهم كيف تأتّى لروما أن يساعدها الحظ في كل ما أقدمت عليه من مشاريع. ثم التفاوت الكبير الموجود اليوم بين قدرات الدول يجعل من المستحيل أن ترتفع دولة صغيرة، بمحض جهودها، من الوضع المتدني الذي كتبه لها القدر.

هذه نقطة يجب أن نتمعن فيها، وإلا عجزنا عن فهم أحداث الماضي. إذا لم ندرك تبدل الأحوال فإننا نميل إلى الظن، ونحن نقرأ أخبار الماضي، أنها تتكلم عن عمالقة وليس عن رجال مثلنا[1].

تؤكد التجربة في أوروبا أن أمير دولة عدد سكانها مليون نسمة لا يستطيع أن يتحمل طويلاً نفقات جيش قوامه عشرة آلاف جندي. الجيوش القوية هي إذاً من نصيب الدول الكبيرة.

لكن الوضع كان مختلفاً في القديم. نسبة الجندي للمدني اليوم واحد من مائة، في الماضي كثيراً ما كانت تصل إلى واحد من ثمانية.

في القديم عندما تؤسس الدولة توزع الأرض بالتساوي على الجميع.

(1) قارن مع ما يقوله ابن خلدون في هذا الباب: "فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين، ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال..فيقع في مهواة الخطأ..".

يترتب عن هذا الإجراء وحدة شعب قوي ومجتمع في غاية التماسك والانتظام. يمتاز الجيش ويتفوق إذ مصلحة كل محارب، المصلحة هنا كبيرة جداً، أن يدافع عن وطنه بكل ما أوتي من قوة.

إذا أهملت هذه القاعدة الأساس، أو لم تطبق بحزم، عندها تسير الأمور إلى ما نراه في مجتمعاتنا. يكثر حرص البعض وإسراف البعض الآخر، فتكدس الملكية في أيدي القلة. تزدهر في الحين الصنائع استجابة لرغبات الأغنياء والفقراء معاً. فلم يعد يوجد في هذا الوضع الجديد لا المواطن الحق ولا الجندي الحق، إذ الأراضي التي كانت توفر قوت الفريقين أصبحت تستغل لسد حاجات الأتباع والصناع، خدام الملاكين الجدد الميالين إلى حياة بذخ ورخاء. هذا تطور يدخل الخلل على الدولة، لكنه في الوقت نفسه يضمن لها البقاء، وإلا انهارت بالمرة. قبل أن يطرأ، تكون موارد الدولة توزّع مباشرة على المقاتلين الذين هم في الوقت نفسه مزارعون، بعد حصوله يستأثر الأغنياء بمداخيل الدولة، وعن طريقهم يستفيد منها الصناع والعبيد. تسترجع الدولة بواسطة الضرائب قسماً من هذا المال فتنفقه على الجنود.

لكن هؤلاء الجنود، ليسوا كسابقيهم. لا نجدة فيهم ولا إقدام. الغالب عليهم الجبن، بعد أن فسدت أخلاقهم بالعيش وسط المدن بل مهنتهم ذاتها تتسبب في فسادهم إذ يرتزقون منها أينما حلوا. لا شيء يربطهم بوطن معين، فليس لديهم ما يتمسكون به ويخشون ضياعه.

نملك إحصاءين، أحدهما نُظم في روما بعد سقوط النظام الملكي[1]،

(1) [15ك 9مادة 25] أعتقد أنه نفس الإحصاء الموجود في خاتمة [65] والذي أنجز ست عشرة سنة بعد طرد آخر ملوك روما. م م

والثاني يخص أثينا قام به **ديميتريوس فالر**[1]Démétrius، العدد الأول أربع مائة وأربعون ألفاً، والثاني أربع مائة وواحد وثلاثون ألفاً. هناك إذاً شبه تعادل، لولا فارق الزمن. أنجز الأول عندما كانت روما في أوج عزها وأنجز الثاني وأثينا في درك الانحطاط. نلاحظ أن نسبة البالغين في الأولى ربع السكان وفي الثانية أقل من نصف العشر، مما يعني أن قوة روما مقارنة مع أثينا بنسبة الربع لنصف العشر، أي أنها أقوى خمس مرات.

كان عدد مواطني **سبارطة**[2] في عهد **لوكورغ**(وس)، تسعة آلاف، في عهدي الملكين **أجيس وكليومان**[3]، اختزل العدد إلى سبع مائة. أقل من مائة يملكون عقاراً، أما الباقي فكانوا دهماء لا همة لهم ولا نخوة. قرر الملكان العودة إلى النظام الأصلي وفي الحين استعادت سبارطة قوتها وهيمنتها على سائر الاغريق.

الخلاصة واضحة: المساواة في الملكية العقارية هي سبب بروز روما وخروجها من وضعها الحقير. ويقوي هذا الاستنتاج ما حصل عندما زالت تلك المساواة.

في بداية تاريخها، وهي لا تزال دولة صغيرة، رفض جيرانها، خرقاً للعهود، إمدادها بالمقاتلين. فعبّأت في الحين عشر كتائب[4]. يعلق **تيت ليف** قائلاً: روما اليوم تضيق الأرض بسكانها، ومع ذلك، لو حصل مثل ما ذكرنا، وطوق العدو بغتة أسوارها، لما استطاعت أن تعبئ هذا القدر

---

(1) كان ذلك نهاية القرن الرابع ق.م. [4ك6]. م م

(2) كانوا وحدهم يحملون لقب سبارطي. خصص لهم المشرع **لوكورغ** ألفي حصة من الأرض ولباقي السكان ثلاثين ألف حصة [49]. م م

(3) أجيس الرابع حكم من 244 إلى 240ق.م. كليومان الثالث حكم من 236 إلى 222ق.م.

(4) كان ذلك أثناء غارة الغال والقنصلان **كامل وكراسوس**، [67، I، ك7] م م.

من الجنود، دليل على أننا لم نزد قوة وتمكناً بقدر ما زدنا رخاءً ونعيماً، الشيء الذي ينخر قوانا. عندما قدّم **تيبريوس غراكوس**[1] مشروعه الثوري الرامي إلى إعادة توزيع الملكية العقارية، قال مخاطباً أشراف روما «أيهما أنفع لكم، مواطن مقاتل أم مملوك قاعد يتفرج؟ ماذا تفضلون، أن تسودوا على الأرض كلها، وهو ما تتطلعون إليه، أم أن تملكوا بضعة أمتار تمتازون بها على الأقران، تبخلون بها عنا، وقد ينزعها منكم العدو إذا انتصر؟[2]».

(1) سنة 133 ق.م.

(2) [2ب ك 1]. م م

الفصل الرابع

1 ـ الغال. 2 ـ فيهروس. 3 ـ مفاضلة بين روما وقرطاج. 4 ـ حروب هنيبعل.

1 - حارب الرومان مراراً أمة **الغال** التي لم تكن أقل منهم تطلعاً إلى المجد، استخفافاً بالموت، وحرصاً على النصر. لكن سلاح الغال كان أوهن، يحاربون بذراع صغيرة وسيف رديء الصنع. لذا حصل لهم على وجه العموم ما حصل لسكان المكسيك لما غزاهم الإسبان. ما يدعو إلى الاستغراب هو أن هذه الأقوام المختلفة، التي سقطت فريسة الرومان، تقريباً في كل مكان وزمان، أمهلتهم ووفرت لهم دائماً الفرصة لسحقها الواحد بعد الآخر من دون أن يحاول أي قوم معرفة أسباب المصائب التي تلم به أو الاحتراس منها[1].

2 - جاء هجوم **فيهروس**[2] على الرومان متأخراً، في وقت أصبحوا فيه قادرين على مدافعته والاستفادة من تراجعهم أمام جيوشه. تعلموا منه كيف يتخندقون، كيف ينتقون مواقع المعسكرات ويرتبون أقسامها. عودهم على رؤية الفيلة وأعدهم لحروب لاحقة أشد ضراوة وأطول أمداً.

(1) انظر الجواب على هذا السؤال في مستهل الفصل السادس.

(2) ملك أبيريا توفي سنة 272 ق.م.

لكن عظمة **فيهروس** انحصرت في خصاله الشخصية[1]. يقول **فلوطارخ**[2] إنه اضطر إلى غزو **مقدونيا** لأنه عجز عن الإنفاق على جيشه المكون من ستة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان. هذا الأمير الذي حكم دولة صغيرة، لم يُسمع عنها شيءٌ بعد وفاته، كان يغامر باستمرار لأن المغامرة كانت مورده الوحيد.

تحالف مع سكان **تارنتا**[3]، لكن بعد أن فقدت مؤسساتهم الروح العالية الموروثة عن أجدادهم الوافدين من **اسبارطا**[4]. لربما كان يحقق مشاريع جليلة بمساعدة شعب **السامنين**، لولا أن الرومان كانوا قد أوشكوا على استئصالهم قبل مجيئه إلى إيطاليا.

3 - سبقت **قرطاج** روما إلى الرفاهية وبالتالي إلى الميوعة والانحلال. في روما كانت المناصب آنذاك لا تسند إلا لمن يستحقها، فلا يجنى منها سوى الذكر الجميل ويروي تعطشه للمتاعب. أما في **قرطاج** فكانت تباع وتشرى. لا يخدم الفرد العموم إلا مقابل مكافأة من الدولة.

إهمال الصالح العام يضر بالجمهورية ويقربها من الانحلال أكثر مما يضر دولة يحكمها طاغية. ميزة الجمهورية، وهي نظرياً دولة الأحرار، هي أنها تدير المال العام بكيفية أفضل من غيرها، ماذا يحصل إذا كان العكس؟ ميزة دولة الأحرار ألا فضل لأحد على آخر. فماذا يحصل إذا انقلب الوضع وأصبح أولياء وأقرباء كل ذي سلطة في الجمهورية يعاملون كرفاق وأقارب الأمير في الدولة الملكية؟ عندها يعم الفساد ويضيع كل شيء. الالتفاف

(1) [24ب 15]. م م

(2) [49]. م م

(3) جنوب إيطاليا.

(4) [32 كـ 20]. م م

على القانون أخطر على الدولة من نزوات الأمير. هذا الأخير، وهو أكبر أعضائها، مشارك فيها وله بالتالي مصلحة كبرى في الحفاظ عليها.

في روما، بسبب استمرار الأخلاق التقليدية والتعود الطويل على حياة التقشف، كانت حظوظ الناس متساوية. في **قرطاج** كان بعض الأفراد أثرياء مثل الملوك.

في قرطاج كانت الدولة دائماً منقسمة إلى حزبين، أحدهما يناصر آل **برْكة**، والآخر آل **هانون**، هؤلاء يفضلون دائماً السلم، وأولئك الحرب. إذا سالمت لم تنعم **قرطاج** بالهناء طويلاً، وإذا حاربت لم تقاتل بحزم.

في روما، متى نشبت الحرب توحدت مصالح الجميع. في قرطاج كانت الحرب تزيد السكان فرقة ونفرة[1].

حيث يحكم أمير تسوى الخلافات بسهولة، إذ يفرض الحاكم الصلح على الطرفين. في الجمهورية يتفاقم الخلاف لأن النزاع يعطل تلك السلطة القادرة وحدها على معالجته.

في روما، حيث يسود القانون، كان الشعب يرضى أن يسيِّر الشيوخ السياسة. في قرطاج، حيث يغلب الهوى، يود الشعب أن يقوم هو نفسه بكل شيء.

واجهت قرطاج الثرية روما الفقيرة، فكانت في موقع ضعف: المال ينفد، ولا ينفد أبداً مفعول الفضيلة والصبر، البأس والقناعة.

وراء طموح روما العزة، ووراء طموح قرطاج الحرص والشح. هدف الأولى السيادة، هدف الثانية الكسب. عينها دائماً على ميزان الربح والخسارة. تقاتل وهي للحرب كارهة.

---

(1) اقترب **هنّيبعل** من روما فخمدت في الحين كل الخلافات. اقترب **شيپيون** من قرطاج فتفاقمت النزاعات. فقدت بذلك الحكومة ما بقي لديها من قوة، وراح الشعب يتهم قادة الجيوش والشيوخ وعامة الوجهاء فازداد هيجاناً. [2ج؛49]. م م

خسرت قرطاج بعض المعارك، تناقص عدد سكانها، كسدت تجارتها، فرغت خزائنها، ثارت عليها شعوب مجاورة لها، فإذا بها تحن إلى الراحة، وتقبل شروطاً مجحفة مذِلّة. منحى لم تجنح إليه قط روما. لم تُلْق أبداً بالاً للمنافع والأضرار، مستجيبة فقط لداعي المجد. وبما أنها لا ترى المجد إلا في أن تسود، فلا الخوف ولا الأمل كانا أبداً ليرغماها على قبول صلح لا تفرضه هي.

أقوى دولة جمهورية تطبق القانون لا خوفاً أو تحسباً، بل ميلاً إليه وشغفاً به، كما كان الأمر في روما **ولقديمونيا**[1]، إذ تمتزج في شخص الحاكم حنكة القائد وحمية المناضل المتحزب.

جنود قرطاج مرتزقة، مقاتلو روما مواطنون. وبما أن الرومان كانوا دائماً يرون في عدو اليوم حليف الغد، بمجرد أن يعترف بالهزيمة، فإنهم جندوا كل الشعوب التي دانت لهم بالغلبة. كلما قاومهم شعب بشدة استخلصوا من ذلك أنه جدير بأن يُضم إلى جمهوريتهم. هذا ما حصل مع **السامنين**، الذين لم يستسلموا لهم إلا بعد أن هزموا في أربع وعشرين معركة[2]. فأصبحوا إثر ذلك أوفى حلفائهم. زودوهم، قبل الحرب البونيقية الثانية[3]، أثناء هجوم **الغال**، هم وجيرانهم، سكان منطقة لا يزيد حجم سكانها على ما تمثله اليوم دولتا البابا **ونابولي**، بسبعمئة ألف من المشاة وسبعين ألفاً من الفرسان[4].

في خضم المعركة مع هنيبعل، تراوح عدد مقاتلي الرومان بين اثنتي

---

(1) اسبارطة.

(2) [25ك 1]. م م

(3) دامت من 219 إلى 201 ق.م.

(4) [50] العدد في المرجع [25] هو ثلاثمئة ألف مجند من مدينة روما ومن اللاتين.م م

وأربع وعشرين كتيبة[1]، مع أن عدد المواطنين لم يتجاوز، بحسب الإحصاء المذكور عند **تيت ليف**، مائة وسبعاً وثلاثين ألف نسمة.

كانت **قرطاج** تخصص جل جنودها للهجوم وروما للدفاع. جندت كما رأينا عدداً هائلاً ضد **الغال** وضد **هنيبعل** عندما هوجمت في عقر دارها، في حين أنها واجهت أقوى الملوك بكتيبتين فقط[2]. فبدت قواتها وكأنها في نفس المستوى لا يعتريها أبداً أي نقص.

موقع قرطاج في أفريقيا مهدد باستمرار، موقع روما وسط إيطاليا محصن بثلاثين مستعمرة تحيط بها[3]. قبيل معركة **قانه**[4] ضد هنيبعل، لم يخذل روما أي من حلفائها. ذلك أن **السامنين** وسائر شعوب إيطاليا ألفوا الانقياد لها.

معظم مدن أفريقيا خالية من أسوار تحميها. متى أطل عليها العدو أذعنت له. كلما هوجمت قرطاج في عقر دارها، كما فعل **أغاطوكل**، **رغولوس**، **شيبيون**[5] تخاذلت ويئست.

أثناء حملة شيبيون الأول[6] انتشرت المجاعة في قرطاج، بل في سائر جيوشها، في حين أن أعداءها كانوا في وفرة من كل شيء. هذا أمر لا يفهم إلا إذا افترضنا أن تدبير الشأن العام فيها كان سيئاً جداً[7].

---

(1) بين مائة واثنين وثلاثين ألف ومائة وأربعة وأربعين ألف مقاتل.
(2) أي اثني عشر ألف مقاتل.
(3) [65 ك 27]. م م
(4) سنة 216 ق.م
(5) حصل ذلك على التوالي سنوات 361 ثم 256 ثم 205 ق.م.
(6) أب شيبيون الملقب بالأفريقي قاهر هنيبعل.
(7) [2 ج]. م م

كلما انهزم جنود قرطاج ازدادوا وقاحة، حاكموا القادة، رموهم بالجبن وأحياناً أقدموا على صلبهم. في حالة مماثلة كان القنصل الروماني يعشر الجيش المنكسر[1]، وبالباقي يعيد الكرة على العدو.

اتسم حكم القرطاجيين بقساوة مفرطة[2]. بلغ تنكيلهم بسكان إسبانيا إلى حد أن هؤلاء رحبوا بالرومان واستقبلوهم كمحررين. إذا اعتبرنا الأموال الطائلة التي أنفقت في حرب انتهت بهزيمة شنعاء، نستخلص أن الظلم سياسة خرقاء، لا يحقق أبداً أي هدف.

ثم جاء تأسيس مدينة الاسكندرية[3]، ليضرب في الصميم تجارة قرطاج. كان المصريون القدامى، تشبثاً بأوهامهم الدينية، يعملون بشتى الوسائل على إبعاد الأجانب. لما غزاهم الفرس، رأى هؤلاء أن من مصلحتهم تشجيع هذه الذهنية الانزوائية. لكن تحت حكم الأمراء الإغريق[4] استحوذت مصر على تجارة الدنيا متسببة في تراجع قرطاج.

تدوم قوة الدول التجارية ما دامت متوسطة الحال. أما إذا تألقت فإنها تنهار بسرعة. تنمو تدريجياً من دون أن ينتبه إليها أحد، لأنها لا تقوم بأي عمل يلفت النظر ويرفع الستار عما تجمع لديها من أموال. لكن بمجرد أن تبدو للعيان تلك الثروة المكدسة، ولم يعد في وسع أحد نكرانها، حتى يتكتل الجميع ويعمل على انتزاع ما حصلت عليه تلك الدولة في غفلة من الآخرين.

---

(1) يعدم عُشر عدد الجنود.
(2) [24 نقلاً عن 50 ك 9] م م
(3) سنة 332 ق.م.
(4) البطالسة.

تفوقت قرطاج على روما تفوقاً واضحاً في مجال الخيالة، وذلك لسببين: أولاً جودة خيول **نوميديا** وإسبانيا مقارنة بخيول إيطاليا. ثانياً رداءة سلاح فرسان الرومان. لم يتحسن وضعهم إلا بعد أن حاربوا الإغريق وتتلمذوا عليهم[1].

أثناء الحرب البونيقية الأولى[2]، صد القرطاجيون هجوم **رغولوس**[3] بمجرد ما اختاروا منازلته في البسائط للاستفادة من الخيل. أثناء الحرب الثانية[4]، حقق هنيبعل أكبر انتصاراته بوساطة حلفائه فرسان نوميديا.

انتزع **شيپيون** هذه الورقة الرابحة من أيدي خصومه عندما استولى على جل إسبانيا وتحالف **مع مسينيسا**[5]. وفي معركة **زاما**[6] التي أنهت الحرب جاء الفوز على يد فرسان هذا الملك.

كان للقرطاجيين اتصال بالبحر، دربة على المناورة، واتقان لمسائل الملاحة أقوى مما كان عند الرومان. لكن يبدو أن تأثير هذا التفوق كان في الماضي أقل مما نرى اليوم.

لم يعرف القدماء البوصلة. فكانوا لا يبتعدون كثيراً عن الشاطئ. كانت مراكبهم صغيرة الحجم، مسطحة، تسير بالمجذاف. كل دخلة محمية من الرياح تصلح لهم كمرسى. صناعة النوتية محدودة. يتلخص ما يعرفون من المناورة في حركات بسيطة. لهذا السبب ادعى **أرسطو** أن لا حاجة

---

(1) [50، 65] م م.
(2) دامت من 264 إلى 241 ق.م.
(3) سنة 255 ق.م.
(4) انحازت فيالق بأكملها إلى جانب الرومان، فتنفس هؤلاء الصعداء. م م
(5) ملك نوميديا توفي سنة 149 ق.م.
(6) سنة 202 ق.م.

للملاحين وأن المزارعين يستطيعون أن يقوموا مقامهم[1].

الدليل على تخلف الملاحة في العهد القديم هو أن ما كان يستلزم جهد ألف مجذاف ينجز اليوم بمائة[2].

المراكب الضخمة، التي تحركها سواعد المساجين، لا تسير بسهولة ولا تغير وجهتها بالسرعة المطلوبة. فائدتها هزيلة كما جرب ذلك بأسى مرك(وس) **أنطوان** (انطونيوس) في معركة **أكتيوم**[3]. لم تستطع مراكبه التحرك لما أحاطت بها من كل جانب مراكب **أوكتاف**(يوس) التي كانت أصغر حجماً وأكثر سرعة[4].

بما أن مراكب القدامى كانت تسير بالمجذاف كان من اليسير أن يلحق أصغرها حجماً العطب بأكبرها، فتعود عاجزة عن أي حركة كسفن اليوم عندما تفقد صواريها.

باختراع البوصلة تغير كل شيء. نبذ الملاحون المجذاف[5]. ودّعت الملاحة الشاطئ، كبر حجم المراكب، تعددت أجزاء آلياتها كما تنوعت أوجه المناورة بها.

ثم اكتشف البارود فكان لهذا الاكتشاف نتائج غير متوقعة. أصبحت نجاعة سلاح البحرية منوطاً كلياً بمهارة البحارة. تضاعف ثقل السفن لكي تصمد لنار مدافع أقوى من مدافعها. فلزم أن يساوي حذق الملاح ضخامة الآلة.

---

(1) [3كـ3 ف 6]. م م

(2) [45]. م م

(3) سنة 31 ق.م.

(4) حصل نفس الأمر في معركة سلامين [سنة 480ق.م.]، وفي وقائع كثيرة أخرى. انظر [49]. م م

(5) في هذا الإجراء دليل قاطع على هزالة خبرة القدامى، إذا تخلينا عن أمر لنا فيه تفوق واضح. م م

في الماضي كانت المراكب، بسبب صغر حجمها، تصطدم كثيراً ببعضها البعض، فيقاتل الجنود على ظهرها كما لو كانوا قياماً على وجه الأرض. في المعركة التي انتصر فيها **رغولوس** رفقة زميله[1]، قاتل مائة وثلاثون ألف جندي روماني مائة وخمسين ألف قرطاجي. في هذه الحال كان الجندي يمثل كل شيء والبحري لا شيء. اليوم العكس هو الصحيح. لا فائدة في الجندي أو فائدته قليلة، الأمر كله بيد أهل الصنعة.

يدل على هذا الاختلاف في الأوضاع انتصار القنصل **دويليوس نپّوس**[2]. لم يكن آنذاك للرومان أية خبرة بشؤون الملاحة. فحصل أن غرق قادس قرطاجي قرب الساحل. استولى عليه الرومان واتخذوه كمنوال. فككوا السفينة، صنعوا أشباهاً لأجزائها ثم ركبوها. لم تمر ثلاثة أشهر حتى توافر لديهم أسطول مجهز وملاحون أكفاء قادرون على تسييره. أبحر دويليوس، اعترض البحرية الحربية القرطاجية وهزمها.

اليوم قد يقضي رئيس دولة طول حياته، وهو يحاول تجهيز أسطول ثم يعجز عن مواجهة خصم يسيطر على البحر منذ عهود. هذا هو الشيء الوحيد في الدنيا الذي لا يقتنى بمال مهما كثر. وإن حالف التوفيق ملكاً عظيماً[3] في أولى محاولاته، فقد أظهرت التجربة لسواه[4] أن مثاله يدعو إلى الإعجاب لا إلى الاقتداء.

4 - لا أحد يجهل وقائع الحرب البونيقية الثانية لكثرة ما ألف في شأنها.

---

(1) معركة اكنومة، جنوب صقليا سنة 257 ق.م. زميل رغولوس هو **منيلوس ڤولسيو** Vulsio.

(2) سنة 260 ق.م. قرب جزر **ليباري**.

(3) **لويس الرابع عشر**. م م

(4) الاسبان والروس م م

لا يوجد في أخبار الأقدمين لوحة أزهى وأنصع من هذه حيث تصور لنا التحدّيات الجمة التي اعترضت **هنيبعل** وتغلب عليها كلها بلا استثناء.

صمدت له روما صموداً لا يصدق. توالت عليها الهزائم في معركة **تسين**، في **ترابيه**، في **تراسيمن**، سحقت جنودها سحقاً في معركة **قانه** الشهيرة، خذلها جل شعوب إيطاليا، ورغم كل هذا لم تجنح أبداً إلى الاستسلام. ذلك أن شيوخها لم يروا أن بوسعهم تجاهل تقاليدهم الوطنية العريقة. سلكوا مع هنيبعل مسلك أجدادهم مع **فيهروس**. قالوا له: لا نهادنك أبداً ما دمت تطأ أرض إيطاليا. وبالفعل أقرأ عند المؤرخ **دوني هاليكارناس**[1] أن الشيوخ عند مفاوضتهم **كوريولان**(وس)[2] أكدوا له أنهم أوفياء لقاعدة تليدة في روما، هي أن لا سلم مع من يحتل أرض الوطن. لكن متى انسحب العدو[3]، فإن روما تمنح كل ما يمليه عليها الحق والعدل.

ما أنقذ روما إذاً ، وهي على حافة الهاوية، هو نظامها السياسي. بعد هزيمة قانه النكراء منع مجلس الشيوخ النساء من البكاء على الموتى ورفض فدي الأسرى، ثم أرسل فلول الجيش يحارب في **صقليا**، متحفظاً على المكافآت والأوسمة إلى حين رحيل هنيبعل عن إيطاليا.

بجانب هذا كان القنصل **ترنتيوس ڤارون**، أحد القائدين المنكسرين في وقعة قانه، قد فر من الميدان في صورة مخزية ولم يتوقف إلا عند أبواب مدينة فنوزة. كان الرجل من أصل حقير، لم ينتخب إلا نكاية في النبلاء

---

(1) [15ك 8]. م م

(2) قائد روماني شعر بالغبن بين مواطنيه. فلجأ إلى الأعداء وجاء بهم ليحاصر روما، حصل ذلك سنة 488ق.م. روى سيرته **فلوطارخ** واستوحى منها **شيكسبير** إحدى مسرحياته.

(3) **الڤولسك** في هذه الحال.

لكن الشيوخ أدركوا أنه لا يليق بهم في تلك الظروف المؤلمة التشفي منه ومن أنصاره، بل إن الفرصة مواتية للتقرب من الشعب والتودد إليه. تقدموا نحو فارون وشكروه على أنه لم ييأس قط من الجمهورية.

عندما تنكسر أمة لا تضرها الخسارة المادية، أي ضياع بعض المئات من القتلى، بقدر ما يضرها أثر الهزيمة المعنوي، أي اليأس الذي يمنعها من أن تستغل استغلالاً حكيماً ما توفره لها الأقدار من إمكانيات.

هناك أحكام تردد لأنها سبق وقيلت مرة، منها أن هنيبعل ارتكب خطأً قاتلاً عندما تهاون ولم يحاصر روما غداة فوزه في قانه. صحيح أن الرعب عمَّ سكان المدينة، لكن شتان ما بين الذهول الذي يلحق شعباً اعتاد تقلبات الحرب فلا يلبث أن يتحول إلى حمية وتصميم على الثأر، والرعب الذي يجمد أوصال دهماء ألفت العجز والذل. والدليل على أن هنيبعل كان يفشل لا محالة لو خاطر بالحصار، هو أن الرومان المنهزمين استطاعوا إرسال المدد إلى سائر الجهات[1].

كما يؤاخذ القائد القرطاجي لأنه ذهب بجنوده إلى مدينة كابو، فحصل لهم بها ضعف واسترخاء. إلا أن هذا التعليل ناقص، يقف دون السبب الأبعد. هؤلاء المقاتلون المثقلون بالغنائم، الذين أصبحوا أثرياء بعد سلسلة هائلة من الانتصارات، أما كانوا يجدون كابو في أية مدينة حلّوا بها؟ في وضع مماثل، أقدم اسكندر، لأنه كان يقود جيشاً من مواطنيه، على شيء لم يكن البتة في مقدور هنيبعل، الذي كان على رأس جيش من المرتزقة، ذلك أنه أمر بإحراق كل متاع الجيش، أكان له أو للجنود. يروى

(1) انتقد الكثيرون الزعيم محمد بن عبدالكريم الخطابي لأنه رفض اجتياح مدينة مليلة بعد فوزه الساحق على الاسبان في معركة انوال (1921). فبرر موقفه بالعلل المذكورة هنا.

عن أمير الفرس كُلِ خان[1] عند اجتياحه بلاد الهند، أنه لم يترك بيد كل واحد من محاربيه سوى مائة روبية ذهبية[2].

ما غير مجرى الحرب بين قرطاج وروما هو بالضبط توالي انتصارات هنيبعل. جاء إلى إيطاليا بدون تكليف صريح من ولاة بلده. فلم يتلقَ دعماً يذكر من أي أحد، البعض غيرةً من سمعته والبعض الآخر ثقةً مفرطة بكفاءته. طالما حافظ على وحدة جيشه قهر الرومان، لكن لما بدأ يوزع الحاميات على المدن التي فتحها، ويدعم الحلفاء، يحاصر القلاع أو يحميها، عندئذ تفرقت قواه وعادت غير كافية للقيام بكل هذه المهمات. ضعف جيشه بهذا الانتقاص المتكرر. الفتح سهل لأنه يتم بجيش كامل، الاحتفاظ بما فتح عسير، إذ يكون بجزء فقط من ذلك الجيش.

---

(1) نادر شاه حكم فارس من 1688 إلى 1747.

(2) تاريخ حياته، باريس، 1742، ص 402. م م

الفصل الخامس

بعد هزيمة قرطاج

حالة اليونان ومقدونيا وسوريا ومصر

أشك كثيراً أن يكون **هنيبعل** قد نثر كل النكت التي ينسبها إليه **تيت ليف**، لا سيما وهي تحط من قدره وتعلي من شأن خصميه، **فابيوس** ومارسلّوس. يؤسفني أن أرى المؤرخ الروماني يكدس هذه الأكوام من الزهور على عمالقة الماضي حتى لم نعد نميزهم. وددت لو فعل مثل هومروس، أهمل الزينة ونفخ في أبطاله الحياة والحركة.

يهون الأمر لو كانت الخطب المعزوة للقائد القرطاجي معقولة. يقال لنا إنه لما علم بهزيمة أخيه تنبأ بقرب خراب وطنه. لا أعلم كلمة أجدر من هذه ببث اليأس بين الشعوب الموالية له، وتحطيم معنوية الجنود الذين كانوا ينتظرون منه مكافاءات عالية بمجرد أن تنتهي الحرب.

بعد أن حاولت قرطاج كل شيء في إسبانيا وصقليا وسردينيا وباءت كل محاولاتها بالفشل، أدرك هنيبعل أن الأعداء يتقوون باستمرار، فلجأ إلى حرب دفاعية. عندها تشجع الرومان ونقلوا الحرب إلى أرض أفريقيا. حل بها شيپيون فحالفه النصر. اضطرت قرطاج إلى استدعاء هنيبعل. بكى وهو يجلو للرومان عن أرض ألحق بهم فيها الهزيمة تلو الأخرى.

فعل هنيبعل، لإنقاذ قرطاج، كل ما يستطيع فعله سياسي ماهر وعسكري موهوب. لما رأى أنه لا يستطيع إجبار شيپيون على الجنوح إلى السلم قرر أن يواجهه في معركة حاسمة. فحلا للأقدار، في كل مناسبة، أن تبطل مفعول دهائه وحنكته وحصافة رأيه.

تلقت قرطاج السلم من سيد يأمر لا من عدو يفاوض. فرض عليها غرامة قدرها عشرة آلاف حمل من الذهب(1)، مقسطة على خمسين سنة، كما أجبرها على إعطاء رهائن وتسليم مراكبها وفيلتها. حرم عليها أن تحارب أياً كان دون موافقة من الشعب الروماني. ولكي تظل ذليلة إلى الأبد عززت روما قوى عدوها اللدود مسينيسا، ملك نوميديا.

بعد إخضاع قرطاج أصبحت حروب روما هينة وانتصاراتها ساحقة، فيما كانت من قبل حروبها طويلة شاقة وانتصاراتها هزيلة متواضعة.

في ذلك التاريخ كانت الدنيا وكأنها موزعة إلى عالمين منفصلين: الأول تتنافس على سيادته روما وقرطاج، والثاني تمزقه خصومات لا نهاية لها منذ وفاة اسكندر(2) وكان لا يأبه بما يجري في الجزء الآخر(3). صحيح أن فيليپ، ملك مقدونيا(4)، تحالف مع هنيبعل، لكن لم يكن لهذا الحلف أي أثر على سير الأحداث. لا مساعدته الشحيحة نفعت قرطاج ولا ضغينته الدفينة أضرّت روما.

عندما تقوم حرب ضروس بين شعبين عظيمين يخطئ من يظن أن

---

(1) طالنت ذهب يساوي 25.80 ك. م.

(2) توفي سنة 303 ق.م.

(3) [30ج: يلاحظ فلافيوس يوسف أن لا ذكر للرومان عند هومروس ولا عند ثوسيديد رغم ما قاموا به من أعمال جليلة]. م م

(4) فيليپ الثالث حكم من 200 إلى 178 ق.م.

السلامة في لزوم الحياد، إذ ما أن ينتصر أحدهما حتى يدخل في مواجهة جديدة. لا شيء أبداً يكبح دولة محاربة من مهاجمة أخرى يميل مواطنوها إلى السلم.

هذا ما ظهر واضحاً آنذاك. لم يكد الرومان ينتهون من قهر قرطاج حتى سارعوا إلى مهاجمة أمم أخرى، بل إلى إعلان الحرب على الدنيا بكاملها بغية استعبادها.

لم يكن في الشرق في تلك الفترة سوى دول أربع تستطيع أن تصمد لهم: الاغريق ومقدونيا من جهة، مصر وسوريا من جهة ثانية. لنتعرف على حال البلدين الأولين إذ بهما بدأ الزحف الروماني.

تقاسمت أرض اليونان ثلاثة شعوب قوية: **الأطوليون في الشمال** الشرقي، **الأخائيون في** الجنوب، **البيوطيون في** الشرق. كل واحد من هذه الشعوب الثلاثة عبارة عن اتحاد بين مدن حرة تمثلها جمعية واحدة وتدير شؤونها حكومة مشتركة. عرف الأطوليون بنزعتهم العدوانية، بالجرأة والإقدام، بالشره والطمع. لا يحترمون وعداً ولا يلتزمون بعهد. بالجملة يقاتلون على اليابسة كما يفعل القراصنة في البحر. الأخائيون كانوا دائماً ضحية، يتحرش بهم الأعداء ويتطاول عليهم الحلفاء. أما البيوطيون، وهم رمز البلادة عند سائر الإغريق، فكانوا ينأون بأنفسهم قدر الإمكان عن أي انخراط في الحياة اليونانية العامة. ينخدعون بالبادي من كل أمر، خيراً كان أو شراً، ولقلة نباهتهم يعجز أي خطيب مهما كان بليغاً أن يحرك منهم ساكنة. والعجيب من أمرهم أنهم حافظوا على دولتهم في ظل فوضى شاملة[1].

إن كانت لقدمونيا قد حافظت على سر مناعتها، تلك الذهنية القتالية

---

(1) كان القضاة يقفلون المحاكم تحت ضغط الغوغاء. وكان المرء إذا أشرف على الموت يوصي بماله لأحد أصدقائه بقصد الانفاق على ولائم. انظر [24 نقلاً عن 50كـ20].م م

التي كرستها قوانين مشرعها **لوكورغ**، فإن سكان **تساليا** أصبحوا بكيفية أو بأخرى أتباعاً لجيرانهم الأقوياء، أي المقدونين، فيما انهارت كبرياء ملوك **إيليريا** تحت توالي ضربات الرومان. كما تعود **الأكرنان والأثمان** على أن ينهبهم المقدونيون مرة والأطوليون مرة. أما أهل أثينا الذين طالما ملأوا الدنيا وشغلوا الناس، فإنهم أصبحوا بلا نجدة وبلا حليف[1]. لا يلتفت الناس إليهم إلا ليستنكروا تملقهم المفرط للملوك. من أعلى المنصة التي صدعت بخطب **دموستان** Démosthène[2]، لم يعد يسمع منهم سوى مقترحات في غاية الجبن والصغار.

مع هذا حافظت اليونان على مكانة لا يستهان بها نظراً لأهمية موقعها وغزارة مواردها، ولكثرة مدنها وعدد جنودها، لجودة نظامها وسلامة أعرافها وقوانينها. كان سكانها لا يزالون مولعين بالحرب، ملمين بقواعدها. فلو اتحدوا لما قوي عليهم أحد.

باغتها ملوك مقدونيا، **فيليپ** الأول ثم **الاسكندر** ثم **انتيپاطر**[3]، ولم تستسلم لهم. لم يفقدوا الأمل في تحقيق أحلامهم، فواصلوا العمل على تطويعها.

مقدونيا بلد محصن تقريباً من كل الجهات بجبال منيعة. سكانها أهل بأس وشدّة، موصوفون بالشجاعة والانضباط، بالحيوية والصبر. ولا بد أن تكون لهذه الخصال صلة بالمناخ إذ أقوى جنود العثمانيين اليوم يأتون من تلك المنطقة بالذات.

---

(1) [50 ك 8]. م م

(2) أكبر خطيب يوناني، عاش من 384 إلى 322 ق.م. حاول بدون طائل أن يشجع اليونانيين على توحيد صفوفهم وتوقيف المد المقدوني. خطبه في هذا الباب مشهورة.

(3) جنرال عين وصياً على مقدونيا من قبل الاسكندر سنة 334. توفي سنة 319ق.م.

استقر الوضع في اليونان لفترة بسبب التوازن الحاصل بين حلفين تقليديين: **لقدمونيا مع أطوليا من جهة، ومقدونيا مع أخائيا من جهة ثانية.** هذا التوازن التقليدي اختل بمجيء الرومان.

كان ملوك مقدونيا لا يستطيعون تحمل نفقات جيش كبير[1]. كل فشل، مهما هان، يؤثر عليهم تأثيراً سلبياً. صعب عليهم أن يتوسعوا ولو قليلاً إذ كانت مطامعهم معروفة لدى الجميع. لا يخفى على أحد أي من مساعيهم. إذا انتصروا لحليف ثم فاز، يستاء ذلك الحليف في الحين من النتيجة ويعمل لتغييرها.

إلا أن ملوك مقدونيا اتسموا دائماً بالحذق والدهاء. ولم تكن سياستهم العامة من النوع الذي يسير على وتيرة واحدة منذ البدء. كانوا يتكيفون باستمرار مع الظروف. يستخلصون العبرة من كل خطر أحدق بهم ومن كل عثرة اعترضتهم. يقحمون أنفسهم في كل نزاع ينشب بين اليونانيين. كان عليهم أن يستميلوا الخاصة في المدن ويبهروا عيون العامة، يوفقون بين المصالح أو يفرقون بين أصحابها. بالجملة فرض عليهم أن يغامروا بأنفسهم في كل نازلة.

أظهر الملك فيليپ[2] في بادئ أمره من الحلم والعدل ما أكسبه حب وإعجاب جميع اليونانيين. ثم بغتة استحال إلى طاغية فظ في وقت كانت السياسة والمصلحة تفرضان عليه أن يتحلى بالصفح والعدل[3]. تابع، ولو من بعيد، أعمال الرومان والقرطاجيين، مدركاً ما لكلا الفريقين من قوى هائلة. ساعد حلفاءه الأخائيين على الانتصار ثم تصالح مع الأطوليين. كانت

---

(1) [49]. م م

(2) فيليپ الخامس. حكم مقدونيا من 220 إلى 178 ق.م.

(3) أمثلة كثيرة عن سلوكه الأخرق الذي أفقده سمعته في [50]. م م

الحكمة تملي عليه أن يلم شمل سائر اليونان حتى يمنع تدخل الأجانب. عوض هذا أغضب الكثيرين بتطاوله على أشياء زهيدة والتمادي في اللجج حول النزاعات الناجمة عن ذلك. هذا في وقت كان وجود اليونان ذاته في الميزان. قام بثلاثة أو أربعة أفعال ذميمة فمقته وعاداه كل اليونانيين.

والأكثر نقمة عليه هم **الأطوليون**. استغل الرومان استياءهم، بل ورعونتهم، فتحالفوا معهم. اقتحموا أرض اليونان وجيشوا سكانها ضد **فيليپ**.

انهزم هزيمة نكراء في وقعة **قونوقفالس**[1]، لعب أعداؤه الأطوليون دوراً حاسماً بما أظهروا من بطولة خارقة. في الحين انهارت معنويته واستسلم كلياً للرومان. قبل شروطهم بلا استثناء، منها الجلاء عن اليونان جلاءً تاماً، تسليم كل سفنه، أداء ألف طالنت مقسطة على عشر سنين.

بهذه المناسبة يقارن **پوليب**، بحصافته المعهودة، بين تعبئة الجيش الروماني وتلك التي ورثها ملوك مقدونيا عن اسكندر. يعدد محاسن ومساوئ **الفالنجة** اليونانية و**اللجيونة** الرومانية، وفي الأخير يقضي بتفوق هذه على تلك وهذا الحكم تؤيده فيما يبدو الحوادث اللاحقة.

ما جعل الرومانيين يشرفون على الهلاك أثناء الحرب البونيقية الثانية هو أن هنيبعل عبأ جنوده على طريقة أعدائه. أما اليونانيون فلم يفكروا دقيقة واحدة في أن يغيروا ما اعتادوا عليه، من سلاح وتنظيم قتالي ضمن لهم التفوق طيلة أحقاب عديدة.

بفوزهم على فيليپ خطى الرومان خطوة عملاقة للاستيلاء على

(1) تعني الكلمة رؤوس الكلاب وهو موقع في تساليا العليا. جرت الواقعة سنة 197ق.م.

سائر البلاد. لتطويع السكان تفننوا في إهانة **الأطوليين** الذين استقدموهم وناصروهم. ثم أوعزوا لكل مدينة حكمها فيليپ أو أمير آخر أن تحكم نفسها بنفسها.

كان واضحاً أن هذه الجمهوريات الصغيرة لا يمكن أن تكون إلا تابعة، ولروما بالذات. رغم هذا فرح سفهاء اليونانيين ظناً منهم أنهم أحرار بمجرد أن الرومان أعلنوا ذلك.

لما أدرك الأطوليون أن حلمهم بالسيادة تبدد نهائياً عمهم اليأس. وبما عهد فيهم من خفة عقل شفعوا حماقة بأخرى. كما استنجدوا بالرومان سابقاً، استغاثوا لاحقاً **بانطيوخوس** ملك سوريا[1].

ورث ملوك سوريا النصيب الأوفر مما ترك **اسكندر**، إذ حازوا جل ما كان بيد **داريوس** باستثناء مصر. لكن توالت عليهم قواصم نالت من قواهم.

تمكن **سلوقوس** الأول[2]، مؤسس الدولة، من تقويض أركان مملكة **لوزيماخ**(وس)[3]، الأمر الذي تسبب في فوضى عارمة وخروج عدة أقاليم عن الطاعة. إثر ذلك تكونت في **پرغام** و**قپادوقيا** و**بيثينيا** ممالك هزيلة غير آمنة لا يحميها من ثأر سيدها السابق إلا توالي المصائب عليه.

ثم إن ملوك سوريا كانوا كثيري الغيرة من الرخاء الذي نعمت به مصر في كل عهد. هاجسهم على الدوام غزو ذلك الإقليم. لهذا الغرض أهملوا شرق المملكة فضاع منهم قسم وتهلهلت طاعة الباقي.

---

(1) انطيوخوس الثالث الملقب بالكبير حكم سوريا من 223 إلى 187 ق.م.

(2) لقبه نيكاتور حكم سوريا من 312 إلى 280 ق.م.

(3) أمير تراقيا، أحد مساعدي اسكندر المقربين. توفي سنة 281 ق.م. بعد حياة مليئة بالفواجع.

ملاحظة أخيرة هي أنهم كانوا يحكمون معاً **آسيا**[1] العليا وآسيا السفلى. والتجربة أثبتت بكيفية متواترة أنه إذا استقرت قاعدة الملك وغالبية الجيش في الثانية انفصلت الأولى وإن كان العكس أدت تكاليف حماية الثانية إلى الإنهاك والتفسخ. لم توجد قط في فارس وسوريا دولة أقوى من **الفارطية**[2]، ورغم هذا لم تسيطر هذه إلا على جزء فقط من القطرين. لو لم يغز قوروس[3] مملكة **ليديا**[4]، لاستحال على اليونان اجتياح بلاد فارس، لو قنع **سلوقوس** بحكم بابل تاركاً ساحل الشام لورثه الجنرال **أنطيغون**[5] لما تمكن الرومان من غزو سوريا. خطت الطبيعة لكل دولة حدوداً قارة، كبحاً لأطماع البشر. عندما تجاوز الرومان حدودهم عاقبهم الفارطيون[6]، وعندما حاول هؤلاء تخطي نفس الحدود أرغموا على التراجع، تماماً كما يحصل اليوم للأتراك العثمانيين.

ثم إن أمراء سوريا ومصر كانوا في الحقيقة على رأس رعيتين متميزتين: من جهة أبناء الفاتحين ومن جهة ثانية بقايا الشعوب المغلوبة. لا يزال أولئك يذكرون مفاخر أسلافهم فلا ينقادون للحكم بسهولة، لا يميزون بين أصالة الرأي التي تشجع المرء على رفض التبعية، وبين التبرم الدائم الذي يؤدي إلى استبدال سيد بآخر.

---

(1) آسيا اسم منطقة وسط تركيا الحالية.

(2) يطلق المؤرخون المسلمون على هذه الأسرة الحاكمة أسماء مختلفة: أشكانيون، خراسانيون، ملوك الطوائف، بين ملوك الطبقة الأولى والثانية، إلخ. المقصود هنا هم الملوك الذين حكموا العراق وشمال وغرب إيران من سنة 247ق.م إلى سنة 224م.

(3) سنة 546 ق.م.

(4) قلب آسيا الوسطى. كان السبب البعيد لغزو اسكندر مملكة فارس.

(5) قتل سنة 301 ق.م.

(6) الأسباب مفصلة في الفصل الخامس عشر، تعود كلها إلى موقع المملكتين. م م

بيد أن الخلل الأكبر في مملكة سوريا كان ممثلاً في البطانة التي غلبت عليها تقاليد **داريوس** لا قوانين **اسكندر**. كل ما اتسم به عبر القرون البلاط الملوكي في آسيا من بذخ وتبرج وميوعة، وصل ذروتيه هنا. انتقل الداء من القصر إلى الشعب ومنه إلى الجيش، بل مس الرومان أنفسهم حين وطأوا تلك الأرض. لم يدبّ الانحلال إلى صفوفهم إلا إثر مصارعتهم **لانطيوخوس**.

هذه كانت حالة سوريا عندما قرر ملكها، الذي كان إلى ذلك الحين قد أنجز أعمالاً جليلة، مواجهة الرومان. لكن بعد أن اتخذ القرار لم يتصرف بما تفرضه الحكمة حتى في تدبير الحياة اليومية. نصحه **هنيبعل** بمهاجمة الرومان في عقر دارهم، باستمالة **فيليپ** أو على الأقل إغرائه بلزوم الحياد. لم يفعل شيئاً من هذا، بل اقتحم اليونان بجزء فقط من جيشه كما لو جاء يتفرج على المعركة، لا أن يدير رحاها، وانشغل كلياً بملذاته. انهزم في الميدان فقفل تواً إلى آسيا، مرعوباً أكثر منه مغلوباً.

أما فيليپ فقد وجد نفسه وسط سيل جارف جره إلى الحرب رغماً عنه. خدم الرومان بكل الوسائل، بل شكل أداة انتصاراتهم، فعل ذلك لدوافع دنيئة: منها الانتقام من **الأطوليين** وتدمير وطنهم، تخفيف الغرامة المفروضة عليه وتسليمه بعض المدن، كما لوح له بذلك الرومان، وأخيراً غيرته المتأصلة من **انطيوخوس**. استبعد أن يتحرر من قبضة الرومان فقنع بأن يتركوا له متنفساً.

من جانبه أخطأ **انطيوخوس** خطأً فادحاً إذ ظن أن الرومان يتركونه وشأنه في آسيا. تعقبوه إلى هناك وهزموه مرة أخرى. فاستولى عليه الفزع ورضي في الحين بصلح مشين لم يسبق لأمير أن رضي بمثله.

لا أعرف موقفاً أنبل من الذي وقفه أحد ملوك الأمس[1] حيث فضل أن يهلك هو وعرشه عوض أن يصادق على عرض، لا يليق بأمير حتى أن يستمع إليه. كان أشرف من أن يهين نفسه أكثر مما أهانه القدر. كان يعلم أن الشهامة قد تنقذ الملك، أما الخسة فتضيعه لا محالة.

عادة ما يصمد ملك في معركة، لكن نادراً ما يجيد تدبير حرب طويلة، فيعرف كيف يستغل الفرصة السانحة، بعد أن يتربّصها طيلة سنين، أن يقدم بحذر ويباشر بحزم.

بعد اندحار **انطيوخوس** لم تبق في الساحة سوى دول هزيلة، باستثناء مصر التي كانت تملك كل المؤهلات لتكون دولة عظمى: الموقع، الثروة، التجارة، عدد السكان، الأسطول البحري، الجيش، لولا ما اتصف به دائماً حكامها من قسوة وجبن وبلادة، مع الجري وراء أخس الشهوات. لذلك مقتتهم الرعية واحتقرتهم إلى حد أن سلطانهم أشرف على الانهيار في مناسبات عديدة لولا حماية الرومان لهم.

كانت لديهم شبه قاعدة دستورية أن البنت ترث الملك صحبة أخيها وتتزوجه لضمان وحدة السلطة. واضح أنه لا يمكن تخيل قاعدة أفسد للملك من هذه، إذ بموجبها تتحول أدنى مشادة زوجية إلى أزمة تعصف باستقرار الدولة. كلما استاء أحد الزوجين من الآخر عمد إلى تهييج شعب الاسكندرية، غوغاء لا عد لها، متأهبة باستمرار لمساندة أي من الملكين الذي يحثها على الشغب. علاوة على هذا، كان يحكم ناحية **قورينة**[2]

(1) **لويس الرابع عشر**. ينتقده مونتسكيو كثيراً ويمدحه قليلاً من دون أن يذكره أبداً بالاسم. يشير المؤلف هنا إلى العرض الذي تقدمت به أوروبا لملك فرنسا لإنهاء حرب الوراثة الاسبانية سنة 1710.

(2) منطقة في ليبيا الحالية.

وجزيرة **قبرص** أمراء من نفس الأسرة[1]، يتطلعون إلى اعتلاء عرش مصر. فتتشابك بذلك على الدوام مطالب ومطامع الجميع. تجاه الجالس على العرش يوجد دائماً طامع يطالب بحقه فيه. فكانت السلطة في مصر مهددة باستمرار، لا أمان لأمرائها في الداخل ولا نفوذ لهم في الخارج.

كوّن دائماً المرتزقة المستقدمون من اليونان عماد الجيش في مصر وفي غيرها من بلاد الشرق. وهؤلاء المرتزقة، علاوة على ما اتصفوا به من استقلال فكري وتطلع إلى العزة والمجد، كانوا يعتنون عناية خاصة بالرياضة البدنية. ينظمون في كل مدينة يقيمون فيها ألعاباً ومباريات يتوج الفائز فيها ويكسب هكذا سمعة في سائر أنحاء اليونان. بهذه الوسيلة شاعت روح المنافسة بينهم. في وقت كان نفع أي سلاح في ساحة القتال بمقدار شدة المقاتل ولياقته البدنية، لا شك أن هؤلاء اليونانيين، وهم على هذا المستوى من التدريب، كانوا يضمنون لأنفسهم تفوقاً واضحاً على جموع البرابرة المجندين رغماً عنهم وبدون أدنى انتقاء، كما بدا الأمر جلياً في جيوش **داريوس**.

ولإضعاف ملوك الشرق أكثر فأكثر رأى الرومان منعهم من التزود بالمرتزقة، أساس قوتهم. وصلوا إلى هذه النتيجة من دون إغاظة أحد. ذلك أنهم، من جهة رسخوا بالتدريج كقاعدة عامة متواترة أن المدن اليونانية لا تحالف، لا تساند، لا تحارب أياً كان من دون موافقتهم، ومن جهة ثانية، أقحموا في اتفاقاتهم مع الملوك بنداً يقضي بأن هؤلاء لا يجندون أحداً من حلفاء روما. وهكذا اقتصر الملوك على الجنود المحليين الذين كانوا، كما قلنا، قليلي النجدة[2].

---

(1) البطالسة.

(2) نفس البند موجود في اتفاقية الصلح المبرمة مع قرطاج. انظر [18] (م م.)

الفصل السادس

السياسة التي انتهجها الرومان لاستعباد سائر الشعوب

عندما تساعد الأقدار بمثل ما ساعدت به الرومان في كل مخططاتهم، عادة ما يتراخى المرء. لكن شيوخها ظلوا في جميع الأحوال يتصرفون بنفس الحكمة ونفس التروي. فيما كانت الجيوش تصرع الأعداء، كان الشيوخ يضيِّقون الخناق على من وجدوه جاثماً على الأرض.

انتصبوا قضاة لمحاكمة الشعوب. في نهاية كل حرب يقررون من يكافأ ومن يعاقب. يقتطعون جزءاً من أرض المغلوب ويسلمونه للحليف. وهكذا يبلغون هدفين: ضمان وفاء من يخشونه قليلاً ويأملون منه الكثير، وإضعاف من يخشونه كثيراً ويأملون منه القليل.

يستخدمون الحليف لقتال العدو ثم دون تهاون ينقلبون عليه ويدمرونه. استعانوا بالأطوليين لقهر فيليپ ثم سحقوهم بدعوى أنهم انحازوا إلى جانب انطيوخوس. وهذا هزموه بمساعدة أهل جزيرة رودس. فأغدقوا عليهم المكافآت ثم أذلوهم إلى الأبد عقاباً لهم على تجروئهم واقتراحهم مهادنة پرسيوس[1].

كلما واجهوا عدة أعداء صالحوا الأضعف الذي يسعد بإمهاله وإرجاء ساعة هلاكه.

---

(1) آخر ملوك مقدونيا حكم من 171 إلى 168 ق.م.

إن أهانهم أحد وهم منشغلون بحرب كبيرة صبروا وانتظروا في صمت أن يحين وقت الجزاء. وحتى إذا سُلِّم لهم المسؤول عن الإهانة أعرضوا عن معاقبته مفضلين جعل المسؤولية جماعية لينتزعوا من الشعب المتهم فائدة سياسية[1].

وبما أنهم كانوا يلحقون بأعدائهم أضراراً تفوق كل تصور، لم تتحالف ضدهم الشعوب الأخرى، إذ البعيد لا يود أن يقترب منهم فيكوى بنارهم[2].

من هنا قلما أجبروا على حرب، بل كانوا يختارون هم دائماً متى وكيف ومن يحاربون. كم من شعب هاجموه كان يرضى أن يتحمل منهم كل أنواع المهانة لو تركوه وشأنه.

كانت عادتهم أن يخاطبوا الآخر بلهجة الآمر. يصل سفيرهم إلى أمة يجهل أعضاؤها عنهم كل شيء، ويخاطبهم على سجيته، فإذا غضبوا وأساؤوا معاملته، اتخذت روما ذلك ذريعة لشن الحرب عليهم[3].

لم يبرموا أبداً صلحاً ليدوم. بما أن هدفهم البعيد هو الاستيلاء على كل شيء، لم يروا في أي صلح سوى هدنة. لذلك كانوا يفرضون شروطاً تؤدي لا محالة إلى دمار الدولة التي تقبلها، كإخلاء المواقع الحصينة، حصر الجنود في مستوى معين، تسليم الخيل والفيلة، إحراق السفن والابتعاد عن الشواطئ بالنسبة للشعوب البحارة.

---

(1) اتبعت الدول الأوروبية، فرنسا وإسبانيا بخاصة، نفس السياسة مع الدولة المغربية طوال القرن التاسع عشر.

(2) هذا جواب عن السؤال الوارد سابقاً: لماذا لم تتحد الشعوب المهددة بالتوسع الروماني قبل أن تهاجم. فاستفردت روما بكل شعب على التوالي.

(3) انظر [50] في شأن حرب دلماطيا. م م

بعد تجريد الأمير المغلوب من جنوده، كانوا يدمرون ماليته بعبء الغرامات والإتاوات العالية بدعوى التعويض عن تكاليف الحرب، مما يضطره إلى مضاعفة الضرائب وبالتالي إثارة حفيظة الرعية.

إذا ما هادنوا أميراً أخذوا أحد أبنائه أو إخوته رهينة عندهم. فيسهل عليهم التدخل في شؤون البلد متى شاؤوا. إن كان الرهينة ولي العهد ابتزوا به الجالس على العرش، وإن كان أميراً من سلالة بعيدة أثاروا باسمه الشعب.

إن ثار أمير أو شعب على سلطانه الشرعي منحوا الثائر في الحين لقب حليف الشعب الروماني وأضفوا عليه حصانة تامة. فأصبح كل أمير، مهما علا شأنه، يخشى باستمرار أن يخرج عليه بعض شعبه وربما بعض أسرته[1].

ومع أن لقب حليف يعني في الحقيقة الخضوع والانقياد لروما، لم يتردد أحد في بذل أقصى جهده للحصول عليه[2]. ذلك أن حليف الرومان لا يلحقه ضيم إلا منهم، والظن أن ذلك أخف من إهانة غيرهم. للحصول على ذلك اللقب كان كل شعب وكل ملك مستعداً للقيام بأية خدمة يطلبها الرومان مهما كانت مشينة.

كان حلفاؤهم على مراتب: منهم من قاسمهم مجدهم وخيراتهم وامتيازاتهم، **كاللاتين والهرنك**، ومنهم، كأهل المستوطنات، من كان روماني الأصل والتنظيم، ومنهم، مثل **مسينيسا ويومنس وأطال**(وس)[3]،

---

(1) هذا ما تفعله اليوم الدول الغربية مع المعارضين لحكام دول العالم الثالث.

(2) يروي **بوليب** أن **أرياراط**، ملك **قبادوقيا** تقرب للآلهة شكراً لهم على فوزه باللقب. م م

(3) ملك برغام، يومنس الثاني حكم من 197 إلى 159 ق.م. وحكم أطال الثالث الملقب فيلوقطور من 138 إلى 133 ق.م.

من كان يدين لهم بالجلوس على عرشه أو بتوسيع مملكته، ومنهم، مثل ملوك مصر، و**بثينيا** و**قبادوقيا** ومعظم دول اليونان، من اختاروا عن طيب خاطر أن يتحالفوا معهم بعد أن تعودوا على الطاعة حتى أصبحوا بالتدريج ذيولاً لهم وأتباعاً. أما غير هؤلاء وهم الجم الأعظم، فقد أرغموا إرغاماً على التحالف معهم بعد أن هزموا، إثباتاً لخضوعهم وتبعيتهم. كما حصل **لفيليب** و**أنطيوخوس**. لم يبرم الرومان أبداً صلحاً إلا وكان في صورة تحالف، بمعنى أنهم لم يخضعوا شعباً إلا ليجعلوا منه أداة لاستعباد شعوب أخرى.

إذا وافقوا على أن تظل مدينة ما حرة، عملوا على أن ينقسم أهلها إلى حزبين[1]، أحدهما متشبث بحريات البلد وتقاليده العريقة، والآخر مقتنع أن لا قانون يعلو على ما تقرره روما. وبما أن هذا الأخير هو الأوفر حظاً في كل حال، فواضح أن المدينة حرة بالاسم فقط.

أحياناً كانوا يتقلدون السلطة نتيجة إرث. وهكذا احتلوا آسيا بوصية من **أطال**، بيثينيا بوصية من **نيكوماد**[2]، ليبيا بوصية من ملكها **أبيون**[3]، كما استولوا على مصر بوصية من أمير قورينه.

وحتى يظل كبار الأمراء في حالة وهن وافتقار حرّموا عليهم التحالف مع من حالف روما[4]. وبما أنهم كانوا يحالفون كل من جاور أميراً قوياً، فهذا الشرط وحده، المثبت في عقد الصلح، يترك الأمير يتيماً بلا سند.

علاوة على هذا، كلما انتصروا على عدو له شأن، اشترطوا عليه في

---

(1) [50] عن مدن اليونان. م م

(2) حكم بيثينيا من 91 إلى 74 ق.م.

(3) بطليموس أبيون حكم قورينه من 116 إلى 96 ق.م.

(4) حال انطيوخوس. م م

حالة نشوب أي نزاع مع حليف لروما أن يحتكم إليها لا إلى السلاح، فيصبح كما لو كان أعزل.

ولكي يستأثروا هم بالقوة حظروا اللجوء إليها حتى على حلفائهم. بمجرد أن ينشب نزاع في أي مكان، تسارع روما وترسل مبعوثاً عنها يرغم الخصمين على المصالحة. ويكفي أن نذكر كيف انتهت حروب **أطال وبروسياس**[1].

كذلك إذا فتح أمير بلداً بعد جهد مرهق، طلع عليه في الحين سفير من روما ينزع منه ثمرة جهده. الأمثلة في هذا الشأن تكاد لا تحصى. نذكر من بينها طردهم **انطيوخوس** من مصر.

وعلماً منهم أن أقوام أوروبا أصلح للحرب من غيرهم، وضعوا كقاعدة ثابتة إنه لا يحق لأي ملك من آسيا أن يجوز إلى أوروبا ويتحكم في رقاب أي من شعوبها[2]. ومن أقوى أسباب صراعهم مع **ميثريدات** أنه لم يلتزم بالعرف المذكور حيث بسط سلطانه على بعض سكان البر الأوروبي[3].

يتحارب شعبان، لا حلف لروما ولا مشكل لها مع أي منهما، ورغم هذا تظهر على الساحة. وكما كان يفعل الفرسان المتجولون أثناء القرون الوسطى، تساند الضعيف على القوي. يقول **دوني هاليكارناس**: إن من سنن الرومان العتيقة إغاثة كل من احتمى بهم[4].

وهذه الأعراف التي كيفت سلوك الرومان لم تنشأ صدفة عن حوادث

---

(1) ملك بيثينيا توفي سنة 154 ق.م.

(2) منعوا انطيوخوس من العبور إلى بر أوروبا قبل أن يشهروا الحرب عليه. ثم عمموا المنع على غيره من الملوك. م م

(3) [2هـ]. م م

(4) [14 نقلاً عن 15]. م م

عابرة، بل هي ثوابت في تصرفاتهم. لا شك في هذا الأمر، إذ المبادئ والقواعد التي استندوا إليها عند مواجهة أكبر الممالك هي ذاتها التي استظهروا بها في بداية أمرهم، لما كانوا ينافسون المدن الصغيرة المحيطة بهم.

سخّروا **يومنس** و**مسينسا** لقهر **فيليب** و**انطيوخوس** تماماً كما استخدموا **اللاتين** و**الهرتك** لقمع **الفولسك** و**الطوسكان**. تسلموا سفن قرطاج وملوك آسيا تماماً كما أخذوا أجفان **انتيوم**[1]. فسخوا الروابط المدنية والسياسية التي كانت تجمع بين أجزاء **مقدونيا** الأربعة، تماماً كما حطموا من قبل اتحاد المدن الإيطالية الصغيرة[2].

بيد أن المبدأ الذي طبقوه بانتظام في سياستهم هو فرق تسد. كانت جمهورية **أخائيا** عبارة عن اتحاد مبرم بين مدن حرة، فقرر شيوخ روما أن كل مدينة تستقل مستقبلاً بشؤونها من دون اعتبار لأية سلطة جماعية.

كانت جمهورية **بيوطيا** أيضاً عبارة عن جامعة بين مدن عدة. لكن أثناء الحرب ضد **پرسيوس** انحازت بعضها إلى جانبه فيما ساندت الأخرى الرومان. بعد انتهاء الحرب صفحت روما عن المذنبين شريطة أن يفسخ الاتحاد.

لو سلك أحد ملوك زماننا[3] هذا المسلك في سياسته عندما خلع أحد جيرانه[4] لكان ساعده بكل وسيلة، لكن في حدود الجزيرة التي ظلت وفية له[5]. وهكذا كانت تتجزأ الدولة الوحيدة القادرة على معاكسة أغراضه وكان هو يستفيد كثيراً من مأساة حليفه.

---

(1) مدينة شاطئية جنوب روما تسمى اليوم انزيو.

(2) [67 ك 7]. م م

(3) لويس الرابع عشر.

(4) ملك انكلترا جيمس الثاني.

(5) جزيرة ايرلندا.

كلما طرأ نزاع في دولة ما سارع الرومان وأعلنوا موقفهم على الفور، وهكذا يغضب عليهم أحد الفريقين فقط، من قضوا ضده. إذا تنافس على العرش أميران من نفس البيت الحاكم اعترفوا بحق الاثنين[1]. إن كان أحدهما دون البلوغ انتصروا له وانتصبوا أوصياء عليه بصفتهم حماة الأرض كلها[2]. ترسَّخ هذا الادعاء في عقول الناس إلى حد أن سائر الشعوب والملوك أصبحوا رعايا لروما من دون أن يعرفوا بأي موجب، كما لو كان يكفي المرء أن يسمع بها ليدين لها بالولاء[3].

لم يشهروا أبداً الحرب على عدو بعيد من دون أن يكون لهم بجواره حليف يضم جنوده لجنودهم. يحرصون على أن يكون عدد هؤلاء قليلاً محتفظين بجيش ثان جاهز على التخوم وبثالث في روما على أهبة الانطلاق[4]. وبهذه الطريقة لا يغامرون إلا بجزء صغير مما لديهم من عدة في حين يخاطر العدو بكل قواه[5].

كانوا أحياناً يستغلون التباس بعض الألفاظ في لغتهم لخداع الخصوم. تصالحوا مع قرطاج على أن تظل قائمة، ثم خربوها بالكامل متذرعين أنهم تعهدوا بالحفاظ عليها كهيئة ونظام لا كمجمع سكني[6]. ومعلوم ما جرى للأطوليين في هذا الباب إذ استسلموا للرومان عن أمان، فغدر بهم هؤلاء

(1) كما وقع في حال قبادوقيا بين أرياراط وهولوفارن. انظر [2د]. م م

(2) لكي يخربوا سوريا أثناء وصايتهم على العرش وقفوا إلى جانب ابن انطيوخوس الطفل ضد دمتريوس الذي كان رهينة عندهم وظل يطالبهم بإنصافه صارخاً أن روما أمه والشيوخ أباؤه. م م

(3) هذا ادعاء كل الامبراطوريات بشتى أشكالها.

(4) قاعدة لم يحيدوا عنها أبداً كما تبرز ذلك أخبارهم. م م

(5) انظر تصرفهم أثناء حرب مقدونيا. م م

(6) الفرق بين كلمتي (Urbs) مِصر و (Cita) مدينة.

بدعوى أن العبارة (عن أمان) تعني في اللاتينية التنازل عن كل شيء، عن الأرواح والأرض والمدن والمعابد وحتى المقابر.

بل ذهبوا إلى تأويل العهود بحسب هواهم. عندما أرداوا إذلال سكان جزيرة **رودس**، قالوا إنهم وهبوهم منطقة **ليقيا** لا كهدية بل كإمارة صديقة وحليفة.

وإذا صالح أحد قوادهم العدو إنقاذاً لجيشه من هلاك محقق، كان مجلس الشيوخ يرفض المصادقة على ما أبرم ويستفيد من فترة السلم لاستئناف الحرب. عندما حاصر **يوغورتا** جيشاً رومانياً ثم خلّى سبيله على شروط مثبتة في وثيقة، حاربته روما بأولئك الجنود الذين، لولا عفوه، لهلكوا عن آخرهم. ولما أرغم سكان **نومانثيا** عشرين ألف مقاتل على التماس الصلح بعد أن كادوا أن يموتوا جوعاً، نقض مجلس الشيوخ الصلح الذي أنقذ هذا القدر الهائل من الرومانيين، وتستروا على خيانتهم بعزل القنصل الذي وقَّع المعاهدة[1].

في بعض الحالات كانوا يفاوضون العدو على أساس شروط معتدلة، ثم بعد استيفائها يشفعونها بشروط أخرى مجحفة تجبر ذلك العدو على استئناف القتال. فعلوا ذلك مع يوغورتا. طلبوا منه أولاً أن يسلم لهم الفيلة والخيل والخزينة، ومن لجأ إليه من رومان وحلفائهم، وبعد أن أوفى بذلك كله طلبوا منه أن يسلِّم نفسه وهو قمة العار بالنسبة لأميرٍ ، ولا يعتبر أبداً شرط مصالحة[2].

---

(1) انظر [18 ك 1]. تصرفوا بالطريقة ذاتها مع السامنين، مع سكان **لوزيطانيا** وكورسيكا. م م

(2) عاملوا **ڤيريارط** نفس المعاملة. طلبوا منه أن يسلم الرومان اللاجئين إليه وبعد ذلك التخلي عن سلاحه، ما لم يكن ليقبل به هو ولا شعبه.

وأخيراً كانوا يحاكمون الملوك على الأخطاء والجرائم التي تمس حياتهم الخاصة. استمعوا لكل من كانت لهم خصومة مع فيليپ، بل أرسلوا للمتظلمين حماة حتى لا يتعرضوا لانتقامه. كما انتصبوا لسماع التّهم المرفوعة ضد پرسيوس في شأن اعتداءات وأضرار لحقت سكان مدن حليفة لهم.

كانت شهرة كل قائد عسكري روماني تقاس بما يعرض من ذهب وفضة أثناء حفل النصر الذي يقام على شرفه بعد عودته من ساحة القتال. لذا كان يحرص على سلب عدوه الصريع من كل ما يملك. كانت ثروة روما تنمو باستمرار إذ لم تكن كل حرب تنتهي إلا وتمدها بما تجهز به حرباً جديدة.

حفاظاً على ود روما وتعزيزاً لأواصر الصداقة معها، كانت الشعوب الصديقة والحليفة دائماً على حافة الإفلاس بما تقدمه لها من هدايا فاخرة[1]. نصف الأموال المبذولة لكسب رضاها كان يكفي لكسر جبروتها.

استحوذ الرومان، بصفتهم أسياد المعمورة، على كل ذخائرها. نهبوها كحكام أكثر مما فعلوه كغزاة. علِموا أن لبطليموس أمير قبرص كنوزاً لا تحصى فصادقوا على قانون، اقترحه أحد نقباء الشعب، يتيح لهم إرث رجل لا يزال حياً ومصادرة أملاك أمير حليف[2].

وكل ما أخطأه شح الدولة أصابه جشع الخواص، لا يفتأ القضاة والعمال يبيعون للملوك أحكام الجور. ما دام أحد الخصمين قادراً على الدفع وإلّا يظل النزاع عالقاً حتى ولو أدى إلى إفلاس الجميع. هؤلاء الحكام الرومان

(1) أما هدايا مشيخة روما للملوك فكانت تافهة مثل كرسي أو عصا من عاج أو كساء رسمي. م م

(2) [25 ك 3 ف9]. م م

كانوا أقل نزاهة من كبار اللصوص، الذين يرتكبون أبشع الجرائم. وبما أن الحقوق، أكانت شرعية أو مغتصبة، لا تصان إلا بصرف الأموال، اضطر الأمراء، لضمان حقوقهم، إلى تكديس الثروة بأية وسيلة كانت، من نهب ذخائر المعابد إلى مصادرة أموال الأغنياء. يقترفون ألف جريمة ليجودوا على الرومان بكنوز الدنيا.

بيد أن ما خدم روما أكثر من أي شيء آخر هو الهيبة التي زرعوها في قلوب الناس، هيبة أفحمت الملوك وجعلت منهم أغبياء عاجزين عن التمييز. أكبر همهم لم يعد مجال سلطانهم بل مآل شخصهم. إشهار الحرب على روما مخاطرة قد تنتهي بالسجن أو الموت أو مهانة العرض مكبلاً في **حفل النصر**. الملوك المعودون على حياة نعومة وبذخ كانوا يتحاشون حتى التحديق في عيون الرومان. من هذه حاله من الضعف والانكسار، يصبر على كل مذلة ويرتكب كل دنيئة، كسباً لمهلة ولو قصيرة تؤجل الأهوال التي تتهدده[1].

والآن لنفحص حال الرومان بعد انتصارهم على **أنطيُوخوس**. بسطوا سيادتهم على أفريقيا وآسيا واليونان دون أن يكون لهم في هذه الأقطار ولا مستعمرة واحدة. كما لو لم يغزوها إلّا ليمنحوها لغيرهم. الحقيقة هي أن السلطة العليا كانت بيدهم، كلما قاتلوا أميراً مالوا عليه، إن صح التعبير، بثقل الدنيا كلها.

كان وقت الاحتلال الفعلي لم يحن بعد. لو احتفظوا بجميع المدن التي انتزعوها من قبضة **فيليب** لكشفوا للإغريق حقيقة الوضع. لو ضموا إليهم بعد الحرب البونيقية الثانية، أو بعد فوزهم على **أنطيوخوس**، أراضي

(1) انظر جهود هؤلاء الملوك لإخفاء ما لديهم من مال وعتاد في [18 جزء من ك 1]. م م

أفريقيا وآسيا لما استطاعوا أن يحافظوا عليها، إذ لم يكونوا قد أحكموا بعد سيطرتهم عليها[1].

كان لا بد من أن يمهلوا الناس حتى يتعودوا على الانقياد، بصفتهم حلفاء أحراراً، قبل أن يعاملوهم كأتباع مآلهم الإدماج التدريجي في الجمهورية.

لنراجع المعاهدة التي أبرموها مع شعب **اللاتين** بعد انتصارهم عليه في معركة **رجيل**[2]، إذ كانت إحدى دعائم سلطانهم. لا نجد فيها لفظاً واحداً يوحي بالهيمنة والتسلط.

طريقتهم نوع من الغزو التدريجي. بعد فوزهم على عدو يكتفون بإضعافه، يملون عليه شروطاً توهنه من دون أن يشعر بالأمر. إن انتعش عادوا وأهانوه إهانة أكبر حتى يصبح خانعاً خاضعاً وهو لا يعلم متى حدث ذلك بالضبط.

من هذا المنظور لم تكن أبداً روما، على وجه التدقيق، مملكة أو جمهورية، بل كانت في واقع الأمر حكومة الدنيا بأكملها.

لو سار الإسبان، بعد أن فتحوا المكسيك والبيرو، على هذا النهج لما أجبروا على تخريب ما كسبوا للمحافظة عليه.

من غباوة الفاتحين إصرارهم على أن تتبع الشعوب المقهورة أعرافهم وتعيش بحسب قوانينهم. لا مصلحة لهم البتة في ذلك. همهم الأول هو الطاعة وهذه متاحة في أي نظام.

لم يقصد أبداً الرومان فرض تنظيماتهم على كافة الشعوب التابعة لهم. القاسم المشترك الوحيد بين هذه الشعوب هو الخضوع لروما. كان السكان

(1) لم يقدموا على إقامة مستعمرات في تلك البقع المليئة بالمخاطر. فضلوا زرع عداء مستحكم بين قرطاج ومسينيسا واستنجاد الجميع لإخضاع مقدونيا واليونان. م م

(2) [15 ك 6ف 45]. م م

رومانيين من دون أن يكونوا مواطنين.

قد يعترض على هذا القول بأن الدول الفيودالية، المبنية هي الأخرى على تضارب القوانين والأعراف، كانت دائماً ضعيفة وسريعة التفكك. شتان ما بين الحالتين! لا شيء في الحقيقة يناقض خطة الرومان أكثر من سياسة الجرمان. نقول بإيجاز إن الأولى تولدت عن قوة والأخرى عن ضعف، طابع الأولى الطاعة الكاملة، سمة الأخرى الاستقلال التام. في البلاد التي استولت عليها الأمم الجرمانية كان الأمير سيداً بالاسم فقط فيما السلطة الفعلية بيد صاحب الإقطاع. في الدولة الرومانية العلاقة معكوسة تماماً[1].

(1) تطرق مونتسكيو لهذه النقطة بإسهاب في كتابه الرئيس روح القوانين. وأوضح بالتدقيق ما يميز النظام الجرماني الفيودالي عن الروماني المدني. كانت المسألة مثار جدل كبير في زمانه.

الفصل السابع

صمود ميثريدات في وجه الرومان

من بين الملوك الكثيرين الذين هاجمتهم روما **ميثريدات**[1] وحده قاومها بشجاعة بل أوصلها إلى حافة الهاوية.

كانت مملكته في أحسن موقع لخوض الحروب. تلامس جبال القوقاز المنيعة، حيث تسكن أقوام شرسة سهلة الاستنفار، وتمتد إلى **بحر البِنط**[2] الذي ملأه ميثريدات بالسفن وصار يجلب عبره متى شاء المقاتلين من قبائل **سقوطيا**[3]. ولم يكن أمامه حاجز يصده عن مواصلة الغارات على أرض آسيا. جمع ثروة هائلة من التجارة مع شعوب أقل مدنية من الحواضر الخاضعة لسلطانه.

في نفس الوقت بدأت تترسخ في روما عادة سيئة وهي إقصاء الخصوم السياسيين[4]. لهذا السبب غادر روما عدد كبير من المواطنين. رحب بهم ميثريدات وألحقهم بالكتائب التي أنشأها، فكانوا خير جنوده[5].

---

(1) طال حكمه من 115 إلى 63 ق.م.

(2) هو البحر الأسود.

(3) بلغاريا حالياً.

(4) يبعد المرء من المدينة لمدة محدودة من دون أن يجرد من حقوقه المدنية إذا ظهر للحكام أنه يمثل خطراً على حرية الأفراد واستقرار الدولة. حصل ذلك أولاً في اليونان، وكان التصويت يتم بكتابة اسم المبعد على قطعة الفخار (ostraca). من الكلمة اشتق لفظ (ostracisme).

(5) [26 ك2] يقول المؤلف أن أرخيلاوس، مساعد ميثريدات في حروبه ضد سولا، رتب

من جهة أخرى كانت روما تشكو من انقسامات داخلية، كما انشغلت بحل مشكلات أكثر إلحاحاً عليها، فأهملت شؤون آسيا وأتاحت الفرصة لميثريدات، أن يستغل الوضع إلى أقصى حد في حالة الفوز، وأن يستعيد أنفاسه في حالة الفشل .

هلك غيره من الملوك لسبب رئيسي هو أنهم جهروا برغبتهم في مهادنة روما، فأبعدوا عنهم سائر الشعوب التي لم ترد أن تشاركهم في خطر يحاولون هم أنفسهم اتقاءه. أما ميثريدات فإنه أشهد العالم كله أنه يعادي روما وأنه لن يصالحها أبداً.

أخيراً كانت مدن اليونان وآسيا قد ملّت تعسف الرومان المتزايد. فاطمأنت إلى هذا الملك الأعجمي[1] الذي يدعوها إلى التحرر.

نتج عن هذا الوضع ثلاث حروب متصلة، تمثل أخبارها أنصع صفحة في تاريخ روما، إذ لا تحدثنا عن أمير أوهنته الملذات وأعماه الغرور قبل أن تنشب الحرب **كأنطيوخوس وتيغران**[2]، أو أذهله الرعب **كفيليپ وپرسيوس ويوغورتا**، بل نشاهد فيها أعمال ملك عظيم يزداد حمية كلما نزلت به كارثة كالأسد الذي يزأر عندما يخدش.

تمتاز حروب ميثريدات بكثرة المفاجآت وتقلُّبات في الأوضاع لا يتوقعها عاقل. أسباب ذلك متنوعة. كان الرجل لا يجد أدنى صعوبة لتجديد جيوشه عند الضرورة، لكن في المقابل كلما انهزم، وكان ككل

الجيش كالآتي: وضع في المقدمة عربات مجهزة بالمناجل، تليها **الفالنجة**، وفي الصف الثالث كتيبة مسلحة على الطريقة الرومانية. تحالف ميثريدات مع **سرطوريوس**. انظر ايضاً [49: سيرة **لوكولوس**]. م م

(1) تعني الكلمة هنا غير اليوناني.

(2) ملك أرمينيا حكم من 96 إلى 56 أو 55 ق.م.

قائد جيش في مثل وضعه، في أمس الحاجة إلى طاعة جنوده وامتثالهم لأوامره، كثيراً ما كان ينبذه مقاتلوه الأعاجم. كذلك، إن كان خبيراً بطرق استمالة الشعوب واستدراج المدن إلى الخروج على حكامها، ففي المقابل كثيراً ما خانه أعوانه بل أولاده وأزواجه. وأخيراً إن حصل أن واجهه قواد رومانيون أغرار، بالمقابل تصدى له على فترات قادة مقتدرون من طبقة **سولا ولوكولوس وپومپيوس**.

بدأ ميثريدات بسحق جيش روما. فغزى آسيا ومقدونيا واليونان. ثم تراجع أمام سولا، فوقع على معاهدة أجبرته على الإقامة في حدود مملكته الأصلية. عندها تمادى الحكام الرومان في مضايقته حتى نفد صبره، فثار عليهم وعاد **لاجتياح** آسيا. طرده منها لوكولوس ثم تعقبه داخل وطنه. عندئذ لجأ إلى تيغران وأغراه بمساعدته في حملته الجديدة. انهزم الحليفان، فانهارت عزيمة **تيغران** ولم يعد لديه ما يساند به حليفه. عندئذ أدرك الملك الهمام أن لا ملاذ له سوى نفسه، فعاد إلى وطنه وتربع مجدداً على عرشه.

حينذاك أوفدت روما پومپيوس محل لوكولوس. فذاق على يده ميثريدات الهزيمة تلو الأخرى. غادر بلاده، اجتاز نهر **الآراس**، توغل في وطن **اللّازيان**، لا ينجو من خطر إلا ليعترضه ما هو أدهى، داعياً إلى القتال كل من وجد في طريقه من الأعاجم. ثم بغتة ظهر على ضفاف البوسفور ليجد أمامه ابنه **مخارس** الذي، أثناء غياب أبيه، كان قد صالح الرومان[1].

في عمق هذه الهوة السحيقة خطط ميثريدات لمشروع عملاق هو أن يجتاز إلى بر إيطاليا ويهاجم روما في عقر دارها على رأس تلك الأقوام

(1) كان أبوه قد عينه ملكاً على البوسفور. لما سمع بوصوله لم يقو على مواجهته فانتحر.م م

التي بعد قرون قليلة ستقهر روما، سالكاً نفس المسالك التي ستمر بها فعلاً[1].

لكن بعد أن خانه ولده الثاني، **فارناس**، انكشف عنه جنوده الذين فزعوا من هول مشاريعه وتعمده الأخطار، فقرر أن يموت موتة ملك[2].

بهذه الانتصارات المتصلة اكتمل صرح عظمة روما. ألحق بها پومپيوس مناطق لا تضبط مساحتها. لكن هذا الأمر زاد من زينة وبهرجة روما لا من قوتها الفعلية. رغم ما كتب على الألواح، المرفوعة أثناء حفل النصر الذي أقيم على شرف پومپيوس، أي أنه أغنى الخزينة بالثلث، الواقع أنه لم يزد من سلطة الجمهورية بقدر ما زاد من الأخطار المحدقة بحرية مواطنيها[3].

---

(1) [2 هـ] م م.

(2) [49، سيرة پومپيوس؛ 17 ك 2] م م.

(3) توطئة لما يقرره المؤلف في الفصل اللاحق.

الفصل الثامن

في الانقسامات التي مزقت دائماً روما

بينما كانت روما تستعبد سائر شعوب الأرض، كانت في الداخل تشكو من حرب خفية ، كالنار، تقبع في جوف البركان لتطفو بغتة إذا ما توافرت مادة تزيدها تأججاً.

بعد سقوط النظام الملكي أصبح حكم المدينة بيد الأرستقراطية. استأثرت الأسر العريقة بجميع المناصب الحكومية[1]، كما استقلت بكل التشريفات العسكرية والمدنية[2].

هؤلاء الأشراف، الملقبون **بالآباء**، كان هاجسهم الدائم منع عودة الملوك إلى المدينة. فدأبوا على إذكاء نقمة الشعب في كل مناسبة وبأية وسيلة. إلا أنهم أسرفوا في الأمر. ربوا الجمهور على عداء الملوك، فلقنوه حباً غير محدود للحرية، وبما أن السلطة الملكية أصبحت مجسدة كلياً في القناصل، شعر الشعب بأنه لا يملك شيئاً من تلك الحرية التي يدعى يومياً إلى التشبث بها. فحاول أن يحدّ من نفوذ القناصل، أن يختار بعض

---

(1) تمتعت الأرستقراطية بحرمة دينية إذ كان أعضاؤها وحدهم يقومون بوظيفة الكهانة، كما توحي بذلك خطبة **أبيوس كلوديوس** المذكورة في [6 ك 67] م م

(2) يكرمون وحدهم **بحفل النصر** إذ لا قنصل أو قائد جيش إلا منهم.

الحكام من صفوفه، أن يقاسم الأشراف الوظائف ذات الكرسي[1]. في النهاية اضطر الآباء إلى الاستجابة لمطالبه. سبب ذلك أن تقاليد روما تدعو إلى تعظيم التقشف والقناعة لا الثروة التي تمثل في المجتمعات الأخرى الطريق الخفي إلى النفوذ. في هذا الجو الخاص بروما، حيث لا ينفع كثيراً شرف الأصل أو مجد الأجداد، عادت القوة الفعلية للعدد. فتحول الحكم فيها تدريجياً من أرستقراطي إلى جمهوري.

الملاحظ أن من يحكمهم ملك أقل غيرة وطمعاً ممن تسوسهم أرستقراطية وراثية. بين الأمير والرعية الهوة سحيقة إلى حد أنها لا تكاد تلحظ، فلا يخطر ببال أحد ما يستدعي النفور والتبرم. أما الحكام الأشراف فإنهم يتجولون في الأسواق، يراهم الناس كل يوم، فتسهل المقارنة التي تؤدي حتماً إلى الاشمئزاز والمقت. لذا نرى في كل زمان وحتى اليوم أن الشعب يعادي دائماً أعضاء مجلس الشيوخ. أسعد جمهورية هي التي تختار زعماءها من دون اعتبار للنسب، إذ الشعب لا يغار من سلطة يقلدها من يشاء ويسحبها منه متى شاء.

غضب الشعب على الآباء فغادر المدينة لاجئاً إلى الجبل المقدس[2]. حينئذ أرسل الشيوخ وفداً عنهم لاسترضاء الغاضبين. وبما أن هؤلاء تعاهدوا على التآزر إذا أخلف الشيوخ وعدهم[3]، مما يؤدي إلى استمرار القلاقل وتعطيل الأحكام، استقر رأي الجميع على أن الحل الأمثل هو

---

(1) كان أصحاب المناصب العليا: قنصل، أمين (Praetor) محتسب (Censor)، ولي (Édile)، وضاع (Dictateur)، إن وجد، يحملون معهم كراسي من عاج تعظيماً لمقامهم.

(2) أفنتان Aventin.

(3) [71 ك 2] م م

إنشاء منصب خاص بالعامة يحميهم من كل حيف[1]. لكن داء البشر المزمن هو الغلو في كل شيء. عوض أن يقتصر النقيب على حماية العامة راح يهاجم الخاصة، وتدريجياً جردت هذه من كل امتيازاتها. احتد الصراع وطال، نقباء الشعب يحرضونه أكثر مما يعبرون عن مطالبه، والشيوخ، كلهم تقريباً من الأشراف، يدافعون عن مصالح طبقتهم، وفاءً لتقاليد روما العريقة وخشية من أن ينتصب أحد النقباء، بمساعدة العامة، طاغية.

في هذا الصراع المرير استغل الشعب قوة العدد، غلبة الأصوات، الامتناع عن التجنيد، هدد بمغادرة المدينة، أصدر قوانين انتقامية، وأخيراً حاكم المصرّين على معاكسته. أما الشيوخ فإنهم استندوا في الدفاع عن مصالحهم على خصالهم المعروفة، حصافة الرأي، توخي العدل، حب الوطن، إتيان الخير، التعفف في إدارة المال العام، احترام الشعب التلقائي لأمجاد الأسر العريقة وفضائل أعضائها المشاهير[2]، كما استغل الشيوخ لصالحهم الدين والعادات الراسخة والمناسك العتيقة. ألغوا اجتماعات أثناء أيام ادعوا أنها نحسة[3]، عبأوا أتباعهم ومواليهم، حرضوا نقباء الشعب الواحد ضد الآخر، فوضوا الحكم لديكتاتور[4]، كما استفادوا من

---

(1) هكذا تأسست نقابة الشعب tribunat. م م. كان ذلك سنة 493ق.م.

(2) كان المواطن الروماني يقضي حياته تحت السلاح بقيادة الآباء. إذا ترشح قائد عسكري فلا يسع من خدم تحت لوائه إلا التصويت لفائدته. حتى بعد أن عاد من حق الشعب أن يختار أحد القنصلين من صفوفه ظل يصوت لصالح الخاصة. لذا اضطر ان يلزم نفسه بقانون يجعل ضروريا انتخاب قنصل عامي. رغم هذا من عين مرة كان يعاد انتخابه مراراً. عندما اختار الشعب رجلاً مغموراً مثل ڤارون أو ماريوس بدا كأنه عاكس ميله وكسب حرباً ضد نفسه. م م

(3) لا يقدم المسؤولون على أمر دون استشارة العراف هل اليوم سعد أم نحس، والعراف دائماً من الآباء.

(4) خطة تقليدية استفاد منها الآباء كثيراً إلى أن أصبح من حق العامة تعيين قنصل

كل حرب جديدة تلهي الشعب، ومن أي كارثة عامة توحد مشاعر الناس. ثم كانوا يتظاهرون بحنو أبوي، فيستجيبون لبعض المطالب مقابل التنازل عن أخرى. وأخيراً ظلوا أوفياء لقاعدة صارمة هي أن سلامة الدولة تعلو على كل مصلحة خاصة بأية هيئة أو خطة.

مع مرور الأيام نجحت العامة ونالت من نفوذ الخاصة إلى حد أنه لم يعد بينهما فرق يذكر. تناوب على نفس الوظائف رجال من كلا الطبقتين[1]. عندها تغير جوهر النزاع فأصبح اصطداماً، بتحريض مستمر من النقباء، بين سفلة الشعب وبين الأسر النافذة، أكانت من أصول عريقة أو كانت ناشئة. فلقب الجميع بالنبلاء. هذه الطبقة الجديدة ملأت صفوف مجلس الشيوخ وحولته إلى أداة لخدمة أطماعها. وبما أن أخلاق الناس كانت قد تدهورت، وأن بعض المواطنين أصبحوا على رأس ثروات هائلة، وأن المال يكسب النفوذ في كل حال، دافع النبلاء عن مصالحهم بحزم لم يكن معهوداً لدى الآباء. الأمر الذي أدى إلى هلاك الأخوين **غراكوس** ومن سار على نهجهما[2].

لا بد هنا من الحديث على وظيف أسهم كثيراً في استقرار روما، ألا وهو منصب **المحتسب** Censor، الذي كان مكلفاً أساساً بإحصاء السكان. لكن بما أن دعامة الجمهورية هي انضباط المواطن وتقشفه وتمسكه بالعادات العريقة، كان هم المحتسب أيضاً استدراك ما أغفله

وبالتالي ديكتاتور، فسقط في أيدي الخاصة. انظر [67 ك 8]، كيف نجح **بوبليوس فيلو** ونال من مكانة الشيوخ بإقرار ثلاثة قوانين أضرت بهم كثيراً. م م

(1) باستثناء بعض الخطط ذات الطابع الديني التي احتفظ بها الآباء وكذلك بحق تعيين، عند الحاجة، حاكم مؤقت يدعى بين ملكين Interrex. م م

(2) مثل **ساتورنيلوس وغلوكاس**. م م

القانون ويعجز القاضي عن متابعته[1]. المثل السوء أخطر على أمن الدولة من الجريمة المكشوفة. والدول التي انهارت بسبب خرق أعرافها أكثر من التي تساهلت في تطبيق قوانينها. كان المحتسب في روما يقوّم الانحرافات التي تغير مزاج وعقلية المواطن وتهدد، إن صح التعبير، بقاء واستمرار الجمهورية. يتدخل لإيقاف شغب في الشارع أو خصومة في البيت، يطرد من مجلس الشيوخ من أخل بواجبه، يجرد الفارس من مركوبه الذي هو ملك للدولة، ينقل المرء من قبيل إلى آخر، بل قد يضعه ضمن جماعة تؤدي ضرائب المدينة من دون الاستفادة من أية خدمة[2].

بل ذهب المحتسب **ماركوس ليفيوس** أبعد من هذا. وصم بالعار الشعب الروماني بكامله، إذ وضع أربعة وثلاثين من مجموع خمسة وثلاثين قبيلاً في رتبة من لا يتلقى أية خدمة من المدينة، قائلاً: "سبق لكم أن قمتم بمحاكمتي وإدانتي وبعد ذلك انتخبتموني قنصلاً ثم محتسباً. تعديتم على الحق إما مرة واحدة إذ عاقبتموني ظلماً، وإما مرتين إذ أكرمتموني بعد أن صحّت لديكم إدانتي[3]".

وطرد محتسب آخر نقيب الشعب **ماركوس دورونيوس** من مجلس الشيوخ لأنه، أثناء مأموريته، ألغى قانوناً يحد من مصاريف الدولة عند إقامة أفراح عمومية[4].

فائدة هذا الوظيف جلية. لم يكن في وسع المحتسب أن يتطاول على

---

(1) عقب هزيمة قانه خفض المحتسب رتبة كل ضابط دعا إلى مغادرة إيطاليا أو استسلم إلى هنيعل أو خان عهده له بتأويل مغرض. م م

(2) في هذا الحال يعود المرء خارج التعداد، فيفقد حق التصويت. م م. التماثل واضح مع الحسبة الإسلامية.

(3) [67 ك 29]. م م

(4) [68 ك 25]. م م

الحكام[1]، وإلا حصل إخلال بالأمن وتعطيل لنفوذ القوة العمومية. لكن بنقله المواطن من هيئة إلى أخرى، وإنزاله من مرتبة عليا إلى أخرى سفلى، فإنه كان في الحقيقة يجرده من شرفه الشخصي.

شرح لنا المؤرخان **تيت ليف**[2] **ودوني هاليكارناس**[3] كيف وزع **سربيوس توليوس** سكان روما إلى مائة وثلاث وتسعين رحى [مئوية]، وقسم هذه إلى ست طبقات. وضع كل العامة في الرحى الأخيرة الممثلة كلها في الطبقة السادسة. جردت العامة إذاً من حق التصويت، ضمناً إن لم يكن صراحة. بعد هذا تقرر أن يجري التصويت، إلا في حالات نادرة، بحسب القبيل، كل قبيل يصوت على حدة. من مجموع خمسة وثلاثين قبيلاً أربعة كانت تمثل الحاضرة وواحد وثلاثون الريف. أهم المواطنين، كلهم مزارعون، سجلوا إذاً في القبائل الريفية، وسجل الفقراء من سكان الحاضرة[4]ضمن القبائل المدنية الأربع، فكانوا لا يؤثرون أبداً في نتيجة التصويت. اعتبر هذا الإجراء ضمانة لسلامة الجمهورية. لهذا السبب لما عاد المحتسب **فابيوس**[5] وسجل كل المعوزين في قبائل المدينة الأربع، بعد أن كان **أبيوس كلوديوس**[6] قد فرقهم على جميعها، لقب بفابيوس الأعظم تنويهاً بقراره[7]. كان من مهمات المحتسب مراجعة لوائح الإحصاء كل خمس سنوات وتوزيع المواطنين على القبائل المختلفة،

---

(1) الشيخ لا يعتبر حاكماً، لذا صح طرده. م م

(2) [67 ك 1]. م م

(3) [15 ك 4 ف 15 وما يلي]. م م

(4) يلقبون Turba Forensis، الرعاع أو الأوباش. م م

(5) حصل ذلك سنة 304 ق.م.

(6) سنة 312 ق.م.

(7) [67 ك 9]. م م

حتى لا يتلاعب نقباء الشعب أو الطامعون بنتائج التصويت، بل حتى يلجم الجمهور ويمنع من الإسراف في استغلال قوة العدد.

ما يثير الإعجاب في نظام روما هو أنه منذ البدء، بسبب مزاج الشعب وهيبة الشيوخ ونفوذ كبار الحكام، كلما حصل حيف عدل في الحين.

هلكت قرطاج لأنها، عندما لحقها الفساد ولزمها الإصلاح، لم ترض أن يأتي على يد هنيبعل. وهلكت أثينا لأنها استلذّت الداء حتى لم تعد تستسيغ الدواء. وجمهوريات إيطاليا اليوم يحق لها أن تفخر باسترسال مرضها لا بطول حياتها، إذ حريتها[1] لا تتعدى ما كانت عليه روما أثناء حكم الطغاة العشرة[2].

تمتاز حكومة انكلترا على غيرها من الحكومات بوجود هيئة[3] تراقب أفعالها بل تراقب ذاتها، فمهما بلغت أخطاء هذه أو تلك فإنها لا تستمر، بل غالباً ما تكون ذات نفع إذ توقظ الأمة من غفلتها.

بالجملة حكومة حرة هي بالتعريف حكومة غير قارة. فلا يكتب لها البقاء إلا إذا ضمّنت دستورها آليات تقويم ذاتي.

---

(1) بل قوتها. م م

(2) انظر ص 29 ملحوظة 2.

(3) أي البرلمان.

الفصل التاسع

عاملان سبّبا انهيار روما

لما كان سلطان روما يقتصر على أراضي إيطاليا، كان نظامها محصناً إلى حد كبير. كل محارب فيها مواطن، كل قنصل يجند قسماً من المواطنين ويقودهم إلى ساحة القتال في انتظار أن يخلفه قنصل آخر يقاتل بقسم ثان. عدد المقاتلين محدود إذ لا يجند إلا من له ملك وبالتالي مصلحة في استمرار نظام المدينة[1]. ثم كان مجلس الشيوخ يراقب عن كثب تصرفات قواد الجيش، فلا يترك لهم أية فرصة ليحيدوا عن الجادة.

لكن عندما غادرت كتائب الجيش أرض إيطاليا، واجتازت جبال الألب، وعبرت البحر لتقوم بحملات تطول أعواماً، يظل أثناءها الجندي وقائده بعيدين عن الوطن، ضعفت بالتدريج ذهنية المواطن. شعر القواد، وهم على رأس جيوش وممالك، ما بأيديهم من قوة، فلم يعودوا ميالين إلى الانقياد.

(1) في الأصل لا يدعى للقتال، سوى في حالات استثنائية، لا الموالي ولا من يؤدي ضريبة الرأس أي من لا ملك له. وضعهم **سربيوس توليوس** ضمن الطبقة السادسة والحال أن الجنود لا يؤخذون إلا من الطبقات الخمس الأخرى. لكن **ماريوس**، وهو يستعد لمواجهة **يوغورتا**، جند الكل بحسب رواية **سالوست**. وللتذكير أن المسجل في قبائل المدينة، بحسب الإحصاء بالقبيل، مسجل أيضاً في الطبقة السادسة في الإحصاء بحسب الأرحاء، بمعنى أنه ليس مواطناً بالفعل. م م

اقتصر تعلق الجندي على رئيسه. فعقد عليه كل آماله، وتراجعت روما عن أنظاره. لم يعد جندي الجمهورية بقدر ما عاد مقاتل **سولا** أو **ماريوس** أو **پومپيوس** أو **قيصر**، ولم تعد روما على يقين أن قائد جيش هذا البلد أو ذاك مُوالٍ لها أم ثائر عليها.

طالما انحصر خطر الفساد في شغب نقباء الشعب، وفي ما يمكن أن يفوض الشعب لنقبائه من سلطة محددة، كان مجلس الشيوخ يستطيع أن يقاوم ذلك الخطر بنجاح، إذ يعمل هو بمثابرة وصبر فيما يتقلب الشعب من حماسة مفرطة إلى خمول شامل. لكن لما صار في مقدور الشعب أن يمنح، خارج المدينة، سلطة غير محدودة لمن يحابي من قواد الجيش، أصبح تعقل الشيوخ بلا تأثير. فانهارت الجمهورية.

إن الدول المبنية على مبدأ الحرية معرضة للزوال أكثر من التي تأسست على الطاعة والانقياد. السبب ظاهر هو أن الحرية تتضرر على حد سواء بما يلحق الدولة من خير أو من شر. أما الطاعة فإنها تترسخ في حالتي الانتصار والانكسار. لذلك تقضي الحكمة على كل جمهورية أن تتجنب المخاطرات وأن تتوخى السلامة في كل الأحوال.

صحيح أن توسع الامبراطورية قضى على النظام الجمهوري في روما، لكن صحيح أيضاً أن النظام انحل بسبب عظمته الذاتية[1].

استنجدت روما بشعوب إيطاليا لإخضاع سكان المعمورة. وكافأت من ساعدها في كل مرحلة بامتيازات معينة[2]. قنع كل شعب بما نال ولم يتطلع إلى أن يتمتع بكل حقوق المواطن الروماني، بل فضل الكثيرون الحفاظ

---

(1) جودة نظام روما هو أصل عظمتها وهذه ولدت التوسع الذي قضى على النظام، عبارة جلية عن "جبرية" غير مرتبطة بعقيدة دينية.

(2) القانون اللاتيني ثم القانون الإيطالي. م م

على عرفهم الخاص[1]. لكن لما أصبح القانون الروماني هو المسيطر في كل مكان، صاحبه سيد وغيره مولى، عندها رفعت شعوب إيطاليا شعاراً واحداً: المواطنة الرومانية أو الموت. اختارت أولاً نهج التودد والاستعطاف، ولما لم تحصل على شيء ثارت ثورة عمت كل ساحل بحر إيونيا[2]. تأهبت شعوب أخرى لمساندتها، فوجدت روما نفسها في موقف من يضطر إلى بتر يديه. رأت نفسها هالكة، محاصرة وراء أسوارها الأصلية، فلبت مطلب الكثيرين. منحت حقوق المواطنة أولاً لحلفائها الذين لم يشهروا عليها السلاح[3]. ثم خطوة خطوة أصبح كل من سكن أرض إيطاليا مواطناً رومانياً.

عندئذ صارت روما غير روما، أي تلك المدينة التي امتاز جميع سكانها بذهنية خاصة، بنزوعهم إلى الحرية وكراهيتهم للطغيان، بتبرّمهم من سلطة الشيوخ ونفوذ الكبار وفي نفس الوقت باحترامهم لخصالهم الحميدة، إذ دافعهم في كلا الشعورين تعلقهم بمبدأ المساواة. وبما أن سكان إيطاليا أصبحوا جميعهم مواطنين[4]، جاءت كل جماعة بمزاجها الخاص وأغراضها الضيقة وولائها لمن يحمي مصالحها من الكبراء. فتفرقت روما إلى شيع ولم تعد تكوّن وحدة عضوية. لا تعدو مواطنة هؤلاء الأفاقيين

(1) كان شعب الأيك يقول في محافله إن من كان له الخيار فضل العرف المحلي على القانون الروماني الذي يمثل عبئاً على من لا يستطيع تفاديه. [67ك 9]. م م

(2) ثارت شعوب أسكولان، مارسيان، فستين، ماروقيان، فرنتيان، هيرپان، بومبپيان، فنوزيان، ياپيج، لوكان، سامنين، وغيرهم. انظر [2ب ك 1]. م م

(3) أي أهل طوسكان، أومبريا، ولاتيوم. شجع ذلك بعض الشعوب الثائرة فطرحوا السلاح. عندئذ منحوا نفس الحقوق وقلدهم غيرهم. ظل السامنين وحدهم صامدين فأفناهم الرومان عن آخرهم. م م

(4) لنتصور إيطاليا كجسم فوقه رأس ضخمة هائلة تدير شؤون الدنيا برأي كل فرد فيها. م م

أن تكون شكلية إذ لا يخضعون لنفس الحكام، لا يعيشون داخل نفس الأسوار، لا يتقربون لنفس الآلهة، لا يقصدون نفس المعابد، لا يزورون نفس المقابر. لم يروا روما كما كان يراها المواطنون الأوائل، ولم تربطهم بها نفس الأواصر، فاختفت إلى الأبد تلك المشاعر التي نسمّيها رومانية.

استقدم كل زعيم طموح أمصاراً بل أقواماً كاملة بهدف التشويش على الانتخابات وكسب غالبية الأصوات. تحول كل تجمع إلى مؤامرة. تلتقي حفنة من المتمردين وتدعي أنها تشكل محفلاً انتخابياً[1]. سلطة الشعب، قوانين الشعب، الشعب ذاته، كل ذلك أصبح وهماً ولم يعد حقيقة. وبلغت الفوضى إلى حد لم يعرف أحد هل صودق فعلاً على قرار أم لا[2].

كل من ألف في هذا الباب يردد نفس الكلام، فيقول إن الانقسام أدى إلى انهيار روما. ولا أحد يدرك أن الانقسام لم يفارقها أبداً، بل هو أحد أركان النظام الجمهوري. فلم يأت الضرر منه بل من توسع روما الذي جعل من كل شغب عادي في صفوف الشعب حرباً أهلية. كان لا مناص من أن يحصل انقسام إذ كيف ينتظر من الإنسان الروماني أن يكون في الداخل وديعاً مسالماً وفي الخارج أبياً مقداماً شرساً يرعب العدو. من يطلب في دولة أساسها الحرية أن يكون المرء جريئاً أثناء الحرب وخجولاً متحفظاً أثناء السلم يروم المحال. هناك قاعدة بدون استثناء، كلما رأيت الوداعة عامة في دولة تدعي أنها جمهورية، فتيقن أن لا حرية فيها.

---

(1) المرجع لكل قرار سياسي أو حربي أو قضائي هو المحفل الشعبي Comitia وهو ثلاثة أنواع بحسب الأصل المعتبر، أما القبيل Tribu، وهو تجزئة إدارية، فيسمى المحفل Comitia Tribunata، وأما الجوار فيسمى Comitia Curiata، وإما التعبئة المئوية فيسمى Comitia Centuriata. الغاية من استدعاء المحفل التصويت.

(2) انظر [11ك 4 رسالة 8]. م م

ما يسمى عادة في النظام السياسي وحدة أمر في غاية الالتباس. الوحدة الحقة انسجام وتناغم بين أجزاء مختلفة جداً، تخدم كلها الصالح العام عبر ذلك الاختلاف ذاته، كما يحصل في الموسيقى، إذ بالنغمة النشاز يتم الكمال. قد يرى الملاحظ الأجنبي في دولة ما شقاقاً مستمراً في حين أن وراء ذلك الشقاق توافقاً ضمنياً يحقق السعادة التي هي سر السلم الاجتماعي. مثلها مثل الكون الذي تتكافأ أجزاؤه على الدوام، بعضها يدفع والآخر يمنع.

أما ما يلاحظ من وفاق في الأنظمة الآسيوية المستبدة، أي في كل حكومة مطلقة التصرف[1]، فإنه يخفي شقاقاً عميقاً. لا شيء يوحد بين المزارع والمحارب والتاجر والقاضي والشريف سوى أن الواحد يقهر الآخر دون رادع. وإن لمسنا فيها وحدة، فإنها ليست بين أحياء بل بين أموات صفّوا جنباً إلى جنب.

صحيح أن قوانين روما باتت عاجزة عن إدارة شؤون الجمهورية. لكن لا غرابة في هذا الأمر. لوحظ مراراً أن القوانين الجيدة، التي ساعدت دولة صغيرة على أن تنمو، لا تلبث أن تتحول إلى أعباء وقيود عندما تكبر، لأن تلك القوانين كانت تستهدف عظمة الشعب لا حسن إدارته.

هناك فرق كبير بين القوانين الجيدة والقوانين المواتية، بين تلك التي تهيئ شعباً ليسود وتلك التي تحفظ له السيادة بعد أن يحصل عليها[2].

---

(1) هذه ثنائية تعود إلى المؤلفات اليونانية: الحرية إغريقية أوروبية، الاستبداد فارسي آسيوي. إلا أن كتاب القرن الثامن عشر الأوروبي بحثوا عن جذور هذا الاختلاف، الجغرافية، الأخلاقية، الدينية، إلخ.. أي أنهم حددوا شروط الحرية السياسية، وبالتالي جذور الاستبداد.

(2) تبرز هنا واقعية رجل القانون، مؤلف **روح القوانين**. لا يوجد تشريع صالح لكل زمان ومكان إلا إذا كان المقصود بكلمة تشريع توخي العدل.

توجد اليوم جمهورية[1] لا يعرفها إلا قلة من الناس، تزداد قوة يوماً بعد يوم في صمت وكتمان. إذا ما تبوأت، بفضل حكمة ساستها، المقام الرفيع الذي تستحقه، لا شك أن قوانينها ستتغير، لا بإرادة مشرعيها بل بحكم التطور وما يصاحبه حتماً من فساد.

نشأت روما لتتوسع. فكانت قوانينها صالحة لبلوغ ذلك الهدف. في ظل كل الأنظمة التي توالت عليها، من ملكي إلى أرستقراطي إلى شعبي، لم تفتأ تقوم بمبادرات تستدعي الصبر والمثابرة. فحالفها دائماً النجاح. لم تتفوق على باقي دول الأرض بالحكمة والفطنة، من حين لآخر، بل على الدوام والاستمرار. أساعدها الحظ قليلاً أو كثيراً أو بين هذا وذاك، باشرت أمورها بنفس الحزم ونفس الثقة. ما غمرتها نعمة إلا استفادت منها وما مستها نقمة إلا اتعظت بها.

خلاصة القول إنها فقدت حريتها لأنها حققت أهدافها مبكراً.

(1) مقاطعة برن السويسرية. م م

الفصل العاشر

عن فساد أخلاق الرومان

أرجح أن فساد الرومان بدأ مع انتشار فلسفة **أبيقور** أواخر العهد الجمهوري[1]. كان الإغريق قد سبقوهم إلى هذا الأمر فمسهم الفساد قبلهم. يقول **پوليب** أن لا أحد في زمانه يطمئن إلى يمين أي يوناني، لأن هذا الأخير، عكس الروماني،لا يعتبر نفسه ملزماً بوعده[2].

لكن واقعة يذكرها **شيشرون** في إحدى رسائله إلى صديقه **أتيكوس** تظهر أن حال الرومان قد تغيرت منذ عهد پوليب.

يقول: أخبر مؤخراً **مميوس** مجلس الشيوخ بالاتفاق الذي أبرمه هو ومنافسه مع القنصلين الحاليين يضمن لهما الخلافة السنة القادمة إن هما أتيا بثلاثة عرافين يشهدون أن **محفل الشعب** أجاز قرار التعيين[3]،

---

(1) تكلم في هذا الموضوع **قونياس** على مائدة **فيهروس**، فعلق فابريسيوس: حبذا لو تأثر بأفكار هذه الفرقة كل أعداء روما. انظر [49، سيرة فيهروس]. م م

(2) إن أقرضت يونانياً مالاً وأدى لك اليمين عشر مرات وأعطاك عشر ضمانات بحضور عشرة شهود ما أعاده لك. أما الروماني فإنه يؤدي دائماً ديونه، أكانت للدولة أو الخواص، لأنه يخاف عاقبة الاخلاف والحنث. في التخويف من عذاب الآخرة حكمة كبرى، ولا عذر لمن ينتقد هذه العقيدة كما يفعل الكثيرون اليوم. انظر [50ك 6]. م م

(3) المحفل الشعبي يوافق بقانون على المأمورية العسكرية ثم يتخذ مجلس الشيوخ قرارا تنفيذياً يحدّد عدد الجنود ومستوى النفقات وأسماء الضباط، أي كل ما يحتاج إليه الولي المعتمد للقيام بواجبه. أراد القنصلان المذكوران تزوير قانون وقرار بحسب

وبقنصلين سابقين يقران بصحة التوقيع على قرار التنفيذ. وإن عجزا عن ذلك دفعا للقنصلين أربعمائة ألف **سسترس**[1]. والواقع أن لا وجود أصلا لنص التعيين أو قرار التنفيذ[2]. كم من خائن عهد، وشاهد زور، في عقد واحد.

العقيدة الدينية تحمي الأخلاق في كل الأوضاع، لكن ميزة الرومان أن العاطفة الدينية كانت لا تنفصل عندهم عن الحمية الوطنية. أسست روما والطالع أسعد ما يكون، أسسها **رومولوس**، ملك وإله، **الكابطول**[3] باق كالمدينة، والمدينة باقية كمؤسسها. هذه المعتقدات، دينية وسياسية في آن، كانت راسخة في ذهن كل روماني طيلة قرون. يا حبذا لو ظل الأمر دائماً كذلك.

نمت الدولة ونمت معها ثروة الأفراد، لكن بما أن النعيم لا ينحصر في الماديات، وبما أن عادة الرومان الكفاية، توافرت بين أيديهم أموالٌ لا منفذ لها[4] ومن فسدت أخلاقه وهو غني زاد فساده عندما يصبح فقيراً. من ملك ثروة ملوكية لا يتصرف تلقائياً كمواطن صالح، فإن ضاعت منه، تاركة في قلبه الرغبة والحسرة، أباح لنفسه كل اعتداء وتطاول. لذا قال **سالوست**:

هواهما. م م

(1) انظر أسفله ملحوظة 4.

(2) [11 هـ ك4 رسالة 18]. م م

(3) بيت رب الآلهة.

(4) اقتنت كورنيليا منزلاً بخمسة وسبعين ألف درهم وبعد فترة وجيزة فوتته إلى لوكولوس بمليونين ونصف مليون. انظر [49، سيرة ماريوس] م م. الدرهم (Drachme) وحدة نقدية يونانية وزنها 4.36 غ فضة تساوي فرنكاً ذهبياً. الوحدة النقدية الرومانية هي الدينار (Denarius) يساوي الدرهم اليوناني، وهو مجزء إلى 10 (ثم 16) آسات (As)، أي 10 أواق، وإلى 4 سسترسات (Sesterse) السسترس يعادل 2.5 آس/ أوقية.

نجم جيل عاجز عن أن يملك وناقم على من يملك[1].

رغم هذا الانحطاط في الأخلاق لم تصل روما إلى الحضيض بسبب نظامها القوي الذي أورثها شهامة بطولية. رغم نعومة العيش، والجري وراء كل أنواع الملذات، حافظ الرومان على بسالتهم وإتقانهم لصناعة الحرب. أمر لم يحصل، فيما أعتقد، لأية أمة أخرى.

المواطن الروماني ليس تاجراً أو صانعاً في الغالب، إذ يرى في هاتين المهنتين خاصية العبيد[2]. يفسر **شيشرون** سبب هذا العزوف[3]. ومن وجد مخالفاً لهذا العرف فهو عند التدقيق أحد الموالي، يتابع مهنة كان يزاولها قبل عتقه. لم يتقن الروماني إذاً على العموم غير صناعة الحرب التي كانت وحدها توفر له المجد وتوصله إلى أعلى المناصب[4]. لهذا السبب احتفظ بخصاله القتالية حتى بعد أن فقد كل خصلة سواها.

---

(1) انظر [5ك 2ف 18]. م م

(2) الرجل الحر في عرف رومولوس مزارع أو محارب. أما التاجر أو العامل أو صاحب دار كراء أو مشرب أو مطعم فلا يعتبر مواطناً. انظر [15ك 2 و ك9]. م م

(3) [11 ح ك1 ف42]. م م

(4) المفروض أن يقضي المواطن الروماني عشرة أعوام في الجيش بين سني السادسة عشرة والسابعة والأربعين. انظر [50ك 6]. م م

الفصل الحادي عشر

1. سولا 2. بومبيوس وقيصر

ليسمح لي القارئ أن أغض الطرف عن الفظائع التي ارتكبت أثناء النزاع بين **ماريوس وسولا** إذ يجد أخبارها مفصلة عند **أبيان**[1]. طغى الحسد والطموح والقسوة على الزعيمين وعمَّ كل أفراد الشعب التهور والجهالة. لم يعد المواطنون، القدامى والجدد، ينظرون إلى أنفسهم كأعضاء في جمهورية واحدة. فاكتسى النزاع طابعاً خاصاً، إذ كان في آن حرباً خارجية وداخلية[2].

اتخذ سولا إجراءات كانت كفيلة بوضع حد نهائي لكل شقاق: قوّى سلطة الشيوخ، قلّص نفوذ محفل الشعب، حدد صلاحيات النقباء. ثم بدا له أن يعتزل الحكم فظن الجميع أنهم شاهدوا انبعاث الجمهورية. إلا أن أفعالاً سابقة، أقدم عليها سولا وهو لا يزال في نشوة الانتصار، منعت روما من الحفاظ على حريتها المستعادة.

---

(1) مؤرخ يوناني من الاسكندرية توفي حوالى 160 ق.م.

(2) نافس ماريوس سولا على قيادة الجيش المعد لمحاربة ميثريدات، ففرق بمساعدة نقيب الشعب سولبيسيوس، القبائل الإيطالية الثماني، الملحقة مؤخراً، على القبائل العريقة. مما أعطى غالبية الأصوات للإيطاليين على حساب الرومانيين. آزر المواطنون الجدد ماريوس فيما ساند القدماء سولا المدعوم من قبل الشيوخ. م م

أثناء الحملة التي قادها في آسيا أطلق العنان للجيش فأوهن روح الانضباط. عود الجنود على النهب وكشف لهم النقاب عن حاجيات لم يسبق لهم بها عهد[1]. فسدت أخلاق الجميع إذ تكفل الجنود بإفساد القادة.

كما كان أول قائد عسكري دخل روما شاكي السلاح. فسن لأقرانه عادة انتهاك حرم الحرية[2].

تكرم على جنوده بعقارات المواطنين[3]، ففتح شهوتهم إلى الأبد. من ذلك التاريخ تحين كل قائد الفرص لمصادرة أملاك المواطنين.

ابتدع نفي الخصوم وأجاز قتل كل من تجاوز حدود منفاه، بل كافأ القاتل. بذلك انعدم الوفاء للجمهورية إذ في حال نزاع بين قائدين من التزم الحياد، ورفع شعار الحرية، حكم على نفسه بالنفي أياً كان الفائز. أصبحت السلامة في الانتصار لأحدهما منذ البداية.

يقول **شيشرون**: ثم جاء بعده رجل[4] أكثر فجوراً وأقل استحياء، لم يقنع بعد انتصاره بمصادرة أملاك بعض الأفراد بل عمَّ بلاؤه ولايات بكاملها[5].

تنازل سولا عن **سلطة الديكتاتور**. بدا كما لو لم يعد يود سوى العيش تحت حماية القوانين التي سنها. خطوة في الظاهر دليل عدل وعفة، لولا أنها في الواقع نتيجة جور سابق. أنزل **سولا** سبع وأربعين كتيبة[6] في أنحاء

---

(1) انظر [55: وصف دقيق لجيش سولا]. م م

(2) [25د]. م م

(3) منحت للجنود أرضاً في السابق، لكن على حساب العدو المنهزم، أما سولا فأعطاهم أراضي المواطنين. م م

(4) يوليوس قيصر.

(5) [11ج ك 2ف 8]. م م

(6) يناهز ربع مليون جندي.

متباعدة من إيطاليا، وهؤلاء الجنود يرون كلهم، بحسب قول أپيان، في حياة قائدهم المتقاعد أكبر ضمانة لثروتهم. كانوا حريصين على أمنه، مستعدين في أية لحظة لإنقاذه والأخذ بثأره[1].

أصبح إذاً انهيار النظام الجمهوري أمراً مبرماً. السؤال الوحيد المطروح: كيف وعلى يد من؟

كان آنذاك على الساحة رجلان لهما نفس الأطماع، سوى أن أحدهما كان أميل إلى التستر والمراوغة. امتاز الاثنان على باقي الرومانيين بإنجازاتها، بخصالهما، بثقة الناس فيهما، أقصد پومپيوس الذي سبق إلى الشهرة، ويوليوس قيصر الذي علا شأنه بعده بقليل.

تقرب پومپيوس إلى الشعب بإلغاء قوانين سولا التي حدّت من نفوذه. بهذا الإجراء ضحى بمصلحة وطنه العليا في سبيل تحقيق أغراضه. بلغ مراده ومنذ تلك اللحظة كلما رغب في شيء وافقه الشعب من دون أدنى تحفظ.

الحكمة في نظام روما أن السلطة العمومية مجزأة إلى خطط إدارية كثيرة تتآزر أحياناً وتتعارض أخرى، فيحصل التكافؤ. لكل خطة سلطة محدودة يستطيع أي مواطن أن يضطلع بها. يرى الجمهور أشخاصاً كثيرين يتناوبون على نفس المنصب فلا يتعلق بأي واحد منهم. لكن أثناء الفترة التي نحن بصددها، حصل تغيير جذري. استدرج الشعب رجالٌ لهم نفوذ إلى أن يوليهم مهمّات واسعة لم تكن معهودة إلى ذلك الحين، تولية أضرت بسمعة الشعب وأضعفت مكانة الولاة العاديين. فاستأثر فرد أو جماعة محدودة بأهم القضايا[2].

---

(1) على غرار ما أعقب اغتيال قيصر. م م

(2) "اضمحل نفوذ الشعب فيها تعاظمت قوة جماعة قليلة" [55ب]. م م

من يتولى معاقبة الثائر **سرطوريوس**؟ صاح الشعب: **پومپيوس**. من يحارب **ميثريدات**؟ ردد الجميع: پومپيوس. من يسهر على استيراد القمح إلى روما؟ هتفت العامة: پومپيوس وإلا هلكنا جوعاً. من يضع حداً للقرصنة في المتوسط؟ أجاب الكل: لا أحد يستطيع ذلك سوى پومپيوس. ولما هدد قيصر بمهاجمة إيطاليا صاح الشيوخ بدورهم: لا ملاذ لنا سوى پومپيوس.

قال **ماركوس** مخاطباً الشعب: يستبشر الأشراف بقدوم پومپيوس وأنا على يقين أنه يفضل أن يرسخ حريتكم على أن يقوي سلطانهم. لكن في السابق كان الواحد منكم في حمى الجماعة لا الجماعة في حمى الواحد. لم يكن يسمع أن فرداً يستطيع أن يمنح أو يمنع كل شيء[1].

كان حرياً بروما في بداية أمرها، وهي تتطلع إلى النمو والتوسع، أن تشرّف بعض الأشخاص وتمدهم في نفس الوقت بالقوة اللازمة. لكن عندما تضطرب الأوضاع، الجمع بين التكريم والتمكين يقود الشعب إلى الافتتان بنفس الشخص.

عندما يشرّف الشعب أمرءاً يعرف بالضبط ماذا يمنح، أما عندما يشفع التشريف بالقوة فإنه يجهل إلى أي مدى ستستغل تلك القوة في المستقبل.

في نظام جمهوري إن انفرد مواطن بحظوة فائقة، إما يغار منه الشعب وإما يشغف بحبه. هذه قاعدة متواترة.

عاد پومپيوس مرتين مظفراً إلى روما. فكان بوسعه أن يضع الجمهورية تحت قدميه. لكنه لم يفعل. كبح طموحه، سرح الجيش ودخل المدينة

(1) [55هـ]. م م

كمواطن عادي. أكسبه هذا التصرف شهرة نادرة، ومهما فعل بعد ذلك ظل مجلس الشيوخ يسانده.

ليبلغ مبتغاه كان يحبذ أسلوب التأني والمهادنة، بخلاف قيصر الذي كان يحب أن يستولي على السلطة بحد السيف على طريقة **سولا**. طريقة لم يرتضيها **پومپيوس**. كان يتطلع أيضاً إلى أن يكون **ديكتاتوراً**، لكن برضى الشعب لا غصباً عنه. يريد أن يعرض عليه الحكم لا أن ينزعه بيده.

غير أن هوى الشعب لا يستقر على حال. شعر پومپيوس أحياناً أن شهرته تتراجع، بل، وهذا ما حز في قلبه، أن أناساً، كان يزدريهم، كسبوا عطف الشعب واستغلوه ضده[1].

عندها ارتكب ثلاثة أخطاء قاتلة:

لجأ إلى الرشوة أثناء الانتخابات. صرف أموالاً طائلة لكسب صوت كل ناخب.

دفع الغوغاء إلى التشويش على الولاة كلما أراد هؤلاء القيام بواجبهم، مراهناً على أن انتشار الفوضى يفضي إلى اليأس وفي النهاية إلى تنصيبه ديكتاتوراً.

وأخيراً تحالف مع **قيصر** **وكراسوس**. لذا قال **كاطون**: إن ما دمر الجمهورية هو تناصر الثلاثة لا تناحرهم. وبالفعل ساءت حال روما إلى حد أن الشقاق بين مواطنيها كان أقل خطراً على سلامتها من اتفاق كبرائها. وحدة مصالح هؤلاء هي التي حولت الحكم إلى استبداد.

ترك پومپيوس يوليوس قيصر يستغل بدهاء سمعته وحظوته لدى الشعب دون أدنى مقابل. بعد فترة وجيزة استعمل قيصر ضد زميله المغفل

---

(1) [49]. م م

العدة التي أمده بها. بل لجأ إلى نفس الدسائس التي سبقه إليها. أطلق في المدينة رجالاً يوقدون نار الفتنة وينثرون الرِّشا لتزوير الانتخابات. طلب من كل قنصل، من كل قاض، من كل نقيب أن يحدد بنفسه أي قدر من المال يريد وأداه إليه في الحين.

فطن الشيوخ لما يبيته **قيصر** فطلبوا من **بومبيوس** أن ينقذ الجمهورية، إن صح أن تسمى جمهورية دولة تستجدي الحماية من أحد مواطنيها.

أتصور أن اندحار بومبيوس يعود بالأساس إلى شعوره أنه ارتكب خطأ فادحاً، عندما جد لإعلاء شأن قيصر واستحيى أن يُرمى بالغباوة وسوء التقدير.

فكابر طويلاً حتى لا يقال إنه بتهاونه وضع نفسه في خطر. ردد مراراً أمام مجلس الشيوخ أن قيصر لن يجرؤ على إعلان الحرب حتى لم يعد يسعه تكذيب نفسه.

الظاهر أن أمراً عارضاً سهّل على قيصر تنفيذ مخططه، أعني التطابق في تسمية المنطقتين اللتين تفصل بينهما جبال الألب. كلتاهما تسمى **غاليا**، فيقال غاليا صدر الألب (Cisalpine) وغاليا ظهر الألب (Transalpine)[1].

قضت السياسة أن يظل جوار روما مجرداً من السلاح. وقضت كذلك أن لا تبقى إيطاليا من دون حراس. فتقرر حشد قوة مهمة في المنطقة الممتدة من **الروبيكون**، وهو نهر صغير في ولاية **رومانيا**، إلى سفوح الألب والتي تدعى غاليا السفلى. ولتفادي أي هجوم على قاعدة الدولة من أولئك الجنود اتخذ قرار سناتوري (مشيخي) لا تزال ألفاظه منقوشة على الصخر إلى يومنا هذا على الطريق الرابط بين **ريميني** و**سسينا** وهي:

(1) نسميها نحن غاليا السفلى وغاليا العليا.

من عبر **الروبيكون** ولو بكتيبة، ولو بجيش، ولو بفرقة، **فهو مجرم عاق قاتل** أصول، مخلد في النار[1].

ثم لهذه الولاية البالغة الأهمية، إذ تتاخم العاصمة، أضيفت أخرى أهم منها بكثير، هي غاليا العليا، التي تشمل النصف الجنوبي من فرنسا الحالية. الأمر الذي مكّن قيصر من محاربة من شاء من الشعوب طيلة سنين عديدة. شاب الجنود تحت إمرته، فكسب ولاءهم وملك قلوبهم بمقدار ما اجتاح من بلدان وأخضع من شعوب. لو لم يسند إلى قيصر حكم غاليا العليا لما توطدت وشائج المحبة والولاء بين الجنود وبين شخصه، لما زادوا تعلقاً باسمه كلما طار من نصر إلى نصر. لو لم تسند إليه قيادة غاليا السفلى لأوقفه **بومبيوس** بسهولة عند الجبل، في حين اضطر منذ انطلاق الصراع إلى مغادرة إيطاليا، فاقداً بذلك لنفسه ولحزبه الهيبة التي لا قوة ولا نفوذ بدونها أثناء حرب أهلية.

ما أن سمع سكان روما أن جنود قيصر اجتازوا الروبيكون حتى عمهم الرعب كما عم أجدادهم عندما تلقوا خبر فوز **هنيعل في وقعة قانه**. أسقط في يدي بومبيوس، فتصرف، مع أن الصراع كان لا يزال في بدايته، كما لو يئس من نفسه ومن كل من كان حوله. بدأ بالتراجع وانتهى بالفرار. غادر روما تاركاً الخزينة وما فيها. حاول أن يوقف زحف خصمه، ولما فشل زهد في قسم كبير من جنوده، بل في إيطاليا كلها واجتاز البحر.

كثر الكلام عن حسن حظ قيصر. كيف لرجل نادر، كثير المواهب، عديم النقائص، وإن شابت أخلاقه رذائل، أن لا ينتصر بأي جيش قاد، وأن لا يسود في أي نظام عاش؟

---

(1) أثبت المؤرخون أن هذا النقش غير أصلي.

قاتل أولاً أنصار **بومبيوس** في إسبانيا وهزمهم. ثم قصد اليونان متعقباً خصمه الذي كان يتحكم في الشواطئ ويرأس جيشاً أقوى بكثير من جيش قيصر. لو تأنى **بومبيوس** قليلاً لرأى جنود عدوه يهلكون جوعاً وتعاسة. لكنه كان مفتوناً بالإطراء في كل مناسبة، فلم يصبر على ما كان يسمع حوله من تلويحات ساخرة مثل: همه الوحيد البقاء على رأس هذه الجموع حتى يسمى مثل **أغاممنون** ملك الملوك، أو: احذروا، لن نذوق هذا العام أيضاً بواكر تين **توسكولوم**[1]. ثم فاز في مناوشات قليلة، اغتر بها مقاتلو الجيش السيناتوري فزاغوا عن رشدهم. لكي لا يذمه جيله أقدم بومبيوس على أمر ذمته وستذمه عليه كل الأجيال اللاحقة، أهمل ما لديه من عناصر التفوق وراح يقاتل بمجندين أغرار جيشاً محنكاً قاتل وانتصر في معارك لا تحصى.

انكسر جيش بومبيوس في معركة **فرساله**[2]. فانحاز ما بقي منه إلى أفريقيا بقيادة **شيبيون**. لم يستمع هذا **لكاطون** الذي نصحه بالمماطلة وتجنب المواجهات الفاصلة. اغتر ببعض الانتصارات، فخاطر بالكل وخسر الكل[3]. لما أعاد بروتوس وكاسيوس الروح للحزب الجمهوري، فشل الاثنان أيضاً بسبب التسرع. فضاعت فرصة ثالثة لإنقاذ النظام الجمهوري[4].

---

(1) [49]. م م

(2) جرت الواقعة سنة 48 ق.م.

(3) هذه الفرصة الثانية لإنقاذ الجمهورية بعد فشل بومبيوس، والفرصة الضائعة الثالثة هي التي أضاعها **بروتوس وكاسيوس** بعد اغتيال **قيصر**. لماذا هذا التسرع الذي يتسبب في الفشل العسكري وبالتالي ضياع الجمهورية؟ يقول مونتسكيو: كان ذلك قدراً مقدراً. راجع ما قلنا عن جبرية المؤلف في التقديم.

(4) يقول أبيان أن جيش **أوكتاف** ومارك **أنطوان** كان يهلك جوعاً لا محالة لو لم يبادره

يلاحظ القارئ أن روما أثناء كل هذه السنين من الحروب الأهلية واصلت توسعها. اقتتل **ماريوس وسولا**، **پومپيوس وقيصر**، **انطوان وأوكتاف**، ومع هذا ظل العالم يهاب اسم روما.

لا دولة أخطر على جيرانها من تلك التي تمزقها حرب أهلية، إذ يتحول فيها كل فرد، نبيلاً كان أو تاجراً أو صانعاً أو فلاحاً، إلى مقاتل. عندما يعود الهدوء ويعم الوفاق تتغلب بالضرورة دولة مقاتلين كهذه، على غيرها التي تمثل فقط دولة مواطنين، ثم أثناء الحرب الأهلية تبرز كفاءات تظل مغمورة إلى ذلك الحين. بمناسبة الفوضى الطارئة يفرض بعض الرجال مواهبهم فيتبوأون المكانة اللائقة بهم، بعكس الحاصل في الأيام العادية حيث يوضع كل فرد في مكان معلوم وغير مناسب له في الغالب[1]. إذا تركنا لحظة أخبار الرومان والتفتنا إلى التاريخ القريب نلاحظ أن فرنسا لم تكن أبداً قوية مهابة في الخارج إلا بعد نزاع آل **أورليان** وآل **بورغون** على السلطة، ثم بعد صراع الكاثوليك والبروتستانت، ثم بعد ثورة النبلاء على لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر بسبب استبداد الوزيرين **ريشيليو ومازران** عليهما. كما أن انجلترا لم تحظ أبداً بالاحترام الذي حظيت به أثناء حكم **كروميل** عقب سنين من المواجهة بين العرش والبرلمان. كما أن الألمان لم يتفوقوا نهائياً على الأتراك إلا بعد أن اجتازوا حروباً أهلية طويلة. كما أن الأسبان في عهد فيليپ الخامس، على إثر الانقسامات التي واكبت ما سمي بحرب الوراثة[2]، أبانوا عن شدة وتمرس على طرق الحرب أذهلت

العدو بالقتال. انظر [2ب ك 4]. م م

(1) هذا ما حصل بالضبط أثناء الثورة الفرنسية.

(2) الحرب على إرث عرش إسبانيا ومستعمراتها بين فرنسا وإسبانيا من جانب وباقي الدول الأوروبية الكبرى من الجانب الآخر. استمرت من 1701 إلى 1714

أوروبا. واليوم نرى الفرس، بعد أن مروا بحرب أهلية طاحنة، ينهضون من كبوتهم ويذيقون الأتراك العثمانيين مرارة الذل والهوان.

أخيراً انهارت الجمهورية، لا بسبب طموح بعض الأشخاص كما يقال عادة، بل بسبب طبيعة البشر الذين يزدادون رغبة في السلطة، كلما حازوا قسطاً منها، فيتطلعون إلى الكل بعد أن يستحوذوا على الجل. لو فكر **قيصر** و **پومپيوس** بفكر **كاطون** لفكر آخرون بفكرهما ولانهارت الجمهورية على يد غيرهما.

صفح قيصر عن جميع أعدائه ومدحه لذلك كثيرون، لكني أرى أن من يتظاهر بالحلم بعد أن يكون قد اغتصب كل شيء لا يستحق مثل هذا التنويه.

رغم ما قيل عن حزمه بعد انتصاره في معركة **فرساله** أظن أن **شيشرون** محق عندما يرميه بالتهاون. يقول في رسالة **لكاسيوس**[1] إن الشيوخ لم يكونوا يتصورون أن حزب پومپيوس سيستعيد قوته بهذه السرعة في إسبانيا وأفريقيا. لو توقعوا أن قيصر سيتلهى بالمناوشات في الاسكندرية لما هادنوه ولرافقوا **شيپيون** وكاطون إلى أفريقيا. نرى هكذا أن مغازلته **لكليوپاترة**، تلك المغازلة الخرقاء، جرّت عليه أربع حروب. وبما أنه لم يتحاش الحربين الأخيرتين كاد أن يبذر كل ما كسب على ساحة فرساله.

في بداية حكمه تقلد قيصر ولايات رومانية عادية، إذ الاسم، لا المسمى، هو ما يؤثر غالباً في النفوس. كما كانت شعوب آسيا تشمئز من لقب **قنصل** أو **پروقنصل**، كانت شعوب أوروبا تستثقل لقب ملك. في تلك

وتسببت في خراب الدولة الفرنسية لغرض عائلي أكثر منه وطني. من هنا نقد المؤلف المبطن للملك لويس الرابع عشر.

(1) [11ك 15]. م م

الأحقاب كان سكان الأرض يتفاءلون ويتشاءمون بألقاب حكامهم. حاول قيصر أن يدفع الرومان إلى تتويجه. بدأ يجس النبض أثناء حفل رياضي. ترك أحد أعوانه يضع تاجاً على رأسه، ولما لم يهلل الحضور لذلك تظاهر بعدم الرضى.

ثم أعاد الكرة بعدئذ[1]. لا أفهم كيف تخيل أن على الرومان أن يرضوا بالطغيان لكي يتحملوه كطاغية أو أن يعتبروا أنفسهم أحراراً في كل أفعالهم[2].

اجتمع يوماً مجلس الشيوخ ليكرم قيصر، فلم يعبأ بالقيام للحضور. عندها نفد صبر الجميع حتى الأكثر رصانة منهم.

لا إهانة فوق الاستخفاف بأعراف الناس والمتواتر في سلوكهم. حاول أن تقهرهم فقد يرون في المحاولة تعظيماً لقدرهم، أخرق عمداً عاداتهم فذاك في نظرهم علامة استصغار.

أبدى قيصر طوال الأعوام عداوته لمجلس الشيوخ. لكن بعد أن فقد هذا الأخير كل نفوذ وأصبح محل سخرية، ازدراه علانية. حتى صفحه عن خصومه من الشيوخ بدا ضرباً من الإهانة. فهم الناس أنه لم يعف عنهم بقدر ما أنف أن ينتقم منهم. وصل به الاستخفاف إلى حد أنه كان يحرر المراسيم السيناتورية ويوقعها باسم أول من يخطر على باله من أعضاء المجلس. يقول شيشرون: أسمع أحياناً أن قراراً وصل إلى سوريا أو

---

(1) عندما عزل نقباء الشعب. م م

(2) العبارة غامضة، يبدو أن مونتسكيو يستغرب تشبث قيصر بالشكليات في هذه المسألة. بما أنه استولى على السلطة بالسيف، لماذا لا يفرض ديكتاتوريته بنفس الطريقة؟ لا يوجد تعارض كلي بين ميول قيصر وميول پومپيوس كما أوحى بذلك المؤلف في الصفحات السابقة.

أرمينيا، وأنه اتخذ بناءً على مبادرة مني، مع إني لا أعلم شيئاً عنه. يشكرني بعض الأمراء على اقتراحي منحهم لقب ملك في حين أني أجهل أنهم ملوك، بل أنهم موجودون على وجه الأرض[1].

تصور لنا رسائل بعض رجالات ذلك العهد، المنسوبة كلها إلى شيشرون لأنه كتب بالفعل جلها[2]، حالة الإحباط واليأس التي شملت قادة الجمهورية بعد أن فاجأتهم هذه الثورة وتركتهم بلا حرمة بل بلا مسؤولية، لم يعد للشيوخ وظيفة محددة. إلى وقت قريب كانت كلمتهم نافذة في المعمورة كلها، وإذا بها لا تكاد تسمع حتى بين جدران مكتب رجل واحد. نلمس هذا الوضع الجديد في الرسائل المذكورة أكثر مما نجده في كتابات المؤرخين. طابع تلك الرسائل العفوية والصراحة وصدق المواساة، إذ كتبت في عهد لا يزال غضاً، لم يعرف بعد ذلك الاحتشام الذي لقّنته لنا تربيةٌ خادعة. ليست كرسائل معاصرينا التي تهدف بالأساس إلى التمويه، بل هي مصارحة بين أصدقاء يتقاسمون نفس الحزن ونفس الأسى.

لم يكن سهلاً على قيصر أن يحمي نفسه ممن تآمروا عليه وكلهم مناصرون له مستفيدون من نعمه[3]. الأمر مفهوم. انتفعوا كثيراً من انتصاراته، لكن بقدر ما كانت ثرواتهم تنمو كانوا يشاركون أكثر فأكثر شعور الناس بالضيم[4]. الرجل المعدم، بوجه ما، لا يهمه كثيراً في أي نظام يعيش.

---

(1) [11د ك 9]. م م

(2) [11 و 61]. م م

(3) **دسيموس بروتوس، كايوس كاسكا، ترابونيوس، توليوس قمبر، مينيتيوس باسيلوس**، هؤلاء كانوا أصدقاء قيصر المقربين. انظر [2 ب ك 2]. م م

(4) الكلام هنا ليس على البطانة التي تعلم حق العلم أنها تهلك بهلاك الطاغية، بل على الأنداد المساهمين في حكومة حرة. م م

زد على هذا مزاج ذلك العهد الذي تتحكم فيه نظرية عن حقوق وواجبات المواطن، نظرية سارية في كل الجمهوريات اليونانية والإيطالية، تبرىء ساحة كل من يغتال غاصب السلطة الشرعية. هذا حق ثابت في روما بعد طرد الملوك، له سوابق متواترة. تحرض الجمهورية أي مواطن على القيام بهذا الواجب، توليه أمرها مؤقتاً وتتبنى فعله التحريري.

ذهب **بروتوس** إلى حد القول لأصدقائه: لو عاد أبي من القبر لاغتلته ثانية[1]. تبين فيما بعد أن الطغيان لا ينتهي بموت الطاغية. فضعفت بالتدريج تلك العقلية. رغم هذا توالت المؤامرات ضد **أوكتاف** بداية حكمه.

في هذا الوضع يطغى حب الوطن على أية عاطفة أخرى. يحرف معنى الجريمة والفضيلة، لا يصغي إلا لداعي الثأر، لا يرى في الغاصب المواطن أو الصديق أو المحسن أو الوالد. كما لو انفصلت الفضيلة عن نفسها، بل ناقضت مفهومها، لترتفع إلى درجة أعلى. حتى الفعل الذي يستبشعه الطبع يعزى إلى مشيئة إلهية فيحمد.

الحق أن **قيصر** اغتال حكومة حرة كان يعيش في حماها! أي عقاب له سوى ما حدث؟ من يتساءل: أما كان في الإمكان مقاومته علناً أو محاكمته قضائياً، في الحقيقة يطالب قيصر بتبرير ما فعل؟[2]

(1) [11 هـ]. م م
(2) جريمة الديكتاتورية هي بالضبط انتفاء هذين المخرجين.

الفصل الثاني عشر

روما بعد اغتيال قيصر

تعذر إحياء النظام الجمهوري في روما، غداة اغتيال **قيصر**، إلى حد أن ما حصل أمر لم يُشاهد قط من قبل. ذهب الطاغية ولم تعد الحرية لأن أسباب غيابها لم ترتفع.

خطط المتآمرون للاغتيال فقط دون التفكير في رعاية وتحصين ما يترتب عنه من نتائج. بعد فعلتهم انحازوا إلى **الكابطول** وأغفلوا دعوة مجلس الشيوخ إلى الانعقاد. وفي الغد قام **لبيدوس**، الذي كان يروم بث الفوضى، واستولى بمساعدة رجال مسلحين على **الفوروم**[1]. فخشي قدماء المحاربين أن تسترد منهم المنح الهائلة التي أغدقها عليهم قائدهم المغتال. زحفوا على المدينة ودخلوها عنوة. عندها اجتمع المجلس واتخذ قرارين متناقضين. من جهة صادق على كل مرسوم أمضاه قيصر، ومن جهة ثانية عفا عن المتآمرين. فهدأت الأوضاع هدوءاً خادعاً.

كان قيصر، قبل اغتياله، يعد العدة لغزو بلاد الفرس. فعين مسبقاً الولاة لسنوات قادمة حتى يظل الحكم، طيلة غيابه، بين أيدي شيعته. فشعر أنصاره، بعد موته، بأنهم يملكون موارد كافية لفسحة من الزمن.

---

(1) الميدان الروماني.

بما أن مجلس الشيوخ صادق جملة على قرارات **قيصر**، دون الدخول في التفاصيل، وكلف بتنفيذها القنصلين القائمين، بادر **أنطوان**، بصفته قنصلاً، إلى الاستحواذ على دفاتر قيصر الشخصية. وبتواطؤ مع كاتبه الخاص، أدرج فيها كل ما أراد. فبدا قيصر بعد مماته أكثر طغياناً وتعسفاً مما كان في حياته. ما لم يكن ليقدم عليه بأي حال، تجرأ أنطوان عليه بلا تردد. المال الذي كان حريصاً عليه وزّعه أنطوان بسخاء، كل من أضمر سوءاً للجمهورية وجد اسمه مدرجاً في أحد الدفاتر مقروناً بمكافأة كبيرة.

ما زاد الطين بلة أن قيصر جمع أموالاً طائلة تحسباً للحملة الآسيوية وأودعها في معبد **أوپس**[1]. استولى عليها أنطوان، دائماً بدعوى تنفيذ ما جاء في الدفاتر، وتصرف فيها كما شاء.

اتفق المتآمرون أول الأمر على رمي جثة قيصر في نهر **التيبر**[2]، لو فعلوا ذلك لما عارضهم أحد، إذ عقب حادث مهول، يذهل الناس فيتغاضون عما يخالف أعرافهم. أحجم المتآمرون فحصل ما يلي:

رأى الشيوخ من واجبهم الموافقة على إقامة جنازة رسمية لقيصر. هذا حق لا نزاع فيه إذ لم يقرروا أنه كان طاغية. من شرائع روما القديمة، والتي يثني عليها كثيراً **پوليب**، ان ترفع أثناء الجنازة صور أجداد الميت ويتلى على قبره رثاء. تكلف بذلك أنطوان ناشراً قميص قيصر الملطخ بالدم[3]، ثم قرأ نص الوصية التي تعدد الهبات العريضة المخصصة للشعب. فألهب مشاعر الحضور الذين قصدوا في الحين مساكن المتآمرين وأضرموا فيها النار.

---

(1) إلهة الخير والنعيم.

(2) هناك سابقة الولي **لوكريتيوس** الذي تخلص بنفس الطريقة من جثمان **تيبريوس غراكوس**، فلقب لذلك بنابش القبور. انظر [7 ج]. م م

(3) يذكر هذا بما فعله معاوية بقميص عثمان.

يعترف **شيشرون،** الذي قاد مجلس الشيوخ أثناء هذه الحوادث، أن النهج الأسلم لهؤلاء كان في إظهار حزم أكبر، حتى لو أدى ذلك إلى المخاطرة بحياتهم. لولا، يقول مستدركاً، أن اجتماع المجلس جاء متأخراً على كل حال[1]. لهذا العذر وجه يدركه من يعلم أن التوقيت أهم شيء في حال هيجان شعبي.

ثم عرض عارض أثر كثيراً في مجرى الأحداث. فأثناء ألعاب أقيمت تكريماً **لقيصر** طلع في السماء شهاب بذنب طويل. حصل ذلك سبعة أيام متتالية. فأيقن الشعب أن روح قيصر تستقبل بين الآلهة.

اعتادت شعوب اليونان وآسيا تشييد معابد يخلدون بها ذكرى ملك أو حتى قنصل تولى أمرها[2]. تغاضى الرومان عن هذه العادة لما فيها من دلالة على الخضوع والطاعة. ثم إن الرومان أنفسهم كانوا يكرمون أسلافهم في مخادع منزلية أو في معابد خاصة. لكنني لا أعلم أياً منهم، من عهد **رومولوس** إلى أيام قيصر، رفع بعد وفاته رسمياً إلى درجة إله[3].

تمت القرعة على توزيع الولايات، فخرجت مقدونيا من نصيب **أنطوان** الذي كان، لسبب جلي، يفضل أن يحكم **غاليا**. وكانت غاليا السفلى بيد **دسيموس بروتوس** الذي رفض أن يسلمها إليه. فقرر أنطوان نزعها منه بالقوة. وهكذا تجددت الحرب الأهلية بعد أن صوت مجلس الشيوخ ضد أنطوان وأعلن أنه عدو للوطن.

كان شيشرون يبغض أنطوان، فقرر، نكاية فيه، أن يعلي من شأن

---

(1) [11 هـ ك 14 رسالة 16]. م م

(2) [11 هـ ك 5 وتعليقات القس دومونغو]. م م

(3) كل من الثلاثي: **أنطوان/ أوكتاف/ لبيدوس،** كان يتطلع إلى خلافة قيصر، فشجع هذا الإسراف في التمجيد. انظر [18 ك 47]. م م

أوكتاف. وهو اختيار سيء من أوجه عدة. عوض أن يتناسى الرومانيون قيصر، جاء هذا القرار ليضع تحت أنظارهم شخصاً يذكرهم به باستمرار.

ثم إن **أوكتاف** كان ذكياً جداً في تعامله مع **شيشرون**: تملق إليه، مدحه، استشاره، لجأ إلى كل الحيل المجربة التي قل أن يحترس منها إنسانٌ مغرور بطبعه.

كثيراً ما تفشل أجود المخططات لسبب تافه، هو أن أصحابها لا يكتفون بإنجاحها بل يودون بجانب ذلك تحقيق مكاسب شخصية تدغدغ كبرياءهم وتزيدهم اعتزازاً بأنفسهم.

أعتقد أن **كاطون**، لو لم يسارع إلى الانتحار، لو بقي على قيد الحياة لخدمة الجمهورية، لوجه الأحداث في سبيل غير الذي صارت فيه روما. كانت لشيشرون مواهب عديدة، لكن من التي تؤهل المرء ليلعب دور المساعد لا دور القائد. عقله رفيع، نفسه دنيئة. الفضيلة عنده لاحقة لا سابقة، تماماً كما كانت الشهرة بالنسبة لكاطون[1]. في كل حادثة يرى شيشرون نفسه، وكاطون الآخرين. هذا يريد انقاذ الجمهورية لتعيش وذاك ليفتخر أنه أنقذها.

أتابع المقارنة فأقول: كاطون يستشرف الوقائع، شيشرون يتهيبها. الأول كله تطلع، والثاني كله ركون. هذا يرى الأحداث بتجرد، وذاك من خلال أهواء حقيرة.

هزم **أنطوان** في معركة مودنة حيث لقي القنصلان **هيرتيوس وپانصا** حتفهما، فتوجه مجلس الشيوخ، ظناً منه أنه في موقع قوة، إلى النيل من

(1) "كان يود أن يجسد الفضيلة لا أن يتظاهر بها، لذلك طاردته الشهرة بقدر ما كان يتجنبها" [55ب]. م م

مكانة **أوكتاف**. عندها كف هذا الأخير عن معاكسة **أنطوان**، بل قصد روما ونصب نفسه قنصلاً.

هذا ما جناه **شيشرون** على الجمهورية، هو الذي افتخر أن جبته[1] وحدها فرقت جيوش أنطوان. أبعد عدواً وعوضه بآخر أخطر منه، بسبب اسمه المقدس عند العامة وحقوقه الأكثر ثبوتاً، ظاهرياً على الأقل[2].

التحق أنطوان، بعد هزيمته، **بغاليا العليا** حيث استقبله **لپيدوس**. ثم تحالف الاثنان مع أوكتاف. كل واحد من هؤلاء انتقم، قتلاً ومصادرة، من أعدائه، وترك حليفيه ينتقمان من أنصاره. فشمل التنكيل الجميع[3]. أقام لپيدوس في روما، فيما اشتغل الآخران بمطاردة قاتلي قيصر، **بروتوس وكاسيوس**. تم اللقاء على الساحة التي حسم فيها ثلاث مرات النزاع على سلطان الدنيا.

خسر بروتوس وكاسيوس المعركة[4] فبادرا بالانتحار، أمر يصعب علينا اليوم فهمه.

عندما نرى بأي يُسْر تخلّى عن الجمهورية أنصارها، لا يسعنا إلا أن نندب حظها. **كاطون** على الأقل انتحر في خاتمة المأساة. أما قاتلا قيصر فإنهما، بصفة ما، افتتحاها بالانتحار.

هذا الميل إلى الانتحار، المستشري بين الرومان، يعود إلى أسباب عدة. أولها انتشار الفلسفة الرواقية التي تحث عليه. الثاني ما ينتظر المغلوب من

---

(1) اللباس السيناتوري.

(2) كان وارث قيصر الشرعي وولده بالتبني. م م

(3) بلغ الانتقام حد الجنون إذ أجبر كل من حكم عليه بالنفي أن يحتفل بالحكم وإلا استبدل النفي بالإعدام. [18]. م م

(4) جرت المعركة في **فيليپا**، مقدونيا، سنة 42ق.م.

استرقاق وعرض في موكب الغالب أثناء حفل النصر. الموت أهون على كل نفس أبية من هذه المهانة. السبب الثالث ميزة قانونية إذ جنازة المنتحر تحترم ووصيته تنفذ[1]. الرابع أنفة خاصة بالرومان، وفيما أعتقد، أشرف من التي تدعونا اليوم إلى الفتك بصديق لكلمة فاه بها أو فعل صدر منه. الخامس جنوح طبيعي إلى تشخيص دور بطولي. كل واحد يمثل مسرحية على خشبة الكون ويضع حداً لها متى أراد[2]. يمكن إضافة سبب أخير هو يسر التنفيذ. النفس المنشغلة بما تفعل، بالحافز عليه، والخزي الذي تود تفاديه، تغفل عن ألم الموت، إذ الهوى المسيطر عليها يجعلها تشعر بالأمر دون أن تراه فعلاً.

إن حب الذات، الغريزة التي بها نحافظ على نفسنا، تكتسي ألواناً جد مختلفة وتعمل بحسب مبادئ جد متباينة. نضحي بالذات شغفاً بها، نعلي من قدر ذاتنا إلى حد أننا نقبل أن تفنى. نستجيب لغريزة غامضة نقدم بموجبها حب الذات على الحياة[3].

(1) (الذين يقتلون أنفسهم تكرم جنائزهم وتنجز وصاياهم: لهم إذاً فائدة في استباق الموت) انظر [63ب ك 6ف 35]. م م

(2) لو كانت عقيدة ملكي انجلترا تشارلز الأول وجيمس الثاني تسمح لهما بالانتحار لما انتظر الأول الإعدام والثاني حياة بئيسة في المنفى. م م. فقرة لا توجد في كل النسخ.

(3) نقرأ في بعض النسخ فقرة ختامية تقول: لا شك أن الإنسان عاد أقل حرية وشجاعة وتجرؤاً على المغامرات العظيمة مما كان في السابق عندما كان يستطيع في أية لحظة باستخدام سلطته على نفسه الانعتاق من أية سلطة أخرى.

واضح من هذه الفقرة المحذوفة من نسخ كثيرة أن مونتسكيو، كغيره من مفكري القرن الثامن عشر الأوروبي، كان أقرب إلى الأخلاقية الرواقية منه إلى العقيدة المسيحية. أو بعبارة أخرى أنه لا يقبل من المسيحية إلا ما يوافق الفلسفة الرواقية.

الفصل الثالث عشر

أوغوست

كان سكستوس پومپيوس[1] مسيطراً على جزيرتي صقليا وسردينيا، وكذلك على البحر، يسانده عدد كبير من الفارين والمنفيين الذين كانوا يكافحون من أجل الحياة. قاد ضدهم **أوكتاف** حملتين شاقتين. وبعد معارك لم ينل في أي منها نصراً محققاً، تمكن من التخلص منه بفضل حنكة مساعده **أغريپا**[2].

أما المتآمرون على قيصر فعرفوا كلهم تقريباً نهاية بئيسة[3]. لا غرابة أن يقتل شر قتلة من تزعم حزباً انهزم مراراً أثناء حروب لا ترحم. الأمر طبيعي، لكن المعاصرين رأوا فيه يداً ربانية، انتقاماً لقيصر وتسفيهاً لآراء خصومه.

جرد أوكتاف **لپيدوس** من جنوده باستمالتهم إليه ثم طرده من الثلاثي الحاكم. لم يتركه يعيش عيشة رجل مغمور، بل أرغمه على المشاركة في مداولات محفل الشعب كأحد العامة.

---

(1) نجل **پومپيوس** الكبير توفي سنة 35 ق.م.

(2) قائد عسكري موهوب عاش من 64 إلى 12 ق.م.

(3) تماماً كما حصل في انجلترا للبرلمانيين الذين أدانوا الملك تشارلز الأول. لا يمكن أن يقدم المرء على فعلة من هذا النوع من دون أن يستعدي ضده أناساً كثيرين ومن دون أن تحيط به الأخطار من كل جانب. م م

هذه إهانة ينشرح لها الصدر لأن الرجل كان أميل الناس إلى الشر. كلما سنحت فرصة سبق غيره إلى إثارة الفتنة. لا ينفك يحيك الدسائس منتدباً إلى تنفيذها من هو أحذق منه. طاب لأحد المعاصرين أن ينتصر له بدعوى أن **أنطوان**، في إحدى رسائله، وصفه بالمروءة، لكن المروءة بمفهوم أنطوان، هي بدون شك غير ما تعارف عليه الجمهور.

أظن أن **أوكتاف** هو القائد الروماني الوحيد الذي تعلق به جنوده رغم ما كانوا يرون فيه كل يوم من جبن. لكن جندي ذلك الزمن كان يفضل أن يكون قائده سخياً على أن يكون شجاعاً. لربما كان من حسن طالع أوكتاف أن تنقصه تلك الخصلة التي تودي عادة بصاحبها إلى اعتلاء العرش، إذ في هذه الحال لم يحذره أحد. لا أستبعد أن يكون هذا السلوك المشين هو بالضبط ما قاده إلى الحكم. لو ظهر منذ البدء بمظهر الشهم الشجاع لاحتاط منه الجميع. لو كان حازماً مقداماً في أولى خطواته لما ترك لأنطوان الوقت الكافي ليرتكب الحماقات التي دفعته إلى الهاوية.

وعد أنطوان جنوده، وهو يستعد لمواجهة أوكتاف، أنه يحيي الجمهورية شهرين بعد انتصاره. انظر إلى هذا الجيش كيف يقوض بتصرفه كل يوم أركان الوطن، وفي نفس الوقت يبدي تعلقه بالحرية. لكن هل توجد مؤسسة بشرية أقل تبصراً من الجيش؟

حسم النزاع أثناء معركة **أكتيوم**[1]. لجأت **كليوپاترة** إلى الفرار وبذلك جرت الهزيمة على خليلها أنطوان. من المحقق كذلك أنها خانته لاحقاً[2]. الغنج غريزة عجيبة في النساء. لا غرابة أن تتطلع كليوپاترة إلى امتلاك قلب ثالث رجل ساد المعمورة[3].

---

(1) سنة 31 ق.م.

(2) [18 ك1]. م م

(3) أوكتاف بعد أنطوان ويوليوس قيصر.

من أجل امرأة خانته في آخر المطاف ضحى **أنطوان** بكل شيء. كم من قائد توّج؟ كم من ملك رفع شأنه وملأ خزينته؟ كلهم أعرضوا عنه. لم يصمد معه صمود الأبطال إلا شرذمة من **مجالدي** السيرك، كما لو كان الوفاء قرين العبودية. تُحسن إلى المرء فيصبح همه الوحيد حفظ ما كسب، كما لو أودعته كنزاً وأقمته حارساً عليه.

الغريب في حروب الماضي أن معركة واحدة غالباً ما كانت تحسم النزاع. لا نهوض بعد هزيمة. ذلك أن الجندي الروماني لا يعرف الولاء لحزب، يقاتل لفائدة شخص لا لصالح فكرة. لا يرى سوى القائد الذي يصطنعه بكثرة الوعود والإغراءات. إن انهزم ولم يعد قادراً على الوفاء بما وعد انحاز الجندي في الحين إلى غيره. كذلك حال الأقاليم. لا يتحمس السكان لأي فريق. لا يهمهم كثيراً أي الحزبين، الأرستقراطي أو الديمقراطي، يخرج منتصراً. متى سقط رئيس أحد الفريقين سارعوا إلى الانضمام إلى الآخر[1]. همّهم الأول إبراء ذمتهم في عين الغالب إذ يعرفون أنه وعد جنوده بمغانم كثيرة، وأنه لا محالة يطلق أيديهم في المناطق التي تظل وفية لخصمه.

شهدنا في فرنسا نوعين من الحروب، حروب اتخذت الدين ذريعة فطالت لأن الباعث عليها يظل قائماً أياً كان الفائز، وحروب سببها تهور أو طموح بعض الكبراء، فهذه خمدت بعد مدة قصيرة.

عكف **أوكتاف**، الذي لقّب تملقاً **بأوغوست** أي المقدس، على استتباب الأمن، أي الانقياد التام والدائم. غاصب السلطة في دولة حرة يسمي كل ما يدعم سلطانه نظاماً، وينعت بالفوضى أو الشقاق أو سوء التدبير كل محاولة ترمي إلى تقوية ما بقي من الحريات.

---

(1) لم تكن في المدن حامية تضبط الأوضاع، إذ كان الرومان يعتمدون على الجيش وعلى المستوطنات. م م

في ظل الحكم الجمهوري تعمد أصحاب الأطماع مثل **بومبيوس** وكراسوس وقيصر بث الفوضى، فنجحوا أيما نجاح. كل من تطاول على السلطة العمومية أنقذوه من العقاب، كل قرار يحدّ من فساد الأخلاق أبطلوه، كل هيئة تضمن الأمن والاستقرار ألغوها. الولي الفاضل يدعو الناس إلى الفضيلة، أما هم فدعوا الناس إلى الشر. عمّموا الرشوة، من اتهم بها لجأ إليها لافحام القاضي[1]. شوشوا على الانتخابات بتحريضهم الدائم على العنف. إذا مثل أحد المشوشين أمام الحكام عمد إلى التهديد والتخويف. بذلك انهارت سلطة الشعب كلياً. أكبر دليل على هذا الأمر تصرف **غابينيوس**[2] الذي نقض قرار محفل الشعب وأعاد بالقوة **بطولموس** إلى الملك، ثم عاد إلى روما وطالب بكل وقاحة أن يُكرم بحفل نصر[3].

كان هدف هؤلاء، في ظل الجمهورية، تنفير الشعب من صلاحياته. ضخموا مساوئ النظام حتى يقتنع العموم بضرورة الاحتماء بهم وتفويض الأمر لهم، لكن عندما استقل **أوغوست** بالحكم ولم يعد له منافس، أصبح الهدف إعادة النظام لكي يعترف الجميع بمحاسن الاستبداد.

طوال الحرب الأهلية كان أوغوست يخشى تمرد العسكر، لا مؤامرات المواطنين. لذلك تسامح مع أولئك وقسا على هؤلاء. لما عاد السلم راح يخاف المؤامرات، واضعاً دائماً نصب عينيه مأساة قيصر. وحتى لا يعرف نفس المآل قرر أن يعاكس، في كل نازلة، قرارات قيصر. هذا هو السر في كل ما فعل. لم يحضر أبداً اجتماعات مجلس الشيوخ من دون أن

---

(1) [88 هـ]. م م

(2) نقيب الشعب ثم قنصل. ناصر قيصر وتوفي سنة 48 ق.م.

(3) حارب قيصر الغال وهاجم كراسوس الفرس قبل أن ينظر مجلس الشيوخ في الأمر أو يتخذ محفل الشعب قراراً. انظر [18]. م م

يرتدي تحت الجبة ذرعاً واقية. لم يقبل لقب **ديكتاتور**. لم يصرح أبداً مثل **قيصر** أن الجمهورية كلمة جوفاء وأن أمره وحده قانون. بل مجد باستمرار مجلس الشيوخ وأعلن احترامه الدائم للجمهورية. استهدف إذاً نظاماً يساير رغبات الشعب من دون أن ينتقص شيئاً من سلطته هو. فاهتدى إلى حكم أرستقراطي في وجهه المدني وملكي في وجهه العسكري، حكم مزيج، ملتبس يستمر ما أراد له الاستمرار صاحب الأمر، في الحقيقة حكم سلطاني بكل معنى الكلمة.

قال في مناسبات عدة إنه يود التنازل عن الحكم. تساءل الكثيرون هل كان صادقاً في دعواه؟ واضح لكل عاقل أنه لو أراد فعلاً أن يتنازل لما استطاع أحد ردّه عن ذلك. الواقع أنها مجرد مسرحية. الدليل هو أنه أبدى نفس الرغبة على رأس كل عقد من الزمن، ومع ذلك ظل يقود الدولة حتى وفاته. تلك كانت حيلة مكشوفة الغرض منها توسيع صلاحياته التي كانت تبدو له دائماً غير كافية. أستند في قولي هذا إلى منحى حياته كلها. صحيح أن أطوار البشر غريبة صادمة، لكن من النادر جداً أن يفرّط المرء في أمر تمناه طول حياته. أفعال **أوغوست**، قراراته، كل ذلك يشير إلى مسعى واحد: إقامة حكم ملكي. تنازل **سولا** عن الديكتاتورية، لكن سولا، حتى عند ارتكابه أفظع الجرائم، ظل جمهوري الهوى. قراراته تعسفية عند التطبيق لكن الباعث عليها إحياء النظام الجمهوري بشكل ما. سولا، رجل حادّ المزاج، كان يدفع روما بعنف في سبيل الحرية. أما أوغوست، الطاغية[1] الماكر، فقادها بلين إلى العبودية. تحت حكم الأول

---

(1) استعمل اللفظ هنا بمفهوم اليونان والرومان، أي الشخص الذي ينقلب على حكم الشعب. م م

كانت الجمهورية تتماثل للشفاء والكل يندد بالطغيان، وفي قبضة الثاني كان الطغيان في تنامٍ والكل لا يلهج إلا بالحرية.

في عهد **أوغوست** تم التخلي عن **حفلات النصر** التي ساهمت كثيراً في ترسيخ عظمة روما في أذهان مواطنيها. لم يعد الحفل حقاً مكتسباً لكل قائد انتصر في معركة، بل عاد نعمة يتفضل بها عليه صاحب الأمر[1]. هذه نقطة يجب التوقف عندها، لأنها تظهر جلياً أن الكثير مما جدّ تحت الحكم الامبراطوري انبثق عن نواة كانت موجودة في العهد الجمهوري[2]. أيام الجمهورية لا يطالب بحفل النصر إلا من أخذ فال الحرب باسمه[3]. بعد أن اسندت قيادة كل الجيوش للامبراطور، أصبح الفال يؤخذ دائماً باسمه وبالتالي أضيف كل انتصار إليه.

بما أن الجمهورية تعمدت مواصلة الحرب، التزمت الامبراطورية برعاية السلم. بدا كل نصر مقلقاً إذ يبعث في نفس الجندي الفائز أمل مكافأة باهظة.

كما عاد قواد الجيش يتحاشون المشاريع الكبرى. حدوا من مطامحهم حتى تظل انجازاتهم في مستوى يلفت انتباه الأمير من دون أن يثير في نفسه الغيرة. حرصوا على أن لا يظهروا أمام مولاهم بهالة تغشى البصر.

---

(1) لم يعد الفائز يكرم إلا بزينة خاصة. انظر [18]. م م

(2) تغيرت أوضاع الرومان لأسباب ذاتية وليس عقب غزو خارجي، فظلت عاداتهم على حالها وكذلك صورة الحكم. م م

(3) يقول **دوني هاليكارناس** أن القائد **أغريبا** أغفل، تواضعاً، أن يذكر حملته ضد شعوب البوسفور أمام مجلس الشيوخ، وإنه اعتذر عن إقامة حفل النصر له. بعد ذلك لم يكرم أي قائد من مرتبته. الواقع أن ما عرض على أغريبا كان التفاتة تقدير واكرام من جانب أوغوست، شيء لم يفعله **أنطوان** في حق **فنتيديوس** بعد فوزه الأول على الفرس. م م

تحفظ **أوغوست** كثيراً أثناء ولايته في أمر منح حق المواطنة لغير الرومان[1]. كما اتخذ عدة قرارات[2] تعرقل تحرير العبيد[3]. وأخيراً نصح في وصيته أن يتبع خلفاؤه سياسته في هاتين المسألتين، وأن يمتنعوا عن غزو أرض جديدة بهدف ضمّها إلى الامبراطورية.

هذه أمور ثلاثة مترابطة: الحدّ من التوسع يستتبع حتماً الامساك عن منح المواطنة، والكف عن تحرير الرقاب.

لما كانت روما تقاتل باستمرار، كانت دائماً في حاجة إلى المزيد من السكان. في البدء كلما انتصرت على شعب، أرغمت قسماً منه على أن يرحل ويقيم في العاصمة. بعد ذلك حل بها طوعاً بعض سكان المدن المجاورة رغبةً منهم في التمتع بحق التصويت. كثر عددهم أحياناً إلى حدّ أن اشتكى من الأمر رؤوساؤهم. فاضطرت روما إلى ردهم إلى أوطانهم. وأخيراً قصدها الناس من مختلف الآفاق. كان القانون الروماني يشجع على تزاوج السكان الأصليين بالنازحين، وأحياناً يفرضه. أثناء حروبها المتواصلة تجمّع لدى روما عدد هائل من الرقيق. وبعد أن عمّ الثراء بين سكانها اشتروا الرقيق من كل الأصقاع. ثم أعتقوهم بكثرة[4] بدافع الكرم أو البخل أو العوز. ذلك أن البعض أراد مكافأة مملوك وفي، والبعض أن يتلقى باسمه القمح الذي توزعه الجمهورية على المعوزين، والبعض الآخر أن يكثر من حاملي قبعات الزهور أثناء جنازته[5]. وهكذا بعد حين أصبحت

(1) [59: سيرة أوغوست]. م م

(2) [59: سيرة أوغوست]، [33هـ ك 8]. م م

(3) [18]. م م

(4) [15 ك 4]. م م

(5) عادة خاصة بقدماء الرومان.

دهماء روما مكونة تقريباً كلها من الموالي[1]. فصح القول إن جل الرومان، أسياد الدنيا، هم من نسل الرقيق، ليس فقط في البداية بل طوال تاريخهم.

ارتفع عدد الفقراء، خاصة من الموالي وأبناء الموالي، فاختل النظام. تقرر إذاً إنشاء مستوطنات تأويهم وفي نفس الوقت تضمن ولاء الأقاليم. بذلك نشأت شبه دورة: تستقدم روما سكان الأرض رقيقاً ثم بعد حين توفدهم مواطنين روماناً.

أثناءأحد التجمعات الانتخابية في روما حصل بعض الشغب، فاغتنم الفرصة **أوغوست** وعين على رأسها والياً كما أقام فيها حامية. ثم جعل من كتائب الجيش هيئات دائمة أرسلها إلى الحدود، وخصص لها مداخيل محددة تسدّ حاجياتها. أخيراً قرر أن يكافئ قدماء المحاربين نقداً لا باقطاعات زراعية[2]. هذا الاقطاع، منذ أن سنّه **سولا**، خلف أضراراً كثيرة. لم تعد ملكية المواطنين مضمونة. ثم إذا لم يظل الجنود مجتمعين في مستوطنة واحدة[3] سئموا حياة الفلاحين، تركوا الأرض بوراً ومالوا إلى المشاغبة[4]. لكن، في المقابل، إذا ظلوا مجتمعين، إذا وزعت الأرض على الكتائب، لا على الأفراد، وجد كل طامع جيشاً جاهزاً يثب به على الجمهورية.

أنشأ أوغوست ملاجئ قارة للبحرية. أمر لم يعرفه الرومان من قبل، كما لم يكن لهم عهد بتقسيم جيش المشاة إلى فرق قارة. كلّف الأسطول

(1) [63 ب ك 13ف 27]. م م

(2) يتقاضى جندي الحرس الأميري خمسة آلاف درهم، ألفين بعد ست عشرة سنة من الخدمة والثلاثة المتبقية عند اكتمال العشرين. انظر [18]. م م

(3) على الأقل عُشر كتيبة أي ستمائة جندي.

(4) [63 ب ك 14] حول ما حصل في مستوطنتي **تارنتا وأنتيوم**. م م

بخفارة المراكب، بتأمين المواصلات بين أجزاء الامبراطورية. فتمت للرومان السيطرة على البحر المتوسط، مركز الملاحة آنذاك، ولم يعد لهم عدو يخشونه.

لاحظ **ديوكاسيوس** بحق أن تدوين التاريخ أصبح أمراً عسيراً في ظل الحكم الامبراطوري. كل خبر عاد سراً محفوظاً والبريد القادم من الأقاليم أصبح يوجه مباشرة إلى مكتب الامبراطور. فلا يصل إلى علم العموم إلا ما أراد الطاغية، عن تهور أو جسارة، إفشاءه، أو ما خمّنه الرواة.

الفصل الرابع عشر

تيبار(يوس)

نرى النهر ينبش يوماً بعد يوم الحواجز المقامة على ضفتيه لحماية الحقول المجاورة، ثم بغتة يحطمها وفي رمشة عين يغمر كل شيء حوله. كذلك فعلت السلطة المطلقة التي تمتع بها أوغوست. نخرت الجسم الروماني دون وعي من أحد. ثم هاجت عندما تولى الحكم تيبار وحطمت بعنف كل حاجز.

كان يوجد قانون يدعى قانون الحُرمة يعاقب بمقتضاه كل من مس، بشكل أو بآخر، هيبة الشعب الروماني. تمسك به تيبار وطبقه، لا في الحالات التي وضع من أجلها، بل للتنكيل بمن كان يبغضه أو يخشاه. لم يؤاخذ به الأفعال وحسب بل الأقوال والإشارات وحتى الهواجس، إذ ما يناجي به الصديق صديقه هاجس لا غير. عندها اختفت الصراحة في الولائم، انعدمت الثقة بين الأهل والأقارب، عز الوفاء لدى الخدم والأتباع. ما جبل عليه تيبار من كآبة وتكتم عمّ المجتمع. بدت للناس الصداقة عبئاً والصراحة طيشاً والفضيلة تكلفاً يثير في الأذهان ذكريات ماض سعيد.

شر طغيان ذاك الذي يمارس في ظل القانون وتحت رداء العدالة. في هذه الحال، إن صح التعبير، يغرق الشقي باللوح الذي يتمسك به.

لم ير التاريخ أبداً طاغية افتقر إلى مساعد ومساند. لذا وجد **تيبار** قضاة على أتم الاستعداد لإدانة كل من يتهمهم الأمير مهما كثر عددهم. في العهد الجمهوري لم يكن مجلس الشيوخ يفصل كهيئة قضائية في مسائل الخواص. لكنه، بتفويض من محفل الشعب، كان ينظر في التهم الموجهة إلى حلفاء روما. فقرر تيبار أن يكلفه بالنظر في تهم المس بحرمة روما المجسدة في شخصه. وبعد أن سايره الشيوخ ولم يعارضوا أي مطلب له انزلقوا إلى خسة لا توصف. رضوا بالدناءة والطاعة العمياء. حتى أكابرهم تملقوا للوزير **سيان**(وس)[1] وتحولوا إلى مخبرين عن زملائهم.

أرى لهذه الدناءة العامة أسباباً كثيرة. منها أن **يوليوس قيصر**، لما قضى على منافسيه أنصار الحكم الجمهوري، تسابق جميع الشيوخ، الأصدقاء والأعداء على حد سواء، إلى إلغاء كل قانون يحدّ من سلطانه. تغالوا جميعاً في عبارات التعظيم والتشريف، الأصدقاء ارضاءً له والخصوم مكراً به. بل ذهب بعضهم، بحسب شهادة **ديوكاسيوس**، إلى أن اقترحوا أن يسمح له بمضاجعة من أراد من النساء. هذا الخنوع هو ما أغراه بعدم الاحتراس حتى قتل في رحاب المجلس. لكن بعد هذا الذي حدث لم يعد لأحد ممن جاء لاحقاً أن يستنكر أو يستبشع شيئاً، إذ كل ما يمكن أن يخطر في الذهن، مهما بلغ من القبح والفظاعة، كانت له سابقة تبرّره بوجه ما.

من جهة ثانية، قبل أن يستأثر بالحكم رجل واحد، كان الأعيان يملكون ثروات هائلة جمعوها بوسائل شتى، مشروعة وغير مشروعة. فهذه الثروات، مهما يكن مصدرها، ضاعت منهم كلياً في العهد الامبراطوري.

(1) حكم الامبراطورية باسم تيبار إلى أن شعر هذا الأخير بطموحه المفرط، فتخلص منه بعد أن أدانه مجلس الشيوخ سنة 31 م.

تخلت عنهم تلك الجموع الغفيرة من الأتباع الذين كانوا يغرقونهم كل يوم بالهدايا. أما نهب الأقاليم فعاد يوجه رأساً لبيت مال الامبراطور، لا سيما بعد أن عين موفدين عنه يقومون بما يقوم به عمّال اليوم. قلّت الموارد إذاً، فيما ظلت التكاليف على حالها، إذ لم يتغير شيء من أسباب العيش. أين العوض إن لم يكن من تبرعات الأمير؟

هناك سبب آخر هو أن أوغوست كان قد جرّد محفل الشعب من حق سنّ القوانين ومن الفصل في الجرائم ضد الدولة، لكنه ترك له، ظاهرياً على الأقل، حق انتخاب الولاة. عندما جاء تيبار الذي كان يخشى حشود الشعب نزع منه هذا الحق ليسنده للشيوخ أي لنفسه[1]. قلّ من يدرك إلى أي حد ترتبط شهامة الأشراف بنفوذ الشعب وكم تتراجع الأولى باضمحلال الثانية. العلة هي هذه: لما تكون التوليات بيد الشعب يتقرب إليه الطامعون فيها، لكن عن طريق الكرم والسخاء. يقيمون الولائم والألعاب، يوزعون الأموال والأقوات. الهدف ذميم لكن الوسيلة إليه نبيلة قدراً ما، إذ يليق بالشريف أن يصطنع الشعب بالهبات والعطايا. أما بعدما لم يعد بيد الشعب ما يعطيه، وأصبح الأمير هو المتحكم، باسم مجلس الشيوخ، في كل الوظائف والخطط، عندها لجأ الناس، للوصول إليها، إلى أخس الوسائل: التملق، هتك الأعراض، وحتى الجريمة. لم يعد بد لكل امرئ طموح من أن يطرق هذه المسالك.

بيد أن تيبار، على ما يبدو، لم يتعمد إذلال الشيوخ. أكبر شكواه كان من إقبالهم الحثيث على سبل الذل والمهانة. لم ينفك طيلة حكمه يعبر عن اشمئزازه من هذا السلوك المشين. لكنه، كسائر البشر، كان يريد الأمر وضده.

(1) [63 ب ك 1]، [18 ك 54]. م م

سياسته كانت في واد ورغباته في واد. ودّ لو وجد بجانبه مجلساً موقراً حراً يضفي الحرمة على حكومته، وفي نفس الوقت كان يتطلع إلى أن يجاريه في كل نزواته، يخشى من يخشى، يغار ممن يغار، يعادي من يعادي. بالجملة كان هوى الإنسان فيه يغلب باستمرار منطق السياسي رجل الدولة.

قلنا سابقاً إن الشعب فرض على النبلاء أن يعين ولاة منه يحمونه من كل ضيم أو ظلم. لهذا الغرض مُنح أولئك الوكلاء حصانة، بل قداسة أدت إلى قرار أن كل من أساء معاملة أحد منهم، قولاً أو فعلاً، يقتل فوراً. لكن الامبراطور هو نقيب الشعب بامتياز، ينطبق عليه إذاً القرار المذكور[1]. تحت هذا الغطاء قتل تيبار عدداً لا يحصى من الناس. في مثل هذا الجو انتشرت الوشاية. ألصقت تهمة المس بحرمة الأمير بكل من تقرر التخلص منه، إذ هذه التهمة تلصق بالمرء، يقول پلين(وس) عندما لا يوجد غيرها.

مع هذا أرى أن بعض التُهم الداخلة في هذا الباب، والتي تدعو اليوم إلى السخرية، لم تكن كذلك آنذاك. لا أتصور أن تيبار يحاكم رجلاً لأنه باع تمثال الامبراطور ضمن أثاث منزله، أو أن دوميتيان يستصدر حكماً بالإعدام على امرأة نزعت ثيابها أمام صورته، وعلى مواطن زيّن غرفته بخارطة مجموع الأرض، لو كانت هذه الأفعال لا تثير في أذهان الرومان إلا ما تثيره اليوم في أذهاننا. السر، فيما أعتقد، هو أن التغير الحاصل في حكومة روما جعل أن ما يبدو لنا تافهاً لم يكن كذلك في ذلك الزمن. ما يدعوني إلى هذا الرأي هو ما نلاحظه اليوم في دولة لا يمكن بحال وصفها بالشطط ومع ذلك يمنع فيها شرب نخب رجل بعينه[2].

(1) مثال آخر في عين المؤلف أن جرثومة داء الامبراطورية كانت قابعة في قلب النظام الجمهوري.
(2) البلد انجلترا والرجل الملك جيمس الثاني المخلوع إثر ثورة 1688.

لا بد لي أن أذكر هنا حادثة تبرز ذهنية الشعب الروماني آنذاك. كان قد تعود على الطاعة والخنوع، وأصبح يرى السعادة في أي فارق، مهما دقّ، يبدو بين أمير وسابقه، إلى حدّ أنه أظهر، عند وفاة **جرمانيكوس**[1]، من آثار الحزن والأسى واليأس ما لا يتصور اليوم. وصف المؤرخون[2] بإطناب هذه الكآبة الشعبية التي طالت وتجددت متجاوزة كل حد، وذلك من دون أدنى تكلف إذ الشعب حين يعبر عن مشاعره لا يصانع، لا يتملق، ولا يداهي.

الحق هو أن شعب روما في تلك الحقبة لم يعد يلعب أي دور في تسيير شؤونه. أصبح مكوناً كله تقريباً من الموالي، قريبي العهد بالرق، ومن عاطلين لا يحسنون أية صناعة، يتلقون قوتهم اليومي من الخزينة. شعب مثل هذا لا يجرب من نفسه إلا العجز، يتأثر كما يتأثر الأطفال والنساء. ومثل هؤلاء يغتم لما يستشعر من مسكنة. شعب بئيس تعلّق بمخاوفه وآماله كلها بشخص جرمانيكوس. ولما فقد هذا الملاذ غمره اليأس.

البئيس يخشى الكوارث أكثر من غيره، مع أن بؤسه يحميه، على ما يظهر، من آثارها وأن الأنسب له أن يردد قول **أندروماخ(وس)**[3]: آه! لو كان لي ما أخشى عليه. يسكن اليوم مدينة ناپولي خمسون ألف إنسان يقتاتون الأعشاب ويستترون بنصف كساء من الكتان. هؤلاء، أشقى سكان الأرض، كلما رأوا الدخان على رأس بركان ڤزوڤيوس ، تخاذلوا على أبشع صورة. يذهب بهم الغباء إلى حد الخوف من أن يصبحوا أشقياء.

---

(1) عاش من 15ق.م. إلى 19م. تبنّاه تيبار في عهد **أوغوست** ثم غار من انتصاراته ضد الجرمان ومن شعبيته. قيل إنه كان وراء موته مسموماً.

(2) [63 ب ك 3 ف 82]. م م

(3) بطلة مأساة للمؤلف الروماني سنيكا (4ق.م إلى 65م). تقول: أي شيء أخشاه بعد أن مات حبيبي هكتور؟

الفصل الخامس عشر

القياصرة من كايوس كاليغولا إلى انطونين(وس)

بعد تيبار تولى الأمر **كاليغولا** الذي قيل عنه إنه كان خير خادم وشر مخدوم. الأمران مرتبطان. من بهرته، وهو مأمور، السلطة المطلقة، لا بد أن يغلو في استعمالها وهو أمير. مزاج المرء واحد لا يتغير.

بادر كاليغولا إلى إلغاء كل قرارات تيبار. ثم أمر بإحياء محافل الشعب، المدنية والعسكرية والقضائية[1]. وضمن ما أبطل القانون البغيض الذي يعاقب المس بحرمة الأمير. من هنا يظهر أن الأمراء الأشرار يبدؤون بما انتهى إليه الأخيار، إذ ما يفعله من سبقهم بدافع الفضيلة يفعلونه هم بنية المعاكسة لا غير. هذه النزعة كثيراً ما تؤدّي إلى قرارات مفيدة جداً، لو لا أنه تؤدي أحياناً، للأسف، إلى أخرى مضرّة جداً.

ماذا جنت روما من قرار كاليغولا؟ ألغى المسطرة، أي تهمة المس بالحرمة، لكنه اغتال على يد العسكر كل من سخط عليه. ولم يقتصر سخطه على بعض الشيوخ بل شمل المجلس بكامله.

هذا الطغيان الفظيع الذي اتسم به سلوك القياصرة يعود إلى طبع متأصل في الرومان. ذلك أنهم مروا مباشرة من سلطة القانون إلى حكم الهوى. كانوا أسياداً ثم بغتة وجدوا أنفسهم عبيداً من دون أن يعرفوا حالاً وسطاً

(1) ألغاها فيما بعد. م م

يبث فيهم روح الوداعة والرأفة. ظلت الشراسة غالبة على أخلاقهم. عامل حكامهم المواطنين كما كان هؤلاء يعاملون الأعداء بعد أن يتغلبوا عليهم. أداروا شؤون الجميع بنفس الاسلوب. **سولا** إذ يقتحم روما هو نفس الرجل الذي اقتحم أثينا. طبق في المدينتين المفتوحتين نفس القوانين الحربية. بخلاف حال الأمم التي استعبدت على مراحل، عندما تنعدم فيها القوانين تحكمها الأعراف[1].

ولع الرومان بمشاهدة **المجالدة** التي كانت تنتهي دائماً بسيول من الدماء. فتطبعوا على الضراوة. قيل عن الامبراطور **كلود**(يوس) إنه مال إلى إراقة الدم بسبب مداومته على مشاهدة تلك الألعاب العنيفة. حال هذا الرجل الذي نشأ وديعاً وانتهى بارتكاب فظائع لا تتصور يدل على الفرق بين تربيتنا الحالية وتربية رومان ذلك الزمن.

كان مطلوباً منهم أن يقاوموا العاطفة الغريزية في معاملتهم الأبناء والعبيد[2]. ما نسميه الحس الإنساني كان غريباً عنهم. نلاحظ نفس القسوة اليوم في مستعمراتنا. ولا أرى سبباً لهذه الغلظة سوى عادة التنكيل بالمستضعفين. إذا خلت الحياة الاجتماعية من الشفقة فكيف للوداعة والعدالة أن توجدا في وضع الطبيعة[3]؟

يسأم القارئ لأخبار القياصرة إذ يرى أنهم فتكوا بأعداد لا تحصى من الناس لغرض واحد هو مصادرة أموالهم. لا نجد مثل هذا الأمر في تاريخنا الحديث. السبب، كما أشرنا، يعود إلى وداعة أخلاقنا وإلى

---

(1) يؤكد هنا المؤلف ما يفصله في مقطع لاحق. الاستبداد محدود بالضرورة من بعض جوانبه.

(2) كما تشهد على ذلك قوانينهم المتعلقة بسلطة الآباء والأمهات. م م

(3) هل المقصود السكان الأصليون أم المعمرون الوافدون؟ القساوة موجودة عند الفريقين ولو في أشكال ولأسباب مختلفة.

عقيدتنا التي تقمع فينا غرائز الشر[1]. ثم لم تعد توجد بيننا أُسر بثراء شيوخ روما الذين دوخوا الدنيا. أملاكنا آمنة لأنها متوسطة الحال ولا تستحق عناء الاستصفاء[2].

وهؤلاء القياصرة، حتى أقبحهم سيرة، لم يكرههم الشعب، أعني الدهماء، بل العكس هو الصحيح. صد الرومان عن السياسة وعن الحرب، فأصبحوا أخس شعب على وجه الأرض. لا يتعاطى التجارة ولا يمارس الصناعة، إذ يرى فيهما مهنتي العبيد، يهمل الزراعة إذ يتلقى قوته من الدولة، فكان يقضي جل أوقاته في الملاعب. غير ملزم بالحضور إلى خطب النقباء، وغير مطالب بانتخاب الولاة، فواظب على مشاهد البطالة، يزداد بها شغفاً بقدر ما يظل عاطلاً. حزن كثيراً إثر وفاة أسوأ القياصرة، كاليغولا، نيرون، كومود(وس)، كراكلا، لأنهم كانوا سفهاء مثله، مولعون إلى حدّ الوله بما يحب ويهوى. شاركوا بأموالهم، وأحياناً بأنفسهم، في ولائمه. أنفقوا عليها ومن دون حساب موارد الدولة، ولما نفدت هذه رآهم من دون استنكار يصادرون أموال الأعيان. استفاد الشعب من ثمرات الطغيان من دون أدنى حرج لأنه كان يرى في دناءة وضعه ضماناً لحياته. وبالطبع عادى هؤلاء القياصرة الأشرار أهل الخير إذ استشعروا من عزوفهم السخط وعدم الرضا[3]، كما نقموا على كل مواطن زاهد خالف

---

(1) قد نشك في صدق هذه الملاحظة.

(2) كان لدوق براغنصا أملاك شاسعة في البورتغال، لما خرج عن الطاعة هنّأ البعض ملك إسبانيا على ما سيجنيه من مصادرة ثروة الثائر. م م

(3) عرف الإغريق ألعاباً رياضية شارك فيها ذوو المروءة وافتخروا بتفوقهم فيها. أما الرومان فلم يعرفوا سوى الملاهي، خاصة مجالدة العبيد المشينة. أن ينزل أحد الكبراء إلى الحلبة أو يعتلي خشبة المسرح، فذاك ما كان يأباه وقار الرومان. كيف يسمح بذلك لأحد الشيوخ والقانون يلزمه بمقاطعة كل من فقد شرفه بسبب ازدراء وحتى موالاة

رأيهم أو لاذ بالصمت. غرتهم هتافات الغوغاء، فاقتنعوا أن الجمهور كله راضٍ على حكومتهم مغتبط بها، ولا يعترض عليها إلا من ساءت نيته.

ذهب **كاليغولا** بطغيانه إلى حدّ السفسطة. بما أنه كان ينحدر معاً من **أنطوان** ومن **أوكتاف**، أعلن أنه ينتقم من أي قنصل لا يحتفل بذكرى معركة **أكتيوم** وينتقم منه كذلك إن فعل. كما وضع أخته **دروسيلا**، بعد وفاتها[1]، في مقام الآلهة. ثم قرر أن البكاء عليها جريمة لأنها إلهة، وعدم البكاء جريمة كذلك لأنها أخت قيصر.

لا بد هنا من وقفة تدبّر واعتبار. هذه روما، كم خاضت من حروب، كم سفكت من دماء، كم استأصلت من شعوب، كم أقامت من معالم، كم كسبت من معارك وحققت من نصر، كم أبانت في سياستها عن حكمة وحزم وشجاعة! ومشروعها المذهل، امتلاك الأرض بكاملها، أي اتقان في تخطيطه، أي صبر في تنفيذه، أي حذق في إتمامه؟ هل قامت روما بهذا المجهود الجبار فقط لتشبع في النهاية نهم خمسة أو ستة وحوش؟ ومجلس شيوخها، الذي كان يطرد الملوك بإشارة منه، أما فعل ذلك إلا ليركع خانعاً لأخس أعضائه؟ وبعد ذلك ليقرر بمحض إرادته التمادي في الاقتتال حتى الهلاك؟ أما يسمو السلطان إلا ليهوى؟ أوَ لَا يبنى الإنسان إلا ليهدم ما بنى؟ أوَ لَا يكد لجمع قوة إلا ليورثها لمن هو أوفر حظاً منه ويراه يستعملها ضده[2]؟

اغتيل كاليغولا فاجتمع مجلس الشيوخ لينظر في أمر الخلافة. بينما

الشعب له. رغم هذا ظهر في حلبة الصراع بعض القياصرة. حماقة تشير إلى خلل في النفس وإلى استخفاف بقيم الجمال والنبل والكرامة. حماقة يعدّها دائما المؤرخون من توابع الاستبداد. م م

(1) سنة 38 م.

(2) هذه قطعة ينتظرها القارئ من قس أو راهب. هل الهدف منها، مرة أخرى، التمويه على الرقيب؟

كان يناقش المسألة، اقتحم القصر بعض الجنود بنية النهب. عثروا في أحد مخابئه على شخص خائف يرتعد، هو **كلود**، فنادوا به امبراطوراً.

صوب كلود ضربة قاضية للخطط التقليدية عندما أسند لضباط الجيش السلطة القضائية[1]، مع أن النزاع بين **ماريوس وسولا**، ذلك النزاع الطويل المرير، لم يقم إلا بسبب هذا الأمر بالذات: من يتولّى سلطة القضاء، الشيوخ أم الفرسان[2]؟ وها نحن نرى رجلاً أبله، في إحدى نزواته، ينزعها من أيدي الجميع، وبجرة قلم يضع حداً بكيفية مثيرة لحرب اكتوت بنارها كل جهات الأرض.

أكبر سلطة هي التي يمارسها أمير بعد انهيار نظام جمهوري، لأنه يرث بالكامل سلطة الشعب الذي لا يحدّ أبداً نفسه بنفسه. هذه حال ملك الدانمارك، أكثر ملوك أوروبا تعسفاً اليوم[3].

حصل لشعب روما ما حصل للشيوخ والفرسان. فقد شهامته. قبل العهد القيصري كان شجاعاً مقداماً. كلما دعي إلى القتال تعبأ من ذاته وقصد رأساً العدو. أما فيما بعد، أثناء الحرب الأهلية، أيام **بيطاليوس وفسپازيان(وس)**، طغى على روما طموح الطامعين وجزع الأغنياء، فعاد سكانها يفرقون رعباً كلما اقتربت من الأسوار شرذمة مسلحة.

---

(1) عين **أوغوست** موفدين عنه في الأقاليم لكن لم يقلدهم خطة القضاء. كلما اهملت أوامرهم كانوا يستظهرون بالمحافظ، أو العامل. بموجب قرار كلود أصبح كل ضابط، بصفته حاكم منطقة، بمثابة قاض عادي. يحق له الفصل في المسائل الجبائية، أي يتصرف بكل حرية في أموال الناس. م م

(2) [63 ب ك 1]. م م

الوضع شبيه بالذي كان يميز في فرنسا نبلاء السيف (الأرستقراطية الفيودالية العريقة) ونبلاء الجبّة أو القلم (النخبة البورجوازية الناشئة). وهو وضع يعرفه جيداً المؤلف.

(3) فريدريك الثالث الذي فوضت له السلطة المطلقة سنة 1660 بعد حروب فاشلة ضد السويد.

والقياصرة أنفسهم لم يكونوا أحسن حالاً. لم يستأثر جيش واحد بحق اختيار الامبراطور أو يجرؤ وحده على إعلانه. فكان يكفي أن تميل جماعة من العسكر إلى شخص لكي تنفر منه جماعة أخرى وتنحاز لغيره.

وكما تسبّبت فساحة الجمهورية في انهيار نظامها، فإن عظمة الامبراطورية شكلت خطراً دائماً على حياة الأباطرة. لو كانت دولتهم متوسطة الحجم لاكتفوا بجيش واحد، يختار من يحب ويظل وفياً لمن اختار.

كنّ الجنود ولاءً غير مشروط لأسرة قيصر لأنهم كانوا يرون فيها ضامناً لثرواتهم. اندثرت كل الأسر العريقة باضطهاد أسرة قيصر، ثم انقرضت هذه بوفاة **نيرون**. تعرضت إذاً السلطة المدنية لضربات متوالية، فعادت عاجزة عن الصمود في وجه السلطة العسكرية. عندها أراد كل جيش تنصيب امبراطور خاص به.

لنقارن بين هذا العهد والذي سبقه. كم استفاد **تيبار** في بداية حكمه من هيبة مجلس الشيوخ[1]؟ خرجت عليه جيوش مرابطة في **إيليريا وجرمانيا**. وافق على بعض مطالبها واعتذر عن أخرى، بدعوى أنها من اختصاص الشيوخ، بحسب عبارة **تاسيت**[2]. أرسل إليهم ممثلين عن المجلس مقتنعاً أن من لم يعد يأبه بالقوة المادية قد يتأثر بالنفوذ الأدبي. وبالفعل لما سمع الجنود أولئك الموفدين يذكّرونهم أن أولاد قيصر وأبناءهم هم، ممثلي مجلس الشيوخ، موجودون بين أظهرهم يخاطرون بحياتهم[3]، ندموا على ما بدر منهم بل اقتصوا من أنفسهم[4]. لكن لما خنع الشيوخ وصبروا على

---

(1) [63 ب ك 8]. م م

(2) نفس المرجع.

(3) انظر خطبة **جرمانيكوس** في نفس المرجع. م م

(4) [نفس المرجع]. ألغيت تلك القرارات فيما بعد على اعتبار أنها اتخذت تحت التهديد. م م

كل أنواع الذل والمهانة لم يعد لكلامهم أدنى تأثير. عبثاً خطب **أوطون** في الجنود مذكِّراً بهيبة المجلس[1]، عبثاً بعث **بيطاليوس** كبار الشيوخ للتوسط بينه ومنافسه **ڤسپازيان**[2]. يستحيل على أية هيئة حكومية أن تسترد في يوم حرمةً فرطت فيها طيلة عقود. رأى الجنود في هؤلاء السفراء خدّاماً أنذالاً، أتباع سيّد سبق لهم هم أن أدانوه.

كان من عادات الرومان القديمة أن يوزع القائد المنتصر، أثناء **حفل النصر**، بضعة دراهم على كل محارب. هذه الهبات كانت في الأصل شيئاً زهيداً[3]، لكنها نمت كثيراً وبانتظام أثناء الحرب الأهلية[4]. كانت عادة تؤخذ من مال الأعداء فإذا بها، في ظل الاقتتال البئيس، تنزع من المواطنين. بل عاد الجنود يطالبون بها حتى عندما لا تكون أدنى غنيمة. كانت توزع بعد انتهاء الحرب فإذا بنيرون يتبرّع بها أيام السلم. تعود العسكر على التمتع بها إلى حد أنهم ثاروا على الامبراطور **غالبا** لأنه خطب في جموعهم قائلاً إنه يحسن انتقاء المقاتلين لا اقتناءهم.

مر على العرش غالبا، ثم أوطون[5]، ثم بيطاليوس مرور الأشباح. بعد هؤلاء نصّب الجيش ڤسپازيان الذي استهدف أمراً واحداً، تجديد

---

(1) [63 ج ك 1]. م م

(2) [63 ج ك 3]. م م

(3) يذكر تيت **ليڤ** قيمة هذه الهبات في مناسبات عدة. كانت العادة آنذاك أن يدفع أكثر الفيء لبيت المال والقليل الباقي للمقاتلين. م م

(4) في عهد پول(وس) **أميل(وس)** كانت فتوحات روما لا تنقطع ومع ذلك وهب هذا القائد لكل محارب مائة درهم فقط ولو كان أكثر سخاءً لما لامه أحد. لكن **قيصر** رفع الهبة إلى ألفي درهم وجاراه في ذلك **أنطوان** و**أوكتاف** وكذلك **بروتوس** و**كاسيوس**. انظر [2] و[18]. م م

(5) قرر مائتا جندي نقل امبراطورية الشعب الروماني. وكان ذلك كافياً لتنفيذ القرار. انظر [63 ب ك 25]. م م

الامبراطورية بعد أن توالى على إدارتها ستة حكام طغاة، كلهم قساة، جلهم معتوهون، غير موفقين في معظم مشاريعهم، والأدهى من كل هذا، كلهم مبذرون إلى حدّ الجنون.

خلفه ولده **تيتوس** فابتهج الشعب بتوليته. ثم جاء بعده أخوه **دوميتيان** الذي كان ذا طبع خجول، وربما لهذا السبب بالذات، أبدى وحشية أكبر أو بعبارة أدق إصراراً أكبر على الأذى.

سارع إلى التخلص منه جمع من أقرب مواليه، بموافقة زوجته على ما قيل، بعد أن اقتنعوا كلهم أن خطره واحد على من يوالي وعلى من يعادي، إذ كان يخشى الجميع ويتهم الجميع. قبل أن ينفذوا مشروعهم بحثوا عن خلف فوقع اختيارهم على شيخ جليل هو **نربا**.

تبنى نربا **طرايان**(وس) الذي لم ير التاريخ الروماني أميراً أكمل خلقاً منه. سعد من ولِدَ في أيامه. وهي أيام لم يعش الشعب الروماني أبداً مثلها رفاهية ومجداً. سياسي ماهر، قائد موفّق، يدعوه قلبه إلى الخير وعقله إلى الفضيلة، عالي الهمة، زكي النفس، اجتمعت فيه كل الخصال الحميدة، متساويةً غير متفاوتة. وبالجملة كانت محاسنه تشرّف المخلوق، وتبشّر بفضائل الخالق[1].

نفذ المشروع الذي كان يخطط له **يوليوس قيصر** قبل اغتياله، أي مهاجمة الفرس. وهو مشروع كان مآله حتماً الفشل لو قام به غيره. أخطاره دائماً كثيرة والمُؤن فيه قليلة. لا فوز فيه إلا بعد نصر ساحق، وحتى هذا النصر لا يضمن دائماً النجاة.

---

(1) في هذه الجملة الغامضة تعريض بالثيولوجيا المسيحية. يستعير المؤلف المفردات التي يوصف بها المسيح ويطبقها على امبراطور روماني وثني.

تأتي الصعوبات أولاً من موقع الدولتين، وثانياً من اختلاف أساليب القتال عند الشعبين. كيف الوصول إلى أرض فارس والاشتباك مع العدو؟ إن سلك المرء طريق الشمال، عبر أرمينيا عند ينابيع دجلة والفرات، وجد جبالاً وعرة لا تخترقها القوافل الكبيرة، بحيث يهلك نصف الجيش قبل أن يلحق أرض ميديا[1]. إذا اختار طريق الوسط مروراً بنصيبين، توغل في صحراء مهولة تفصل بين الايالتين. إذا مال إلى طريق الجنوب ومنطقة ما بين النهرين وجد بلداً بعضه أجرد قاحلاً وبعضه غارقاً تحت المياه. ثم بما أن وجهة الرافدين هي من الشمال إلى الجنوب لا يمكن للمهاجم أن يتوغل في القطر إلا بمفارقتهما وهذا هو عين الهلاك.

أما الاختلاف في أسلوب القتال فهو أن عماد الجيش الروماني سلاح المشاة، الأكثر التئاماً وثباتاً وانتظاماً في الدنيا.

بالعكس من هذا، مشاة الفرس ليست لهم قيمة. لكن فرسانهم من أعلى طراز. يقاتلون من بعد فلا تدركهم أسلحة الرومان، حتى الحربة لا تصيبهم. عدّتهم المفضلة القوس والنبل الفتاك. يحاصرون عدوهم أكثر مما ينازلونه. لا تنفع فيهم المطاردة إذ الكر عندهم نوع من القتال. كلما اقترب العدو من ديارهم أجلوا السكان وتركوا في القلاع جنود الحامية وحدهم. بحيث من يستولي على تلك المواقع يضطرّ إلى تخريبها. ثم لهم مهارة في إحراق الأرض خلف الغزاة فيحرمونهم حتى من العشب. باختصار يقاتلون كما لا يزال يقاتل إلى الآن سكان تلك المناطق.

زد على هذا أن الكتائب الآتية من إيليريا وجرمانيا لا تفيد في تلك

---

(1) لا يوجد في البلد ما يكفي من الأشجار لصنع آلات الحصار. انظر [49: سيرة اسكندر]. م م

البقاع[1]. يحافظ الجنود على عاداتهم في الإكثار من الأكل حتى التخمة فيهلكون كلهم تقريباً.

وهكذا ما عجزت عنه جميع الدول، الانفلات من ربق الرومان، حققه الفرس وحدهم، لا لأنهم لم يهزموا بل لأنهم لم يُدركوا.

تخلى **أدريان**(وس) عن كل فتوحات سلفه **طرايان** جاعلاً من الفرات حدّ الامبراطورية الرومانية[2]. والعجيب في الأمر أن الرومان، بعد أن خاضوا هذا العدد المذهل من الحروب، لم يضيعوا مما كسبوا إلا ما تخلوا عنه بمحض إرادتهم. مثلهم مثل البحر الذي لا يتراجع إلا أثناء الجزر.

أثار قرار أدريان هوساً كبيراً. ذاك أن الكتب المقدسة عند الرومان[3] تروي أن **طاركوين** لما قرر تشييد **الكابطول** وجد أن أنسب موقع لهذا الغرض يأوي أصنام عدد كبير من الآلهة. استنطقهم، إذ كان عرافاً ماهراً، هل ترضى التنازل عن مأواها لفائدة **جوپيتر**[4]. كل الآلهة رضيت سوى ثلاثة هم **مارس**[5] **وجوڤنتوس**[6] **وترمينوس**[7]. لذلك رسخت في أذهان الرومان عقائد ثلاث: شعب مارس لا يجلو أبداً عن أرض غزاها، شباب روما لا يذبل، حدود روما لا تتزحزح. لكن كل هذا حصل في عهد أدريان.

---

(1) [28]. م م
(2) [23]. باستثناء داقيا التي لم يجل عنها الرومان إلا في عهد **أوريلْيان**(وس). م م
(3) [5 ك 4 ف 23 و29]. م م
(4) أب السماء.
(5) إله الحرب.
(6) إله الشباب.
(7) إله الحدود.

الفصل السادس عشر

حال الامبراطورية من أنطونين إلى بروبوس

أثناء تلك الفترة انتشرت في المجتمع الروماني نحلة الرواقيين وبدأ الناس يتأثرون بتعاليمها السامية. كما لو أن الطبيعة البشرية اجتهدت لتبدع من ذاتها هذه الفرقة النادرة التي تشبه النباتات التي تتفتّق عنها الأرض في أماكن لا يلمسها أبداً نور السماء[1].

تدين روما لهذه النحلة بأفضل قياصرتها. تبنّى **أنطونين** الأول مارك(وس) **أوريل**(وس)، فكان خير خلف لخير سلف. تنشرح النفس لذكره ويشعر الناظر في سيرته بنوع من البهجة تجعله يعتز بنفسه إذ يفخر بالإنسانية جمعاء.

حكمة **نربا**، أمجاد **طرايان**، شجاعة **أدريان**، فضيلة أنطونين الأول والثاني، هذه السجايا والمكارم فرضت على الجنود احترام مقام الامبراطور، لكن لما تُوِّج من جديد وحوش في صورة بشر، ظهرت مساوئ الحكم العسكري في أقبح أشكاله. الجنود الذين تعودوا على الاتجار بالعرش راحوا يفتكون بالجالسين عليه حتى يتسنّى لهم بيعه بثمن أعلى.

(1) في هذا الإعجاب بالفلسفة الرواقية نقد مبطن للمسيحية. قارن إطراء المؤلف في حق القياصرة الوثنيين، طرايان، أدريان، يوليان، مع نقد لاذع للقياصرة المسيحيين مثل قسطنطين ويوستينيان.

يشاع أن أحد أمراء الوقت يعمل منذ خمسة عشر عاماً على استبدال حكومته المدنية بأخرى عسكرية. لا أود أن أتجرأ بملاحظات جارحة. أذكر فقط بما تفرضه طبيعة البشر وهو أن مائتي حارس يحمون حياة الأمير لا ثمانون ألف. زيادة على أن شعباً مسلحاً لا يصبر على الضيم كالأعزل[1].

خلف **مارك أوريل** ابنه **كومود**(وس)، وحش في صورة انسان، عبد لأرذل الغرائز، منقاد لأهواء وزرائه وبطانته. تآمرت عليه جماعة خلصت الدنيا من شره، ثم أجلست على العرش شيخاً وقوراً يسمى **پرتيناكس**. أحاط به في الحين حرس القصر وفتكوا به.

عندها وضع التاج في المزاد. فاز به **ديديوس يوليان**(وس)، لأنه أربى على وعود منافسيه. أمر أثار سخط الجميع إذ لم تسبق قط مساومة وإن حصلت متاجرة بكرسي الإمارة. كل منطقة نادت بقيصر خاص بها: **پسينيوس نيجر** في الشرق، **سبروس** في **پانونيا**، **ألبان**(وس) في **غاليا**. أما يوليان فقد انكشف عنه جنوده بعد أن تيقنوا أنه لا يستطيع الوفاء بما وعد.

في النهاية تخلص **سبروس** من منافسه وصفى له الحكم. كان يتحلى بخصال حميدة كثيرة باستثناء دماثة الخلق التي هي أعز فضيلة في أي حاكم.

يبدو لأول وهلة أن القياصرة كانوا أكثر طغياناً من أمراء اليوم. السبب هو أنهم كانوا يتقلدون في نفس الوقت جميع الخطط المعهودة. القيصر **دكتاتور**، **نقيب الشعب**، **پروقنصل**، **محتسب**، رئيس الكهان، وحتى قنصل، إن رغب في المنصب. وبما أنه يفصل أيضاً في النزاعات بين الأفراد يغلب

---

(1) الكلام على ملك پروسيا فريدريك غليوم الأول الذي حكم من 1713 إلى 1740. يبدو أن المؤلف أخطأ في ملاحظته هذه.

الظن أن المحكوم عليه مظلوم، إذ القدرة والتعسف أمران ملتزمان في عين الجمهور. أما ملوك أوروبا اليوم فهم مشرعون فقط لا منفذون للأحكام، أمراء لا قضاة. تخلوا عن ذلك الجانب من السلطة الذي يجلب الكراهية والبغض. احتفظوا بحق العفو وتركوا الجزاء لقضاة مختصين.

لم يوجد قط امبراطور أشد غيرة على سلطانه من **تيبار وسبروس**. مع ذلك انقاد كلاهما انقياداً كلياً لكبير أعوانه، **سيان في** حال الأول **وفلوتيان**(وس)[1] في حال الثاني.

ثم كانت هناك عادة نفي الخصوم، عادة مشؤومة لم تزل تطبق منذ أن سنها **سولا**. لا يتحاشاها إلا قيصر فاضل إذ البطانة المتطلعة إلى أموال المنفي تحرض دائماً على الانتقام وتحذر من مغبات التسامح والعفو.

نفى سبروس عدداً كبيراً من أنصار **نيجر**[2]، فالتحقوا بالفرس[3] ولقنوهم كل ما كانوا يجهلونه من فنون الحرب. درّبوهم على استعمال أسلحة الرومان بل على صنعها. وهذه الشعوب التي كانت إلى ذلك الحين تدافع عن نفسها بدأت تهاجم الامبراطورية من دون هوادة[4].

الملاحظ في هذا الباب أن كتائب أوروبا، أثناء هذه النزاعات المتجددة على العرش، كانت في معظم الأحيان تنتصر على كتائب آسيا[5]. نقرأ

(1) كان رئيس حرس القصر.

(2) [28: سيرة سبروس]. م م

(3) تفاقم الأمر أيام اسكندر سبروس. وهذا ما أعطى قوة جديدة **لأردشير** مجدد أمجاد الفرس. أصبح يمثل خطراً كبيراً على الرومان بعد أن التحقت به أعداد من جنودهم إثر نزوة أو عن استهتار. [70 موجز 27 ث 80]. م م

(4) أعني فرس الطبقة الثانية. م م

(5) سبروس هزم نيجر وجيوشه الآسيوية، قسطنطين انتصر على **ليقينيوس**. وحتى **فسبازيان**، الذي كان على رأس جيش سوريا ، حارب **بيطاليوس** بكتائب **موسيا وپانونيا ودلماطيا**. كتب **شيشرون** من قاعدة ولايته لمجلس الشيوخ أنه لا يجب

في سيرة سبروس أن مدينة أترا العربية[1]، امتنعت عليه لأنه اضطر إلى محاصرتها بجنود سوريا بعد أن تمردت عليه كتائب أوروبا.

ظهر هذا الفرق بصورة أوضح عندما بدأ التجنيد يتمّ في الأقاليم[2]. فبدا التفاوت بين الجنود بمقدار اختلاف الشعوب التي تكون مهيأة أو لا تكون للقتال بحسب طبعها ونوع تربيتها.

كان لهذا التجنيد في الأقاليم أثر آخر هو أن الامبراطور أصبح يختار من الحامية المحلية، فيكون في الغالب رومانياً غير عريق، وربما غير روماني أصلاً. وهكذا لم تعد روما تحكم الدنيا بقدر ما عادت الدنيا تحكم روما بأعرافها وعاداتها.

كل امبراطور جديد يأتيها بعرف غريب، يهمّ السلوك والآداب أو الأحكام أو الشعائر. بل تطلع ألغبال(وس)[3] إلى نبذ المناسك الرومانية، إفراغ المعابد من آلهتها وإبدالها بمعبوده هو.

نقول، بصرف النظر عن السبل الخفية التي يختارها الخالق ولا يعرفها إلا هو، إن هذا الوضع مهد الطريق لانتشار عقيدة المسيح، إذ لم يعد يوجد

الاعتماد على مجندي آسيا. ولم ينتصر قسطنطين على منافسه ماكسانس، على قول زوسيم(وس)، إلا بفضل الخيالة. انظر لاحقاً ف22 مقطع7. م م

الجملة الأخيرة رد على اعتراض محتمل. سبق للمؤلف أن قرر أن جنود الشرق تنهزم دائماً أمام جنود أوروبا. وقسطنطين حارب بجيش من المشرق وانتصر. أوضح مونتسكيو أن ملاحظته تخص سلاح المشاة، سيؤكد هذه النقطة لاحقاً.

(1) الحضرة.

(2) جعل أوغوست من الكتائب هيئات دائمة ترابط في الأقاليم. مخالفاً بذلك العرف السابق حيث كان التجنيد محصوراً في روما قبل أن يوسع إلى إيطاليا وأخيراً يعمم على سائر المناطق.

(3) اسمه الرسمي هو ماركوس أوريليوس أنطونينوس. ولد في حمص ونشأ على عبادة إله الشمس. من هنا لقبه هليوغبلوس.

في روما ما هو دخيل حقاً عليها. كانت القلوب والعقول مهيأة لتقبل أية بدعة يأمر بها هذا الامبراطور أو ذاك.

معلوم أن الرومان استقبلوا آلهة الشعوب الأخرى كغنائم حرب واستعرضوها على هذا الأساس أثناء **حفلات النصر**. لكن لما جاء الأجانب أنفسهم لإحياء شعائرها ثار السكان ضدهم في الحين. معلوم كذلك أنهم كانوا يسحبون على هذه الألهة الوافدة أسماء آلهتهم الأقرب إليها تعريفاً ووظيفةً. لكن لما أصرّ الكهنة الأجانب على أن تعبد بأسمائها الأصلية، عندها رفضها الرومان بعنف وشكّل ذلك أكبر عقبة في وجه انتشار النصرانية[1].

لم يكن الامبراطور **كراكلا** طاغية عادياً بل يستحق أن ينعت بمبيد الإنسانية. لم يتعد ظلم **كاليغولا** و**نيرون** و**دوميتيان** ساحة روما، أما جرائم كراكلا فإنها شملت البرية كلها.

جمع أبوه **سبروس** أموالاً طائلة أثناء حكمه الطويل وذلك عن طريق التعسف واستصفاء أملاك الخصوم.

وبما أن كراكلا فتح عهده باغتيال أخيه **جيطا**، شريكه في الحكم وحظي الجنود، وبما أن هؤلاء قالوا إن ولاءهم للأخوين معاً، وليس لأحدهما من دون الآخر، أنفق كراكلا ذخائر أبيه لاسترضائهم.

هذه الذخائر التي يكدسها الأمراء كثيراً ما تجلب الشؤم على وارثها. ينبهر بضخامتها فتعمي بصيرته إن لم تفسد شعوره. يخطط لمشاريع عظيمة اعتماداً على قوة عارضة، غير عادية، أضخم في العين منها في الحقيقة.

زاد كراكلا في جراية الجنود. أخبر **ماقرين**(وس) مجلس الشيوخ

---

(1) هذه محاولة تفسير تسامح الرومان أولاً مع المسيحية باعتبارها إحدى النحل المشرقية الكثيرة، ثم اضطهادها عندما ادعت أنها وحدها الحق، وأخيراً اعتناقها لأسباب سياسية يوضحها المؤلف لاحقاً.

أن الزيادة بلغت سبعين ألف ألف درهم[1]. الغلو واضح إذ لو نظرنا إلى نسبة نفقات الجيش لمجموع مصاريف الدولة وطبقنا النسبة على الوضع الروماني لخلصنا إلى رقم خيالي.

والآن دعنا نبحث في جراية الجندي الروماني. نقرأ عند **أوروز** أن **دوميتيان** زاد فيها الربع. يبدو أنها كانت عند موت **أوغوست** بقيمة عشر أواق نحاس[2]، وأنها تضاعفت مرتين أيام **يوليوس قيصر**[3]. من جهة أخرى نقرأ أنها نقصت أثناء الحرب البونيقية الثانية بمقدار الخمس[4]. بناءً على هذه المعلومات المتناثرة نستخلص أن الجراية كانت أثناء الحرب البونيقية الأولى ست أواق نحاس، خمس أثناء الحرب البونيقية الثانية[5]، عشر في عهد قيصر، ثلاث عشرة أوقية وثلث الأوقية أيام دوميتيان[6]. وهنا لا بد لي مِنْ أن أسجل بعض الملاحظات.

لما كانت الجمهورية صغيرة الحجم، تخوض كل سنة حرباً تعود عليها بالمغانم، تحملت بسهولة تكاليف الجيش. لكن أثناء الحرب البونيقية الأولى، عندما جندت جيوشاً عديدة لتحارب طويلاً خارج حدود إيطاليا، اضطرت إلى الاستدانة .

أثناء الحرب البونيقية الثانية خُفضت الجراية إلى خمس أواق دون

---

(1) [18 : سيرة ماقرين]. م م

(2) [63 ب ك 8]. م م

(3) [59 : سيرة قيصر]. م م

(4) [48 ك 33 مادة 13]. م م

(5) [50]. حساب **بوليب** بالعملة اليونانية. لكن الفرق طفيف عند تحويلها إلى الرومانية. م م

(6) [42]، [59 : سيرة دوميتيان]. حولت كل النقود إلى أوقية نحاس لكي يفهم منحى الكلام حتى من يجهل كل شيء عن النقود الرومانية. م م

أن يخلّف ذلك أي امتعاض إذ كان المواطن آنذاك يحارب على حسابه ويستحي أن يطلب مكافأة.

ثم فتحت خزائن **پرسيوس**[1] وغيره من الملوك. فتدفقت الأموال على روما. عندها استغنت كلياً عن المغارم. رغم هذا الثراء الفاحش، العام والخاص، غلبت الحكمة وظلت جراية الجندي على حالها، خمس أواق نحاس. يخصم منها مصروف المأكل والملبس والسلاح ومع ذلك يفضل للجندي ما يسدّ به حاجته إذ لم يكن يدعى للخدمة العسكرية إلا من له ملك.

لكن **ماريوس** جنّد المعوزين وحذا حذوه غيره. فاضطر **قيصر** إلى رفع الجراية. وبسبب استمرار هذه الزيادة فرضت مجدداً الضرائب أيام القنصلين **هيرتيوس وپانصا**.

ثم جاء **دوميتيان** وكفّر عن قلة هيبته بالسخاء المفرط. رفع الجراية بالربع ملحقاً بالدولة كسراً لا جبر له. في مثل هذا الوضع ليست المصيبة أن ينتشر الترف بل أن يحصل في وقت يجب أن يقنع المرء بالضروري.

ثم كان دور كراكلا وتبذيره الأخرق فعادت الجمهورية لا تستطيع أن تدوم، لا مع الجنود ولا من دونهم.

ظن كراكلا أنه يكفر عن جرمه المقيت برفع أخيه المغتال إلى درجة إله. والغريب أن نفس الأمر حصل له. طعنه **ماقرين**، قائد حرسه، وخشية أن يثور عليه الحرس انتقاماً لأمير أغدق عليهم العطاء، شيد له معبداً وعين عليه قيّميْن من كبار الكهنة.

بهذا الإجراء تفادى كراكلا اللعنة وسوء الذكر[2]. لم يفحص الشيوخ

(1) [88 ج ك 2]. م م

(2) [31: سيرة اسكندر سبروس]. م م

سيرته، لم ينعتوه بالطاغية كما فعلوا في حق **كومود**، مع أن هذا لم يكن أكثر استحقاقاً بالوصمة منه.

والآن لنقارن بين أميرين عظيمين، **أدريان وسبروس**، الأول صارم والثاني متسامح مع الجيش[1]. فجاءت النتائج وفق تصرف كل واحد. الأعوام التي تلت موت أدريان كانت هادئة سعيدة، أما التي أعقبت وفاة سبروس فإنها شهدت أفظع الجرائم.

بالغ **كراكلا** في السخاء مع الجنود لأن أباه نصحه، وهو على فراش الموت، أن يعمل على إثراء المقاتلين ويهمل غيرهم.

لكن هذه خطة متاحة لأمير واحد. من يأتي بعده لا يستطيع أن يجاريه في السخاء، فيفتك به الجيش. وبالفعل نرى على التواتر عقلاء القياصرة يهلكون بسيوف الجنود، وسفهاءهم على إثر مؤامرة أو إدانة من مجلس الشيوخ.

وإذا ما أذعن الطاغية لمطالب رجال الحرب، وتركهم يتحكمون في رقاب المواطنين وينهبون أموالهم، فهذه أيضاً سياسة تفيد مرة واحدة. يبالغ الجنود في الفساد إلى حدّ إتلاف أصل رزقهم. عندها لا بد من التفكير في إصلاح ما فسد والعودة إلى شيء من النظام. أول من يحاول ذلك يلقى حتفه لا محالة.

بعد أن هلك كراكلا بمكائد **ماقرين**، يئس الجنود إذ فقدوا أميراً سخياً بلا حساب. فانتخبوا **ألغبال**[2]. لما رأوه لاهياً عنهم، منغمساً في ملذاته الخسيسة، سئموا حكمه وقتلوه. كما قتلوا خلفه **اسكندر سبروس** لأنه رام العودة إلى النظام وأومأ بمعاقبتهم[3].

---

(1) [70: سيرة أدريان]، [28: سيرة سبروس]. م م
(2) في ذلك الزمن أصبح كل فرد يعتبر نفسه صالحاً ليكون قيصراً. انظر [18 ك 79].م م
(3) [31]. م م

في مثل هذا الوضع لا يعمّر الطاغية، يحلّ له فقط أن يرتكب ما شاء من الجرائم، قبل أن يلقى حتفه، عزاؤه الوحيد أن خلفه، إن حاول الإصلاح، هالك أيضاً لا محالة.

بعد اسكندر نودي **بماكسيمان** قيصراً وهو أول أمبراطور لم يكن روماني الأصل. ميزته الوحيدة قامته العملاقة وقوته الجسمانية الخارقة.

قتله جنوده بصحبة ابنه. **غورديان**(وس) الأول وغورديان الثاني هلكا معاً في أفريقيا. تلاهما على العرش **ماكسيم**(وس)، ثم **بالبان**(وس) ثم **غورديان** الثالث. لا أحد منهم نجا من نقمة الجيش. **فيليپ**(وس)[1]، الذي أوعز بقتل مولاه **غورديان** الثالث، قتل هو الآخر برفقة ولده. **وداقيوس** الذي انتخب خلفاً له هلك أيضاً على يد **غالوس**[2].

تحولت الامبراطورية في تلك الحقبة إلى جمهورية لا نظامية شبيهة بالتي توجد حالياً في مدينة الجزائر، حيث السلطة العليا بيد أعضاء الحامية، ينصبون ويخلعون ولياً يحمل لقب الداي. يستنتج من سير الأحداث أن حكم العسكر ينتسب إلى النظام الجمهوري أكثر منه إلى النظام الملكي.

ولا يقال إن نصيب الجنود في الحكومة ينحصر في العصيان وردّ الأوامر. بعد مرور عدة أعوام على هذا الحكم، أَوَ لَم يعد يخطب فيهم القياصرة بنفس العبارات التي كان يستعملها القناصلة ونقباء الشعب في محافل العامة؟ صحيح أن الجنود لا يجتمعون في مكان معلوم، لا يتقيدون

(1) كان عربي النسب فلقب بذلك.

(2) علّق كازوبون، محقق المرجع [32]، أن الكتاب يؤرخ لمدة مائة وستين سنة ولتسعين شخصاً حملوا لقب قيصر، حقاً أو باطلاً، إذ طعن في شرعية العديد منهم. للوقوف على الفرق بين حكومتي روما وفرنسا نذكر أن هذه الأخيرة حكمها ثلاثة وستون ملكاً لمدة ألف ومائتي سنة. م م

بضوابط شكلية، لا يتدبّرون طويلاً أمرهم ويطبقون قراراتهم فوراً، لكن يتصرفون في المال العام، والامبراطور الذي ينتخبونه لا يعدو أن يكون آلة تنفيذ تسيرها حكومة غاصبة تخدم مصلحة الجنود الخاصة.

عندما قرر العسكر أن يكون فيليپ، قائد حرس غورديان الثالث، شريكاً له في السلطة، ناشدهم هذا الأخير أن تظل القيادة بيده وحده فلم يسعف[1]، فترجّى أن يتساوى مع شريكه فلم يسعف، فالتمس أن يحتفظ بلقب قيصر فلم يسعف، فتوسل أن يقلّد رئاسة الحرس فلم يسعف، وأخيراً استجدى أن يُنعم عليه بالحياة. وكل مرة كان الجنود ينظرون في المسألة ويصدرون فيها حكماً نافذاً.

لمدة طويلة تجاهل الرومان، استعلاءً واستصغاراً، مَنْ يسمونهم برابرة، أي كل أمة تعيش بحسب قوانين مخالفة لقوانينهم. ثم بعد حين انزعجوا منهم، وأخيراً بدؤوا يخشونهم. من أغرب الأحداث أن روما أفنت شعوب الدنيا، ولما أضعفت نفسها بنفسها، بدا وكأن الأرض تمخضت عن شعوب جديدة بهدف القضاء على سلطانها.

لا توجد في الغالب على حدود الدول الكبرى أقاليم تغري باجتياحها، إذ ما يوجد من هذا النوع يكون قد سبق ودخل في حوزة تلك الدول. لذا تحدّها على العموم بحار أو جبال أو صحارى شاسعة تزهد فيها لقلة فائدتها. وهكذا أهمل الرومان جموع الجرمان القابعين في الغابات، وكذلك قبائل الشمال التائهة فوق الجليد. اختفت هناك وربما نشأت أمم كتب لها أن تستعبد الرومان أنفسهم.

تحت حكم الامبراطور **غالوس** ظهرت شعوب اشتهرت فيما بعد.

---

(1) [31]. م م

اكتسحت أوروبا وأشاعت فيها الدمار. في نفس الوقت توغل الفرس في أراضي سوريا ولم يغادروها إلا لتأمين ما تجمع لديهم من مغانم.

لم نعد اليوم نشاهد جحافل هائلة من البشر تخرج من مناطق الشمال. السبب هو أن تعسف الرومان طرد شعوباً كثيرة من الجنوب إلى تلك البقاع. طالما واجهت سدّاً منيعاً قبعت هناك، في انتظار أن تضعف القوة الرادعة لها لتنتشر في كل الجهات[1]. حصل نفس الأمر بعد قرون عندما تسبّبت فتوحات **شارلمان** ومظالمه مرة أخرى في هجرة شعوب الجنوب إلى الشمال. ولما دبّ الوهن إلى مملكته، غادرت في الحين تلك الشعوب معاقلها الشمالية عائدة صوب الجنوب. ولو ارتكب أحد أمراء أوروبا اليوم مظالم مماثلة لرأينا الأمم المتضررة تقصد الشمال، تستند إلى أطراف الدنيا، متحيّنة الفرصة لتكتسح أوروبا مرة ثالثة.

بلغ التنافس على خلافة الامبراطور ذروته، وعمت الفوضى بسبب ذلك، في عهد **ڤالريان**(وس) وابنه **غاليان**، حيث تقاتل على المنصب ثلاثون شخصاً. قضى بعضهم على البعض الآخر. لم يطل حكم أي واحد منهم فاعتبروا كلهم طغاة أدعياء.

سقط ڤالريان في أيدي الفرس وأهمل غاليان شؤون الدولة. فتوغل البرابرة في جميع أقاليم الامبراطورية التي عاشت آنذاك الحالة التي سيكون عليها نصفها الغربي بعد مرور قرن من الزمن[2]. لولا أن أحداثاً سعيدة طرأت وأصلحت الأوضاع لانهارت الامبراطورية كلياً في ذلك التاريخ المبكّر.

---

(1) هذا هو الجواب البسيط عن السؤال الشهير: لماذا لم يعد الصقع الشمالي مأهولاً كما كان في القديم؟ م م

(2) مائة وخمسون سنة من ذلك التاريخ، تحت حكم **هونوريوس**، اقتحم البرابرة الامبراطورية.

استطاع **أذينة**، أمير تدمر وحليف الرومان، أن يطرد الفرس بعد أن استولوا على معظم آسيا. بتزامن مع هذا النصر، كانت مدينة روما قد عبأت سكانها وكوّنت منهم جيشاً تمكن من صدّ البرابرة الذين كانوا على أهبة اقتحامها ونهبها. ثم حصل أن عدداً من **القوط**، وهم في طريقهم إلى أرض الامبراطورية على ظهر ستة آلاف مركب، هلكوا غرقاً وجوعاً وإرهاقاً وربما من مجرّد التزاحم.

أخيراً كان من حسن حظ روما أن توالى على حكمها، بعد التخلص غدراً من **غاليان**، أربعة رجال عظام هم **كلود الثاني وأوريليان وتاسيت وپروبوس**. هؤلاء الأربعة بعثوا الروح مجدداً في جسم الامبراطورية بعد أن أوشكت على الانهيار.

الفصل السابع عشر

تغيُّر نظام الدولة

لتفادي خيانات العسكر المتوالية ضم الأباطرة إلى حكوماتهم أشخاصاً يطمئنون إلى ولائهم. قرر ديوكليزيان، بدعوى تكاثر الأشغال، تنصيب امبراطورين وقيصرين. رأى أن كل واحد من الأربعة يضبط جيشاً ويردع به جُيوش الباقين. أما الجيوش الأخرى، غير الأربعة الرئيسية، فهي أضعف من أن تطمح إلى تنصيب أحد قوادها ، ومع مر الأعوام تتناسى عاداتها القبيحة. وبما أن القيصر أقل سلطة من الامبراطور، فإن إشراك أربع شخصيات يضمن الأمن والاستقرار فيما الحكم الحقيقي يظل بيد رجلين فقط.

لكن ما وضع حداً لأطماع رجال الحرب في حقيقة الأمر، هو تناقص ثروات الأفراد وتراجع موارد الدولة، بحيث لم يعد بإمكان الامبراطور المنتخب أن يوزع على الجنود الثائرين العطايا بالسخاء المعهود. لم يعد الربح يناسب مشقة إشعال ثورة.

من جهة أخرى، تغير وضع أمراء الحرس الامبراطوري الذين كانوا بمثابة وزراء[1]، يملكون نفوذ هؤلاء ويتمتعون بصلاحياتهم. متى شاؤوا

(1) الوزير هنا بالمعنى المشرقي أي الحاكم باسم الملك الشرعي.

تخلصوا من أسيادهم وحلوا محلهم. جردهم الامبراطور **قسطنطين** مما زاد على وظيفتهم المدنية بعد أن ضاعف عددهم إلى أربعة.

بهذه الطريقة اطمأن الأباطرة على حياتهم وبالتدريج قويت حظوظهم في أن يموتوا فوق فراشهم. فلانت عريكتهم ولم يظلوا متعطشين إلى إراقة الدماء. لولا أن ما بيدهم من سلطة مطلقة وجد منفذاً آخر. ظهر نوع جديد من التعسف وإن في شكل مستتر . اختفت المجازر وخلفتها مظالم، أحكام تبدو وكأنها لا تؤخر موت المغضوب عليه إلا بهدف تعكير حياته. غلب على البلاط، في تسيير الشؤون الخاصة كما في تدبير أمور الدولة، فنون شتى من التصنع والتكلف والتكتم التام. بالجملة ذهب عهد الشخصيات القوية التي تخطط بجرأة للشر وتبادر باقترافه وجاء دور ضعاف النفوس الذين يبيتون طويلاً الجريمة وينفذونها في الظلام.

ثم نجم فساد من نوع جديد. كان ميل أول الأباطرة إلى الملذات، أما المتأخرون فإلى البطالة والراحة. احتجبوا عن رجال الحرب وقبعوا عاطلين تحت رحمة الخدم والأعوان. يركنون إلى القصور بقدر ما يهجرون مشاغل الامبراطورية.

كلما زادت عزلة أعضاء البطانة استشرت سمومهم[1]. نهجهم الدائم عدم التصريح بشيء والتلويح بكل شيء. يحطمون سمعة كل ذي هيبة وكفاءة. بأيديهم مستقبل كل وزير وكل ضابط. لا يخدمون الدولة ولا يرضون أن يخدمها غيرهم بامتياز ومجد.

وأخيراً اختفت كلياً تلك البشاشة التي ميزت الأباطرة الأولين الذين استطاعوا بواسطتها أن يطلعوا على كل ما يجري في إيالتهم. أما المتأخرون

---

(1) راجع ما يرويه الإخباريون عن حاشية قسطنطين **وڤالنس** وغيرهما. م م

منهم فأصبحوا لا يعلمون إلا ما يرويه لهم عدد قليل من المقربين. وهؤلاء، دائماً على اتفاق، يظهرون اختلافاً في الرأي في حين أن هدفهم واحد.

أقام أباطرة كثيرون في آسيا يحاربون ملوك الفرس. فأدى طول المجابهة إلى مشابهة. تطلع الأباطرة إلى أن يكونوا مثل خصومهم موضع تقديس. أمر بذلك في مرسوم إما **ديوكليزيان** بحسب البعض وإما **غالير** بحسب البعض الآخر.

ما أن انتشرت هذه العادات الآسيوية من بذخ وأبّهة حتى ألفتها النفوس. ولما حاول **يوليان**[1] أن يعود إلى نهج القناعة والتقشف، اتّهم بهتك الهيبة. والواقع أنه لم يرد سوى إحياء سنن قدماء الرومان.

منذ عهد **مارك أوريل** تواجد عدة أباطرة لكن الامبراطورية نفسها ظلت موحدة. كل الأقاليم كانت تعترف بسلطة كل مرشح. السلطة إذاً واحدة وإن اضطلع بها أشخاص عدة.

أما عندما استحكم الخلاف بين **غالير وقسطانس** الملقب بالشاحب، اقتسم الاثنان الامبراطورية بالفعل[2]. ثم سار على هذا النهج قسطنطين الذي عدل عن خطة **ديوكليزيان** وطبق برنامج **غالير**. وهكذا تكرست التجزئة التي لم تكن مجرد تغيير بقدر ما كانت ثورة حقيقية.

ثم تاقت نفس قسطنطين إلى تأسيس مدينة جديدة تحمل اسمه وتخلد ذكراه. افتتن بالفكرة ونقل قاعدة الامبراطورية إلى الشرق. في ذلك الوقت كانت مساحة روما داخل الأسوار أصغر بكثير مما هي عليه اليوم. لكن

---

(1) نشأ يوليان على دين المسيح. عند توليّه الأمر قرّر العودة إلى العقيدة الرومانية التقليدية. لذا ينعته كتاب الكنيسة بالمرتد في حين يمدحه أعداؤها.

(2) [42 ك 7؛ 7]. م م

ضواحيها كانت متسعة جداً[1]. وكانت إيطاليا، بما فيها من نزهات كثيرة، بمثابة حديقة لها. كان الإيطاليون بستانيين، أما المزارعون بالمعنى الدقيق فكانوا سكان صقليا وأفريقيا ومصر[2]. لم يعد يخدم الأرض على العموم سوى الرقيق. فلما انتقل كرسي الامبراطورية إلى الشرق، رحلت إلى هناك روما بحذافيرها. ذهب مع الأسياد العبيد، أي مجموع الشعب، وتحولت إيطاليا إلى قفر.

وحتى لا تتخلف العاصمة الجديدة عن القديمة، قرر **قسطنطين** أن توزع فيها أيضاً الحبوب مجاناً على الجمهور. فخصص لها إنتاج مصر تاركاً لروما إنتاج أفريقيا. وهو قرار لا أراه حكيماً.

أيام الجمهورية كانت للشعب الروماني السيادة على سائر الشعوب. لذا كان مجلس الشيوخ يبيع له القمح بثمن منخفض، قبل أن يوزعه عليه بالمجان. لما تحولت الجمهورية إلى ملك ظل الأمر كما كان مع أنه لا يوافق روح النظام الجديد[3]. ترك على حاله تجنباً للأضرار التي تنجم عن كل تغيير. لكن قسطنطين شيّد مدينة جديدة فلا وجه لما قرر.

عندما فتح **أوغوست** مصر واستولى على ذخائر البطالسة أمر بنقلها إلى روما. فحصلت ثورة اقتصادية شبيهة بتلك التي عمت أوروبا بعد اكتشاف

---

(1) [48 ك 3]. م م

(2) "طوال عقود صدّرت إيطاليا الحبوب إلى أقاليم بعيدة. هل تحولت اليوم إلى صحراء؟ لكن نفضل حرث أرض أفريقيا ومصر معرضين بذلك حياة الشعب الروماني للخطر". هذا كلام **تاسيت** [63 ب ك 12]. م م

(3) المعنى الحرفي لكلمة ملك هو أنه يملك الأرض ومن عليها. فلا حق لأحد إلا ما أنعم عليه به الملك. يوجد نفس المعنى عند ابن خلدون.

أميركا أو مؤخراً بعد اعتماد العملة الورقية[1]. تضاعف سعر كل الأصول[2]. وبما أن العاصمة ظلت تجلب إليها خيرات الاسكندرية، وهذه تجلب إليها خيرات أفريقيا والشرق، تكاثر الذهب والفضة في أوروبا، فكان من السهل على الشعوب أداء الضرائب، مهما علت، نقداً.

لكن عندما انقسمت الامبراطورية إلى جزأين استأثرت القسطنطينية بكل هذه الموارد. أما حال الجزء الغربي فمعلوم أن مناجم انجلترا لم تكن فتحت بعد آنذاك[3]، كما نعرف أن المعادن قليلة في إيطاليا[4]، مهملة أو ضعيفة الإنتاج في إسبانيا منذ عهد القرطاجيين[5]. في هذه الحال كانت إيطاليا، وهي لا تحتوي إلا على بساتين مهجورة، عاجزة عن جلب مال الشرق، في حين أنها، مثل سائر الجزء الغربي من الامبراطورية، تصدّر إلى الشرق ما فضل لديها من مال لاستيراد البضائع. ندر الذهب والفضة ندرة كبيرة في أوروبا. ومع هذا أصرّ الأباطرة على استيفاء نفس القدر من الضرائب. فساءت الأوضاع وعمّ البلاء.

عندما تعمّر حكومة ما، حتى تكون أوضاعها قد استقرت على وجه معلوم، الأسلم تركُ الأمور على حالها، إذ أسباب استمرارها، خفيةٌ ومتشابكة في الغالب، هي نفسها ما يضمن بقاء تلك الحكومة. من يتطلع

---

(1) في بداية القرن الثامن عشر حاول السكوتلاندي (**John Law**) إدخال العملة الورقية في فرنسا. انتهت المحاولة بالإفلاس. وكان مونتسكيو ضمن الضحايا.

(2) [59: سيرة أوغوست؛ 42 ك 6]. مرت روما بعدة ثورات مماثلة. سبقت الإشارة إلى أن نقل ذخائر مقدونيا إليها أدّى إلى إلغاء كل المغارم. انظر [11 ك 2]. م م

(3) لا نزاع في هذا الأمر بالنسبة لانجلترا. انظر [63 د]. بداية التعدين في مناطق هارتز وساكسونيا من ألمانيا معروف كذلك. م م

(4) [49 ك 37 مادة 77]. م م

(5) عرف القرطاجيون كيف يستفيدون من تلك المعادن. وعرف الرومان كيف يمنعون غيرهم من ذلك. انظر [17]. م م

إلى تغييرها تغييراً كاملاً يتوقع بعض السلبيات فيستعدّ لمعالجتها نظرياً. لكن هناك عوارض لا تظهر إلا مع الممارسة، وهذه لا يمكن التنبؤ بها[1].

وهكذا رغم أن الامبراطورية الرومانية كانت قد اتسعت أكثر من اللازم، لم تصلح التجزئة من حالها، بل بالعكس دفعتها إلى الإفلاس. أعضاء ذلك الجسم العظيم كانت، بطول التساكن والاحتكاك، قد التأمت وتعودت على العيش داخل مجموعة متكاملة.

وجه قسطنطين ضربتين قاضيتين للامبراطورية الأولى. بنقل قاعدتها إلى الشرق، والثانية بإجلاء الكتائب المرابطة على ضفاف الأنهار الكبرى وتوزيعها على الأقاليم[2]. نتج عن هذا القرار أمران مضران جداً. أولاً إزالة الحاجز الذي كان يمنع أمماً كثيرة من اقتحام الامبراطورية، وثانياً أن الجنود فقدوا كل همة وشهامة بملازمة المسارح[3]، ومدرجات **المجالدة**[4].

أوفد الامبراطور قسطان [الثاني] الأمير **يوليان** إلى بلاد **الغال**. فوجد أن البرابرة الجرمان قد استولوا على خمسين مدينة محاذية لنهر **الران** وأنهم دمروا بالكامل عدة أقاليم[5]. كما وجد أن فلول الجيش الروماني تفرّ وتتبدّد كلما سمعت كلمة برابرة.

استطاع بحكمته ورباطة جأشه ودقة تدبيره وحسن سيرته، وبعد سلسلة

---

(1) كما لو كان المؤلف يتوقع مشكلات الثورة الفرنسية.

(2) ما أقوله هنا عن هذا الامبراطور لا يناقض موقف أنصار الكنيسة منه إذ يؤكدون أنهم ينوّهون بأعماله الدالة على الإيمان والورع من دون التي تمس شؤون الدولة. انظر [22 ك 1 ف9؛ 57 ك 1 ف1]. م م

(3) [72 ك 8]. م م

(4) قلّت هذه الألعاب بعد أن أصبحت النصرانية ديناً رسمياً. ثم منعت كلياً تحت حكم هونوريوس على بعض الأقوال. لم يحفظ الرومان من شعائرهم القديمة إلا تلك التي توهن العزيمة أو تغذي غريزة الشهوة. انظر [64؛ 43]. م م

(5) [1 ك 16 و17 و18]. م م

متصلة من الانجازات البطولية، أن يطرد المغيرين وراء النهر[1]. ظل اسمه وحده رادعاً لهم ما دام حياً[2].

هذا خلاف لما نقرأ عنه في بعض المصادر. الواقع هو أن الأحكام التي وصلتنا عن هذا الامبراطور أو ذاك، غالباً ما تكون في غاية الانحراف. وذلك بسبب قصر ولايته أو تحت تأثير الصراعات المذهبية أو السياسية والتنافس بين الملل والنحل. أكتفي في هذا الباب بمثالين: يقول **هروديان** أن **اسكندر سبروس** كان جباناً فيما يؤكد **لامپريديوس** أنه كان مثال الشجاعة. يمدح الكتّاب الكاثوليك غراتيان في حين أن **فيلوستورغ** يشبهه بنيرون.

وعَى **ڤالنتينيان**[3] أكثر من غيره ضرورة الالتزام بتطبيق السياسة القديمة. عمل طول حياته على تحصين ضفاف **الران** ببناء الحواجز العالية وتشييد القلاع وشحنها بالمقاتلين وإمداد هؤلاء بما يلزم للإقامة فيها. لكن طرأ في الجانب الآخر من الامبراطورية حادث اضطر أخاه **ڤالنس**[4] إلى فتح معابر **الدانوب**، الأمر الذي أدّى إلى كوارث مهولة.

في المنطقة الممتدة من **مروج ميوتيدس**[5] إلى جبال القوقاز وبحر الخزر، تعيش أقوام تنتسب في معظمها إلى **أمّتَيْ الهون واللّان**. أرضهم خصبة وهوايتهم المفضلة الغزو والنهب. يتجولون باستمرار على ظهور خيولهم أو على متن عرباتهم في المنطقة التي حبسوا فيها. من حين لآخر كانوا يغيرون على بلاد فارس وأرمينيا. يمنعهم من التوغل فيها حاجز

---

(1) المرجع السابق. م م
(2) أجاد في الثناء عليه مؤلف [1 ك 25]. انظر كذلك [25 د]. م م
(3) امبراطور الغرب.
(4) امبراطور الشرق.
(5) بحر آزوف اليوم.

الأبواب القزوينية[1] التي تمثل المدخل السهل الوحيد لأرض الفرس. بما أنهم كانوا لا يتصورون إمكانية قطع **مروج ميوتيدس**، كانوا لا يعرفون شيئاً عن الرومان[2]. فيما كانت أمم أخرى من البرابرة الجرمان تدمر تخوم الامبراطورية، كان هؤلاء **الهون واللّان**، بسبب عزلتهم واقفين عند حدّهم.

قال البعض إن طمى نهر **تنايس**[3] تكدس عبر العقود حتى ردم المضيق المعروف ببوسفور الشمال فعبره الهون[4]. وقال البعض الآخر إن شابيْن من **السقوط** كانا يطاردان ظبية. قطعت الظبية الشرم وتبعها الشابان[5]. فاندهشا لما انكشف لهما. عادا إلى أهلهما وأخبراهم بما أبصرا من هذه الهند الجديدة، إن صح القياس[6].

في الحين تدفقت على الأرض المكتشفة أعداد لا تحصى من الهون. وجدوا في طريقهم **القوط** فطردوهم بين أيديهم. بدا وكأن الأمم تتهاوى الواحدة على الأخرى، وأن آسيا تستنفر ما ادخرت من قوى لتجهز بها على أوروبا.

فزع القوط فقصدوا **الدانوب** مستنجدين بالرومان. استغل الفرصة بعض المتملقين من بطانة **ڤالنس** وصوروا له الحادث، وكأنه هبة سعيدة تتقوى بها الدولة، إذ هؤلاء الوافدون يزيدون في أعداد المقاتلين والمزارعين[7].

---

(1) ممر سرداره اليوم.
(2) [52 ب]. م م
(3) نهر الدون اليوم.
(4) [72 ك 4]. م م
(5) [29؛ 52]. م م
(6) [58 ك 6]. م م
(7) [1 ك 29]. م م

شرط ڤالنس على اللاجئين أن يسلموا سلاحهم قبل دخول الامبراطورية. لكن حراس الحدود، مقابل رشا ، خلّوا سبيلهم وتركوهم يحتفظون بما شاؤوا[1]. وزعت عليهم أراضٍ للزراعة، إلا أن القوط، بخلاف الهون، كانوا يجهلون الفلاحة[2]. ثم حصل أن حبس ڤالنس القمح الذي وعدهم به، فرأوا أنفسهم جائعين وسط خير وافر، يسامون الضيم وهم مسلحون. ثاروا ثورة عاتية ودمروا كل ما حولهم من الدانوب إلى البوسفور. قتلوا ڤالنس، بددوا جيشه ولم يغادروا المنطقة إلا بعد أن حولوها إلى صحراء مهولة[3].

---

(1) تهاون هذا الحارس عشقاً في شاب قوطي، وذلك لما رأى من جمال امرأة أذهله، الثالث تلقى هدايا، ألبسة من كتان وأغطية مهدّبة. كلهم اهتموا فقط بشحن منازلهم بالخدم ومزارعهم بالحيوان. انظر [16]. م م

(2) الفرق بين حال الأمتين أمر محقق. انظر [51]. قد يقال كيف حصل أن أمماً لا تحرث الأرض استطاعت أن تنمو وتتقوى في حين أن أمماً شبيهة لها في أميركا ظلت قليلة العدد. السبب هو أن الرعي (حال الأولى) يؤمن القوت أكثر من الصيد (حال الثانية). يبدو، بحسب رواية [1] أن الهون كانوا لا يفلحون الأرض في وطنهم الأصلي، يعيشون فقط من نتاج الماشية في بلد كثير المراعي غزير المياه، كما يفعل اليوم صغار التتار (القوزاق) الذين يقطنون نفس المنطقة. وبعد أن رحلوا إلى أرض أقل خصباً تعذر عليهم الرعي فتعاطوا للزراعة. م م

(3) [72 ك 4]. انظر كذلك [16 ضمن 14]. م م

الفصل الثامن عشر

اعتناق الرومان مبادئ جديدة

لما هدد جيران روما بمهاجمتها فضل الأباطرة مهادنتهم بالمال، عن جبن حيناً وعن ضعف أحياناً كثيرة[1]. لكن السلم لا يُشرى إذ بائعه يقبض الثمن ثم يعرضه في السوق مرة أخرى.

الأسلم لأي أمير أن يخاطر بالحرب مهما قلت حظوظ النجاح، عوض أن يساوم على السلم. يحترمه عدوه إذا ما تيقن أنه لن يخضعه إلا بمشقة بعد مقاومة عنيدة.

ثم هذه المنح التي تكون طوعية في البدء، لا تلبث أن تتحول إلى أتاوى واجبة. من يتلقاها يعتبرها بعد ظرف وجيز حقاً لازماً. إذا تراخى الامبراطور عن أدائها، أو أعطى أقل من المعتاد، تحول في الحين الموالي إلى معادٍ. أذكر بين ألف مثال فقط، ما جرى **ليوليان** حين كان عائداً من حملته على الفرس. اعترضه **الأعراب** لأنه كان قد قطع عنهم الصلة التي عودهم عليها. ثم عقب هذا الحادث أيام **ڤالنتينيان** غضب **الألمان** لأنهم توصلوا بهدايا أقل قيمة من التي ألفوها. وبما أن الأنفة هي السِّمة الغالبة منذ القدم على شعوب الشمال، شنوا حرباً عاتية انتقاماً لما اعتبروه إهانة[2].

(1) تنازلت روما عن كل شيء أولاً لجنودها ثم لأعدائها. م م
(2) [1 ك 25]. م م

وهكذا سنة بعد أخرى امتصت شعوب أوروبا وآسيا المجاورة للامبراطورية ثروات الرومان[1]. كما أن قوة هؤلاء أتت من استحواذهم على كنوز ملوك الأرض، جاء ضعفهم من تفويت أموالهم بالتدريج إلى جيرانهم[2].

إن أخطاء رجال الدولة لا تكون دائماً اختيارية. غالباً ما تترتب عن وضع قائم إذ السيئات تولّد السيئات[3].

سبق القول إن تجنيد الشعب عاد مكلفاً جداً للدولة، إذ يتمتع الجندي أولاً بجراية ثابتة، ثم بمكافأة عند نهاية الخدمة، وأخيراً بهبات عارضة غالباً ما تتحول إلى حقوق مكتسبة في عين أناس يتحكمون في حياة الأمير والشعب معاً.

وبما أن التكاليف فاقت بكثير الموارد جرى البحث عن جنود أقل تكلفة. من هنا التعاقد مع أمم غير رومانية، غريبة عن بذخ الجندي الروماني، بعيدة عن عقليته وطموحه.

ثم كان في الأمر فائدة ثانية، هي أن البرابرة لا يحتاجون إلى مهلة يستعدون فيها للقتال. متى قرروا الهجوم هبوا وباغتوا المنطقة التي تليهم. فلا تملك هذه الوقت الكافي لتعبئة الحامية. فبدا للرومان أن أنجع وسيلة

---

(1) [1 ك 26]. م م

(2) قال أحد الأباطرة لثوار جنوده: تريدون المال، أمامكم الفرس، خذوه منهم. أما ذخائر الجمهورية، صدقوني فلم يبق منها شيء. العار على من دعا الأباطرة إلى مهادنة البرابرة بالمال. خزينتنا فارغة، أمصارنا خراب، أقاليمنا دمار. وأنا امبراطور لا مال لي سوى الفضيلة. لا أستحي أن أقول لكم إني فقير. [8 ك 24]. م م

(3) «وقد ينتبه كثير من أهل الدول ممن له فطنة في السياسة. فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض ويظن أنه ممكن الارتفاع، ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم. وليس كذلك» ، ابن خلدون، المقدمة، 46.

لصد غارات البرابرة الاستعانة ببرابرة آخرين، هم أيضاً على أتم الاستعداد للقتال والنهب مقابل نقود قليلة. طريقة سهلة لحلّ مشكل قائم لولا أنه يخلق بعد برهة مشكلاً أعوص، إذ التخلص من حليف لا يقل صعوبة عن مواجهة عدو.

حرص دائماً قدماء الرومان على أن يظل عدد الحلفاء في جيشهم دون عدد المواطنين[1]، مع أن حلفاءهم الأوائل كانوا أوفياء لهم، يعترفون لهم بالسيادة الكاملة. رغم هذا لم يرد الرومان أن يكون الأتباع أكثر إقداماً وجسارة على القتال من الأسياد.

لكن في العقود الأخيرة تناسوا هذه القاعدة وشحنوا كتائبهم الوطنية بمقاتلين برابرة.

وهكذا خضعوا لعادات وقواعد مناقضة تماماً لتلك التي جعلت منهم حكّام الدنيا. في الماضي احتكروا صناعة الحرب ومنعوها عن غيرهم، وها هم يهملونها فيما بينهم ويرسخونها عند غيرهم.

خلاصة تاريخ الرومان هي ما يلي: كانت لهم مبادئ بواسطتها قهروا شعوب الأرض. ولما أدركوا القمة لم تصمد دولتهم. غيّروا مضطرين نظام حكمهم على أسس توافق وضعهم الجديد، لكنها تخالف مبادئهم القديمة. وهذه القواعد الجديدة هي التي هدّت صرح عظمتهم.

شؤون الدنيا لا تسير اتفاقاً. لنسأل في هذا الشأن الرومان الذين انتصروا بدون استثناء ما دامت حكومتهم تسير على شكل، ثم انهزموا من دون استثناء عندما استبدلوها بأخرى مغايرة. هناك أسباب عامة، أدبية أو مادية، تعمل في قلب كل دولة، تتسبّب في نهوضها ثم في استمرارها وأخيراً

(1) [69]. إن حصل أحياناً العكس، فبفارق ضئيل. انظر [67]. م م

في انهيارها. والحوادث العارضة خاضعة دائماً لتلك الأسباب العامة. إن حصل أن معركة واحدة، أي عارض واحد، حطّم دولة، فلا شك أن هناك سبباً أعمق استدعى أن تهلك تلك الدولة عقب هزيمة واحدة. بإيجاز الاتجاه العام متحكم في الحوادث الجزئية.

نرى منذ قرنين مشاة دولة **الدانمارك** ينهزمون في كل مواجهة تقريباً أمام نظرائهم **السويديين**. بصرف النظر عن شجاعة المقاتلين ودور الحظ في كل لقاء، لا بد أن يكون في النظام الدانماركي، العسكري والمدني، خلل خفي يؤدي بالدوام إلى نفس النتيجة. ولا أرى في الأمر سراً عصياً عن الكشف[1].

آخر المطاف زهد الرومان حتى في التعبئة التي طالما ميزتهم، بل هجروا الأسلحة الخاصة بهم. يقول **ڤجيس** إن الجنود سئموا الدّرع ولبس الخوذة، فطلبوا من الامبراطور **غراتيان** إعفاءهم من ذلك[2]. أصبحوا من دون وقاء يحميهم من ضربات العدو، فتعودوا على الفرار.

يزيد المؤرخ الروماني أنهم أصبحوا لا يحرصون كما كانوا على تحصين معسكراتهم، فترتب عن هذا التهاون أن جيوشهم غدت لقمة سائغة لفرسان العدو.

كان عدد الفرسان في الجيش الروماني قليلاً مقارنة بعدد المشاة، بنسبة واحد لأحد عشر، بل غالباً ما يكون أقل. وهذا أمر مستغرب إذ العدد أكبر في جيوشنا الحالية، مع أن هذه تقوم بمحاصرة مدن كثيرة حيث لا تنفع الخيل. لما دبّ الانحطاط إلى الرومان أصبحوا لا يقاتلون إلا على الخيل.

---

(1) السبب الجلي في نظر مونتسكيو هو استبداد ملك الدانمارك. انظر أعلاه الفصل 15 المقطع 13.

(2) [69 ك 1 ف 20] م م

والصحيح عندي هو أنه كلما تفنّنت أمة في صناعة الحرب اعتمدت على المشاة، وكلما قلت خبرتها بهذه الصناعة لجأت إلى الخيالة. ذلك أن قوة المشاة في التعبئة والالتحام، أكان سلاحها خفيفاً أو ثقيلاً، في حين أن نجاعة الخيالة في الانتشار والتناثر[1]. فاعلية الخيالة في الاندفاع وصدم العدو فيما فاعلية المشاة في الصمود والثبات، بحيث إن دورهم ردّ فعل الغير أكثر من أخذ المبادرة. تأثير أولئك موقت، تأثير هؤلاء أدوم، لذلك لا بد لهم من التماسك والانضباط.

ساد الرومان على باقي شعوب الأرض ليس بسبب تفوقهم العسكري فقط، بل كذلك بما أظهروا من حكمة وصبر واحتراس، من تطلع للمجد ووفاء للوطن. لما فقدوا هذه المزايا، تحت حكم الأباطرة، احتفظوا بحنكتهم القتالية. لذلك، رغم الضعف الناجم عن طغيان أمرائهم، لم ينزع منهم شيء مما كان بأيديهم. لكن لما فسدت أحوال الجيش نفسه تحول الشعب الروماني إلى فريسة تنهشها الشعوب الأخرى.

امبراطورية أسست على السلاح لا تدوم إلا به. لكن كما أن القادة لا يرون مخرجاً لأزمة تجتاح بلادهم، كذلك، عندما تكون هذه تنعم بالهناء وكلمتها مسموعة، لا يتصور هؤلاء القادة أن الوضع قد يتغير يوماً. فيهملون الجيش النظامي، لا ينتظرون منه أي خير بل قد يرون فيه أصل كل شر، وغالباً ما يرومون إضعافه.

من المبادئ التي لم يحد أبداً عنها قدماء الرومان، أن كل من غادر موقعه أو ألقى سلاحه أثناء معركة، جزاؤه الإعدام. قام يوليان وڤالنتينيان بإحياء

---

(1) قام التتار على صهوة جيادهم، في كل الأزمنة ومن دون التقيد بأي من مبادئنا العسكرية، بأعمال جليلة. انظر أخبار غزوهم الأخير لبلاد الصين في [53]. م م الاحالة على ما كتبه المبشرون الكاثوليك عن الصين واليابان.

هذه القاعدة وما شابهها. إلا أن البرابرة المجندين في صفوف الجيوش الرومانية، كانوا لا يطيقون هذه الصرامة. عادتهم ، كعادة **التتار** اليوم، هي الفرّ من أجل الكرّ، إذ هدفهم من القتال النهب وليس المجد[1].

كان الانضباط من طبع الرومان الأوائل إلى حدّ أن قائداً أعدم ابنه الفائز لأنه استبق الأوامر. لكن بعد أن امتزجوا بالبرابرة فقدوا تلك الميزة ومالوا إلى الفردانية التي هي من خصائص تلك الأمم. من يتصفح أخبار **بليزار**[2] وحروبه ضد القوط، يلاحظ أن ضباطه كانوا دائماً على خلاف معه.

سولا وسرطوريوس، وهما في غمرة الحرب الأهلية، فضلا خطر الهلاك على فعل ما قد يفيد عدو روما **ميثريدات**. أما أثناء الأزمات اللاحقة فكلما رأى وزير أو أحد الكبراء أن اقتحام البرابرة أرض الامبراطورية يساعده على إنماء ثروته، أو إشفاء غليله أو تحقيق أطماعه، فتح لهم الباب من دون تردد، وتركهم يعيثون في البلاد الفساد[3].

في الدولة المشرفة على الهلاك تكثر المصاريف. فيضطر صاحبها إلى مضاعفة الجبايات، في وقت تكون فيه الرعية عاجزة أكثر فأكثر عن أدائها. هذا ما حصل للامبراطورية الرومانية حيث وصلت الضرائب في الأقاليم حدّاً لا يطاق.

---

(1) كانوا يرفضون القيام بواجبات الجندي الروماني. في واقعة فريدة، إرضاءاً **ليوليان**، أطاعوا أمره وشاركوا في تحصين بعض المواقع. انظر [8 ك 18]. م م

(2) قائد جيش يوستينيان الأول. استرد إيطاليا الجنوبية والجزر وشمال أفريقيا من أيدي البرابرة الجرمان. توفي سنة 565م.

(3) لا غرابة في هذا الأمر بعد طول الاحتكاك بأمم رحالة لا تعرف معنى كلمة وطن. كلما انهزمت في معركة انحاز جل مقاتليها إلى جانب الفائز وهاجموا إخوانهم. انظر وصف تصرف القوط بقيادة **ڤيتيسا** في [52]. م م

لنراجع ما كتبه **سالڤيان**[1] لكي نفهم فظاعة الوضع في تلك الحقبة[2]. تحت وطأة الجباة القاسية لم يعد أمام المواطن الروماني من مخرج سوى الهجرة إلى أرض البرابرة، أو التنازل عن حريته لفائدة أول شخص يتوخى ذلك.

هذا ما يفسر لنا ما حدث لاحقاً في بلاد **الغال**، السهولة التي رضخ بها السكان لتلك الثورة[3]، التي ميزت بين أمة نبيلة وأخرى عامية. لم يبدع البرابرة شيئاً عندما جعلوا من المواطنين عبيد الأرض، مرتبطين بصفة دائمة بمزارعهم. واصلوا ما كان ساري المفعول قبلهم، وربما في صورة أبشع[4].

(1) قس مسيحي عاش في مدينة مرسيليا. توفي سنة 484م.

(2) [56 ك 5]. انظر كذلك خطبة أحد الرومان ممن لجأ إلى **القوط** يصف فيها كم هو سعيد بينهم [51]. م م

(3) يقصد الثورة الفيودالية المنبثقة عن أعراف القبائل الجرمانية.

(4) [56 ك 5] وكذلك [33 ب، ج]. م م

الفصل التاسع عشر

عظمة أتيلا. أسباب توطين البرابـرة

لماذا انهار الجزء الغربي من امبراطورية الروم قبل الشرقي؟

تزامن انحلال الامبراطورية الرومانية مع انتشار الديانة المسيحية. فكان النصارى يلومون الوثنيين على هذا الانحطاط فيما يعزوه الوثنيون إلى العقيدة الجديدة. قال النصارى إن **ديوكليزيان** قوض أركان الامبراطورية بإشراك ثلاث زملاء في الحكومة[1]، إذ كل واحد منهم أراد أن يصرف الأموال ويجند الجيوش كما لو كان وحده على رأس الدولة. اختلت الموازنة بين النفقات والموارد. ارتفعت التكاليف إلى حدّ أرغم الفلاحين على مغادرة الحقول التي تحولت إلى غابات. أما الوثنيون فكانوا، من جانبهم، لا ينفكون ينددون بشعائر ومناسك غريبة لم يسبق أن سمع بها أي روماني. وكما كان الناس في الماضي يعزون فيضانات نهر **التيبر** إلى غضب الآلهة، فإن سكان روما المشرفة على الهلاك ربطوا مصائبهم باعتناق البعض دين محدث وهجرانهم المعابد التقليدية.

جاء أبلغ تعبير عن هذا الموقف في رسالة للعامل **سوماخ**[2] وجهها إلى

---

(1) [34]. م ع

(2) كان عاملاً على روما سنة 384م. توفي سنة 405م.

الأباطرة عندما طرحت قضية إلهة النصر[1]. ساق أقرب الحجج إلى عقول العوام والأكثر تأثيراً في نفوسهم. قال: «هل من سبيل لمعرفة أغراض الآلهة إلا من خلال استعراض تلك السلسلة الطويلة من السنين التي منّوا علينا فيها بالرخاء والسعادة؟ علينا أن نظل أوفياء لهذا الماضي المجيد. علينا أن نسير على خطى أبائنا الذين سعدوا هم أيضاً باتباع أبائهم. انصتوا لروما وهي تخاطبكم: أيها الأمراء العظام، آباء الوطن، احترموا ماضيَّ الطويل الذي حرصت فيه دائماً على إقامة شعائر الأجداد، تلك الشعائر التي أخضعت بها كافة شعوب الأرض، بها طردت **هنيبعل** بعيداً عن الأسوار. بها أخرجت غزاة **الغال** من **الكابطول**.. نود فقط أن تنعم بالسلام آلهتنا الوطنية ومن هم في مقامها من الأبطال[2]. لا نريد سجالاً عقيماً مما يحلو للعاطلين، لا نتوخى مواجهة أحد، نريد فقط أن نصلي لآلهتنا آمنين».

تصدى للرد على **سوماخ** ثلاثة كتّاب كبار. أولهم **أوروز** الذي ألف موسوعة تاريخية[3] أثبت فيها أن الأهوال التي ألمّت **بروما** الوثنية أعظم بكثير من التي يشكو منها وثنيو زمانه. الثاني **سالڤيان** الذي قرر أن الدمار

---

(1) [62 ك 10 رسالة 54]. م م كان الامبراطور **غراتيان** أمر بإزالة تمثال إلهة النصر من مبنى مجلس الشيوخ. فطلب **سوماخ** في رسالة مؤثرة من **ڤالنتيان** أن يعيدها إلى مقرها اعترافاً بعظمة روما الوثنية. خاب مسعاه بسبب معارضة الكنيسة بزعامة الأسقف امبرواز.

(2) آلهة محليون (Indigètes). هم في الحقيقة أبطال، مثل **إنياس** أو **رومولوس**، قدسوا بسبب إنجازاتهم الخارقة.

(3) هذا الكتاب هو الذي اعتمد عليه المؤرخون المسلمون، ضمنهم ابن خلدون، في سردهم أخبار روما القديمة من دون الانتباه إلى أنه يمثل رؤية الخصوم، إي أنه ردّ على الرؤية الرومانية الأصلية لتاريخ روما. لهذه النقطة أهمية كبرى فيما يتعلق بالنظرة العربية للتاريخ.

الناجم عن غزو البرابرة تكفير عن خطايا النصارى[1]. الثالث القس **أغوسطين** الذي ميّز بين مملكتين (سلطتين)، سماوية ودنيوية. فقال إن الرومان تحركوا في نطاق الثانية فقط، أبدوا فضائل بشرية أكسبتهم أمجاداً دنيوية تافهة في مستوى تفاهة تلك الفضائل ذاتها[2].

قلنا سابقاً إن الرومان في بداية توسعهم اتبعوا سياسة التفرقة إزاء الأمم التي تقلق راحتهم. لكن في السنوات الأخيرة لم يعد لتلك السياسة جدوى. لم يستطيعوا منع أتيلا[3] من اخضاع كل أمم الشمال، فضم إلى سلطانه مجموع المناطق التي تمتد من **الدانوب** إلى **الران**. بعد ذلك شرع في هدم جميع الحصون والمرافق التي شيدها الرومان على ضفاف النهرين. ثم فرض إتاوة سنوية على جزأي الامبراطورية، الشرقي والغربي.

كان يقول بوقاحة: **ثيودوز**[4] ولد أب شريف جداً. مثله مثلي. لكنه يؤدي إلى غرامة، فلم يعد شريفاً بل هو مملوك لي. لا يحق له إذاً أن يقيم الحواجز في وجه مولاه كما يفعل العبد الخبيث[5].

في مناسبة أخرى قال: لا يليق بالأمبراطور أن يكذب. لقد وعد أحد أتباعي أن يزوجه ابنة **ساتورنيلوس**. إن أخلف وعده آذنته بالحرب، إن عجز عن الوفاء لأنه غير مطاع في مملكته قمت إلى مساعدته.

يخطئ من يظن أن **أتيلا** منّ على الرومان بالحياة حلماً واعتدالاً، بل اتبع فقط عرف قومه، إذ كان هدفهم استعباد الشعوب لا الاستيلاء عليها.

---

(1) [56]. م م

(2) [5]. م م

(3) ملك قبائل الهون.

(4) المقصود ثيودوز الثاني.

(5) [51]. م م

يصوره لنا **بريسكوس** جالساً في بيت من خشب، يتحكم في جميع الأمم الأعجمية[1]، وبصفة ما في معظم الشعوب المتمدنة. لا جدال في أنه ضمن كبار ملوك التاريخ.

يقصده سفراء الرومان، الشرقيين والغربيين، تارة ليتلقوا أوامره وطوراً ليلتمسوا منه العفو. يطالبهم مرة برد **الهون** اللاجئين عندهم أو العبيد الرومان الفارين من مملكته، ومرة أخرى يأمرهم بتسليم أحد وزراء الامبراطور. فرض على الامبراطورية الشرقية أداء ألفين ومائة رطل من الذهب، كما كان يتقاضى، بصفته قائد لواء في الجيش الروماني، راتباً قاراً. كلما أراد أن يكافئ أحد أعوانه أوفده إلى القسطنطينية لكي تغدق عليه الهدايا، متاجراً على الدوام بهلع الرومان.

يهابه أعضاء قومه كلهم ولا يكرهه، فيما يبدو، أحد منهم[2]. فخور إلى حدّ التبجح لكنه يلجأ أحياناً إلى المكر. سريع الغضب لكن، عند الحاجة، ميّال إلى الصفح أو تأجيل العقاب. يتحاشى القتال إذا رأى في السلم فائدة واضحة. يخدمه بوفاء حتى أتباعه من الملوك. وسط بطانته احتفظ وحده بالتقشف الذي ميّز دائماً قومه. أخيراً لا حاجة لي أن أذكر شجاعته وهو يقود أمة يغار صغارها من مفاخر أبائهم، ويحزن الأباء لعجزهم عن مجاراة أبنائهم.

بعد وفاة **أتيلا** تفرقت من جديد الأمم التي توحدت مؤقتاً تحت رايته، لكن الرومان كانوا في حالة وهن جعلت كل شعب مهما صغر قادراً على النيل منهم.

لم تسقط الامبراطورية عقب غزوة واحدة بل انهارت إثر سلسلة من

(1) [29 مقتبس من 51]. يبدو أن أتيلا كان ينوي غزو بلاد الفرس. م م

(2) راجع [29] و[51] في شأن أخلاقه وسلوك حاشيته. م م

الغزوات المتوالية. بعد الهجمة الكبرى التي حدثت أيام **غالوس** بدا وكأن الوضع سائر إلى الاستقرار، إذ لم يضع من أقاليم الامبراطورية شيء، لكن منذ أن ظهرت عليها بوادر الانحلال سرى في جسمها الوهن تدريجياً إلى أن هوت بغتة تحت حكم **أركاديوس وهونوريوس**.

عبثاً طرد الرومان البرابرة إلى بلادهم إذ كانت تلك العودة ضرورية في كل حال بهدف تأمين المغانم. عبثاً أثخنوا فيهم بالقتل. رغم كل هذا ظلوا يدمرون الأمصار، يحرقون القرى، يبدّدون العشائر أو يفتكون بها[1].

كلما نهبت جماعة إقليماً ثم جاءت بعدها أخرى ولم تجد شيئاً اجتازت إلى الإقليم الذي يليه. لم تخرب في البدء سوى **تراقيا وموزيا وپانونيا**. ثم لما صارت هذه الأقاليم صحراء جرداء، جاء دور **مقدونيا وتساليا** واليونان وأخيراً **نوريكا**. انكمشت الامبراطورية، أي الأرض الآهلة، إلى حدّ أن أصبحت إيطاليا متاخمة لوطن البرابرة.

لماذا لم يستقر البرابرة داخل الامبراطورية أيام غالوس **وغاليان**؟ لأنهم كانوا لا يزالون يجدون ما ينهبون.

مثلهم مثل **النورمان** في العهود اللاحقة. طرقوا طوال قرون أرض فرنسا ونهبوها. ثم لما لم يعد ما يُنهب تسلموا مقاطعة فارغة من السكان واقتسموها بينهم[2].

كانت **سقوطيا**[3]، مسكن القوط الأوائل، في ذلك الزمان أرضاً قاحلة[4].

---

(1) كان **القوط** أمة عاتية بامتياز. أثناء زحفهم على إقليم **تراقيا** قتلوا كل من وجدوه يزرع الأرض وقطعوا يدي كل من رأوه يقود عربة. انظر [14 ج]. م م

(2) انظر حال نورمانديا نهاية القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادي في [20]. م م

(3) لفظ (Scythe) مشوه كثيراً عند الكتّاب المسلمين. بدا لنا أن نعود إلى اللفظ اليوناني (Skutaï) الذي يشير إلى علاقة محتملة بالقوط.

(4) ذكرنا سابقاً أن القوط كانوا يجهلون الزراعة. لذا أسماهم **الوندال تُرُولَس** من اسم

تتوالى على سكانها المجاعات لا يتغلبون عليها إلا عبر التجارة مع الرومان[1]. يجلب هؤلاء الحبوب من الأقاليم المجاورة، ويبيعونها لهم مقابل ما بأيديهم من مغانم وأسرى، أو ذهب وفضة الإتاوة التي يتقاضونها من الامبراطور. لكن لما عجز هذا عن أداء تلك الإتاوة بالقدر الكافي لتأمين مؤونة **القوط**، اضطر هؤلاء إلى ولوج المناطق الرومانية والإقامة فيها[2].

لماذا انهار الجزء الغربي من الامبراطورية الرومانية قبل الجزء الشرقي؟ هذه هي الأسباب:

لما اجتاز البرابرة الدانوب، وجدوا على شمالهم البوسفور والقسطنطينية وبالتالي جيوش امبراطور الشرق التي منعتهم من التقدم. عندها ولوا وجوههم نحو اليمين أي نحو إقليم **إيليريا**، فاندفعوا صوب الغرب. انسابت الأمم والشعوب كسيل جارف في هذا الاتجاه. كانت إذاً منافذ آسيا محروسة حراسة محكمة فمالت الهجمة تجاه أوروبا. وهذه الهجمة خالفت تلك التي تمت أيام **غالوس**، حيث توزعت آنذاك جحافل الغزاة بين الشرق والغرب.

وبما أن الامبراطورية الرومانية كانت مجزأة بالفعل إلى امبراطوريتين، شرقية وغربية، كان أباطرة الشرق المتحالفين مع البرابرة لا يودون نقض أحلافهم بإغاثة زملائهم في الغرب. هذا الانقسام في الإدارة ألحق أكبر

كيل صغير يكيلون لهم به القمح بثمن باهظ أثناء المجاعات. انظر [47 ك 30]. م م

(1) أقيمت أسواق على ضفاف الدانوب باتفاق بين الجانبين. انظر [51]. م م

(2) طلب القوط من الامبراطور زينون أن يبرم حلفاً مع **ثيودوريك بن ترياريوس** مثل الذي سبق أن أبرمه مع **ثيودوريك بن بالمر**. استشار الامبراطور الشيوخ الذين أجابوا أن الخزينة عاجزة عن تموين شعبين في نفس الوقت. فلا بدّ من التحالف مع أحدهما دون الآخر. انظر [14 ج]. م م

الأضرار بمصالح الغرب بحسب قول **بريسكوس**[1]. رفض رومان الشرق مساعدة إخوانهم الغربيين بأسطولهم البحري، حتى لا ينقضوا حلفهم مع **الوندال**[2]. أبرم **الڤيزيقوط**[3] عقداً مع امبراطور الشرق **أركاديوس**، ثم مالوا على الجزء الغربي من الامبراطورية. ففرّ **هونوريوس**، امبراطور الغرب، لاجئاً إلى **راڤنه**[4]. بعد ذلك أراد خلف أركاديوس الامبراطور زينون التخلص من **ثيودوريك**، ملك القوط الشرقيين، فأوعز إليه بغزو إيطاليا التي سبق أن أنهكتها غارات **ألاريك**[5].

كان هناك تحالف متين بين **أتيلا** وملك الوندال **جنسريك**[6]، الذي كان يهاب كثيراً **القوط**[7]. سبب ذلك أنه زوّج أحد أولاده بابنة ملك القوط ثم ردّها عليه بعد أن جدع أنفها. فارتمى، خوفاً من نقمة هذا الأخير، في أحضان أتيلا. نتج عن هذا الوضع أن كلا الامبراطورين الرومانيين وجد نفسه مقيداً بحلفه مع أحد الملكين المذكورين، فلا يجرؤ على مساعدة زميله. العنصر الأضعف في هذه المعادلة هو بالطبع امبراطور الغرب لعدم امتلاكه قوة بحرية إذ كل الأسطول الروماني مركّز في الشرق[8]، في مصر وقبرص **وفينيقيا وأيونيا** واليونان، أي في مواطن البلدان التي احتكرت تجارة ذلك العهد. تعوّد **الوندال** وغيرهم من البرابرة طرق شواطئ أوروبا

(1) [51 ك 2]. م م
(2) نفس المرجع.
(3) القوط الغربيون.
(4) [52 ج]. م م
(5) أمير القوط الغربيين.
(6) [51 ك 2]. م م
(7) [29 ف 36]. م م
(8) ثبت ذلك أثناء مواجهة **قسطنطين** لمنافسه **ليقينيوس** مطلع القرن الرابع الميلادي. م م

متى شاؤوا من دون أن يجدوا أدنى مقاومة. فجاءت سفارة من إيطاليا لتقول لامبراطور القسطنطينية إن عليه أن يهادن **الوندال** لكي يستقيم الوضع في الغرب[1].

لم يكن حكام الغرب أغبياء. رأوا أن أوكد واجباتهم حماية إيطاليا، رأس وروح الامبراطورية. فوجهوا الغزاة إلى الأطراف وحثوهم على الإقامة هناك. كانت الخطة حكيمة ونفذت بذكاء. لم تكن الأمم الطارقة تهدف سوى إلى تأمين قوتها. فُوتت لها السهول دون المرتفعات ومجازات الوديان والمضائق والحصون المطلة على الأنهار. احتفظت الامبراطورية بكل هذه المواقع كدليل على إمساكها بالسيادة. كل القرائن تشير إلى أن الوافدين كانوا سيتحولون بعد حين إلى رومانيين. احتمال جد وارد كما يدل على ذلك ما حصل لاحقاً إذ خضع **القوط** بكل سهولة للإفرنج أولاً، للبيزنطيين ثانياً وأخيراً للعرب. فشلت الخطة تماماً لسبب عارض، ثورة كانت أشد خطورة وضرراً من كل ما سبقها، هي أن الجنود المرابطين في إيطاليا، ومعظمهم برابرة غرباء، ألحوا على أن يتمتعوا بنفس الامتيازات التي منحت لبرابرة آخرين أقل اندماجاً منهم. بقيادة **أودؤكر**[2]، استولوا على ثلث مساحة إيطاليا وأقاموا فيها أرستقراطية من نمط جديد ضربت في الصميم الامبراطورية الرومانية الغربية.

تحت وطأة هذه الفواجع المتلاحقة، يتذكر بغتة المرءُ المدينة روما ويحن إلى معرفة مصيرها. كانت في الحقيقة غير محروسة، يسهل على أي كان حصارها وتجويع أهلها. حمايتها عسيرة لطول أسوارها، واقتحامها

---

(1) [52 ب ك 2]. م م

(2) ملك شعب الهيرول. أنعم عليه بلقب **باطريس** يحمله صاحب خطة في البلاط الامبراطوري، قبل أن يقدم على عزل آخر أباطرة الغرب. توفي سنة 493م.

يسير لوجودها في وسط بسيط. لا نجدة في من بقي من سكانها المتناقصين. لكل هذه الأسباب غادرها الأباطرة مضطرين ولجؤوا إلى مدينة **رافنّه** التي كانت، مثل البندقية اليوم، معزولة عن البر بمياه البحر.

بدأ شعب روما، بعد أن تخلى عنه حكامه، يتصرف كما لو كانت بيده السيادة المطلقة. سار على النهج الذي يؤدي عادة إلى الاستقلال. أبرم معاهدات تضمن له الأمن[1]. نفس النهج الذي مكّن فيما بعد إقليمي **أرموريكا**[2] **وبروطانيا**[3] من العيش مستقلين تحت قوانينهما الخاصة[4].

هكذا انتهى عهد الامبراطورية الرومانية الغربية. نمت روما لأنها خاضت حروبها على التوالي. من حسن حظها، وهي حال فريدة في التاريخ، لم تهاجمها أمة إلا بعد أن تكون قد تخلصت من مهاجم سابق. فلما تصدت لها كل الأمم مجتمعةً واقتحمت أراضيها دفعة واحدة، عندها قضي عليها بالاندثار.

---

(1) في عهد هونوريوس حاصر **ألاريك** روما وأجبرها على التحالف معه ضد الامبراطور من دون أن يعترض هذا الأخير على ذلك. انظر [52 ج ك 1] و [72 ك 6]. م م

(2) مقاطعة بريطانيا الفرنسية حالياً.

(3) انجلترا حالياً.

(4) [72 ك 6]. م م

الفصل العشرون

يوستينيان: فتوحاته وحكومته

دخل البرابرة إلى أراضي الامبراطورية الرومانية بصفة عشوائية. فكان بعضهم يزاحم البعض. فتلخصت سياسة الأباطرة الروم[1] في تحريض قوم على قوم. وسهل عليهم ذلك لما جبل عليه الغزاة من شراسة وبخل. كانت الجماعة منهم تفني التي سبقتها حتى قبل أن تحل محلها. مما زاد في عمر امبراطورية الشرق.

ثم إن الصقع الشمالي فرغ تدريجياً من السكان. فلم يعد يلفظ الجحافل الكبيرة كما كان يفعل في السابق. بعد الزحف الأول، لا سيما بعد وفاة **أتيلا**، قلّت هجمات **القوط والهون** والأقوام التي تلتهما.

توحدت هذه الأمم في شكل فيالق من أجل القتال، لكن بعد الانتصار عادت وتفرقت إلى شعوب مستقلة. فضعفت بذلك، وتوزعت على الأوطان المفتوحة فأصبحت بدورها عرضة للغزو.

في هذه الظروف شرع **يوستينيان** في استعادة ما ضاع من أجزاء الامبراطورية في افريقيا وإيطاليا، تماماً كما فعل أجدادنا الفرنسيون بنجاح عندما استرجعوا ما أخذه **الڤيزيقوط** ثم **البورغينيون** ثم **اللومبارد** ثم **العرب**.

(1) يميز المؤرخون العرب بين الروم والإفرنج، كما يميز الغربيون بين الامبراطورية الرومانية الشرقية، لغتها اليونانية وقاعدتها القسطنطينية، والامبراطورية الرومانية الغربية، لغتها اللاتينية وقاعدتها روما.

لما بلغت الدعوة المسيحية البرابرة الجرمان كانت نحلة **أريوس**[1] هي الغالبة في ربوع الامبراطورية. والدعاة الذين أرسلهم الامبراطور **ڤالنس** لإرشادهم كانوا من تلك النحلة بالذات. لكن أثناء الفترة الفاصلة بين تنصير البرابرة وتوطينهم داخل الامبراطورية اضمحلّت النحلة الأريوسية، ولم يعد لها تأثير على العامة، لذلك لم يتمكن الحكام البرابرة وهم أريوسيون من كسب ولاء رعاياهم المتشبّثين بتعاليم الكنيسة الرسمية. فسهل على الأباطرة تأليب السكان عليهم.

ثم لم يكن لهؤلاء البرابرة خبرة بمحاصرة الأمصار وتحصينها. فأهملوا الأسوار وتركوها تنهار. هذا ما صرح به **پروكوپ** عندما وصف حال إيطاليا لما دخلها **بليزار**. أما مدن أفريقيا فكان **جنسريك** أمر بهدم أسوارها عند استيلائه على البلد[2]، كما فعل بعده **ڤيتيسا** في إسبانيا، وذلك لإجبار السكان على الخضوع ولزوم الطاعة[3].

ما أن استوطنت هذه الأقوام الآتية من الشمال أرض الجنوب حتى تعودت على نعومة العيش وعلى البطالة، فأصبحت لا تتحمل متاعب الحرب[4]. انغمس الوندال في جميع أشكال الملذات حتى عادوا لا يتصورون الحياة بدون أكل لذيذ، ولباس ناعم، واستحمام وطرب ورقص وبساتين وملاعب.

يقول **مالخوس** إن الروم لم يعودوا يهابونهم[5] لمّا لاحظوا أنهم

---

(1) قس من الاسكندرية توفي سنة 336م. نفى ألوهية الابن (يسوع) وبالتالي وحدة الثالوث. سفّه رأيه مجمع نيقية سنة 325م ثم مجمع القسطنطينية سنة 381م.

(2) [52 ج ك 1]. م م

(3) [36 ث 6 ف 19]. م م

(4) [52 ج ك 2]. م م

(5) في عهد هونريك. م م. هونريك هو ملك الوندال توفي سنة 484م.

لا يعدون جيوشاً جاهزة على الدوام للهجوم كما كان يفعل **جنسريك** الذي كان يباغت باستمرار أعداءه ويذهلهم بالسرعة التي كان ينفذ بها مشاريعه(1).

كان فرسان روما يتقنون الرمي بالقوس في حين أن **القوط والوندال** لا يحاربون إلا بالسيف والرمح، فلا يستطيعون أن يقاتلوا عن بعد(2). اعترف بليزار أن سرّ انتصاراته يكمن في هذا الفارق.

استفاد الروم كثيراً، لا سيما في عهد يوستينيان، من خدمة الهون، الأمة التي انحدر منها فرس عهد المماليك(3). منذ أن ضعفت شوكتهم، بعد هزيمة أتيلا وتمزّق مملكته بسبب تنازع أبنائه الكثيرين، تحولوا إلى مرتزقة في خدمة الروم. فكانوا خير فرسانهم.

لكل أمة من البرابرة سلاحها وأسلوبها الخاص في القتال(4). لا أحد يتفوق على القوط والوندال في المقارعة بالسيف. لا أحد يجاري **الهون** في الرمي بالقوس. لا مشاة أصلب من **السُويف**. لا جيش أثبت من **اللّان** بسلاحهم الثقيل، ولا أنجع من **الهرول** بسلاحهم الخفيف. كان إذاً بوسع الروم أن ينتقوا من كل أمة ما يوافق أغراضهم ويكونون فيلقاً متوازناً يحاربون به كل أمة على حدة بمزايا كل الأمم الأخرى.

قد نستغرب أن تكون الشعوب الأقل عدداً هي التي استولت على أكبر الأقاليم. نخطئ كثيراً عندما نستنتج من اتّساع الفتوحات قوة الغزاة. أثناء

(1) [14 ج]. م م

(2) رماة القوط يحاربون على الأقدام وبدون تدريب. انظر [52 1/ج ك 1] و [52 2/ج ك 2]. م م

(3) الفارط في عرف الرومان. انظر الفصل الخامس ص 60 ملحوظة 1

(4) يسوق مؤلف [29] معلومات دقيقة في هذا الباب عندما يتعرض للحرب بين أبناء أتيلا وأمة الجيبد. م م

غارات البرابرة كانت بعض الأقوام، بل بعض السرايا، بحسب الظروف، إما تُستأصَل وإما تَستأصِل أعداءها. وفيما تعترض حواجز طبيعية أو مقاومة عنيفة الأمة الكبيرة كانت ثلة من المغامرين، إذا انبسطت أمامها الأرض، تتوغل فيها وتدمرها بالكامل. انهزم **القوط** أمام أمم عديدة بسبب رداءة سلاحهم، ورغم ذلك استوطنوا إيطاليا وغاليا وإسبانيا. **والوندال**، وعياً منهم بالضعف، غادروا إسبانيا وعبروا المضيق ليقيموا في أفريقيا دولة كان لها شأن.

لم يستطع يوستينيان أن يجهز ضد الوندال أكثر من خمسين سفينة حربية. والجيش الذي قاده بليزار لغزو أفريقيا لم يتعدّ خمسة آلاف مقاتل[1]. كانت هذه الحملة تمثّل مخاطرة واضحة، إذجهز سلف يوستينيان، الامبراطور ليون، ضد نفس العدو كل مراكب الشرق وشحنها بمائة ألف مقاتل، ورغم ذلك عجز عن إستعادة أفريقيا، بل كاد أن يضيّع الامبراطورية كلها.

نسجل بهذه المناسبة أن الأساطيل الضخمة، مثل الجيوش الجرارة، قلّ ما تضمن لصاحبها النصر. إن طال أمدها استنفدت موارد الدولة، إن نزلت بها كارثة تعذر إصلاحها أو إنقاذها، إذا تضرر قسم منها تعطل الكل إذ سفن الحرب ومراكب الشحن والخيالة والمشاة والعتاد الخ، أجزاء مترابطة لا فائدة في بعضها إن لم تكن كلها جاهزة. ثم إن مدة التجهيز تطول فيتسرب الخبر إلى العدو الذي يستعدّ عندئذ للمواجهة. زد على ذلك أن الحملة قلما تصادف الفصل المناسب. لا تستكمل الترتيبات إلا شهوراً بعد الأجل المحدد، فغالباً ما يكون إبان العواصف قد أطلّ.

---

(1) [52 2/ج ك 2]. م م

اقتحم **بليزار** أرض أفريقيا مستمداً الميرة من صقليا تنفيذاً لاتفاق أبرمه مع **أمالاسونته** ملكة **القوط**[1]. أثناء حملته على إيطاليا لاحظ أن القوط يستوردون كل قوتهم من صقليا فبادر بغزوها. وهكذا منع الميرة عن أعدائه فيما أمن لجنوده كل احتياجاتهم.

استولى على **قرطاج** وروما **ورافنه**. ساق ملوك **القوط والوندال** مكبّلين إلى القسطنطينية التي أحيت بالمناسبة، وبعد انقطاع دام عقوداً من الزمن، **حفلات النصر**[2].

تعود كل انتصارات بليزار إلى خصاله الشخصية[3]. عاد وطبق تراتيب وضوابط روما القديمة فأقام بذلك جيشاً يضاهي جيوشها المظفرة[4].

عندما ينتشر الرق في مجتمع ما، غالباً ما تقل فيه أو تنعدم بالمرة الأخلاق السامية. لكن طغيان **يوستينيان** عجز عن خنق همة بليزار أو طمس عبقريته.

وشاء القدر أن يزدان هذا العهد بخادم ممتاز آخر هو **نارسيس** الخصي. نشأ داخل القصر فحظي أكثر من غيره بثقة الامبراطور إذ من عادة الأمراء أن يروا في رجال بطانتهم أوفى رعاياهم.

بعكس هذين الرجلين كان يوستينيان من طينة مخالفة. سيىء السلوك، مفرط السخاء، مجبول على الظلم والتعسف، مولع بالبناء والترميم والتجديد، متقلّب المزاج، يقود حكومة امتزجت فيها القسوة بالضعف

---

(1) كانت وصية على العرش من سنة 526 إلى 534 م. اغتالها نبلاء قومها لميلها إلى سياسة بيزنطة.

(2) لم يسلم له الامبراطور إلا بنصر أفريقيا. م م

(3) [60: مادة بليزار]. م م

(4) ملاحظة لا تتفق مع ما جاء سابقاً عن عدم انضباط أتباع بليزار له.

وتفاقمت أضرارها مع طول شيخوخة الامبراطور. كل ذلك جرّ على الناس مصائب حقيقية في ظل فتوحات عقيمة ومجد زائل[1].

وهذه الفتوحات، الناتجة عن ظروف عابرة وليس عن قوة ثابتة، تسببت هي نفسها في إتلاف كل شيء. فيما كانت الجيوش مشغولة بها، اجتازت الدانوب أقوام لم يسمع اسمها من قبل. دمرت **إيليرا ومقدونيا** واليونان. في نفس الوقت قام الفرس بأربع غارات على سوريا ألحقت بها خسائر فادحة[2].

بقدر ما كانت فتوحات يوستينيان سهلة كان الحفاظ على مكاسبها شاقاً. ما إن تمّ غزو إيطاليا وافريقيا حتى اضطر الروم إلى غزوها مجدداً.

تعرّف الامبراطور في أحد المسارح على راقصة تعاطت فيه طويلاً إلى البغاء[3]. هام بحبها فتحكمت في مشاعره بكيفية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً. أقحمت في سياسة الدولة الأهواء والنزوات المعهودة في تصرف النساء. بسبب هذا التأثير فسد كل نصر وفي كل حادث انقلب السعد إلى شؤم.

في بلاد الشرق، ومنذ أقدم العصور، ينكح الرجل عدة نساء، وذلك للحدّ من تلك الدالّة العجيبة التي تملكها الأنثى على الذكر في ذلك الصقع[4].

---

(1) تعريض بما آلت إليه حال فرنسا آواخر حكم **لويس الرابع عشر** الذي كان مفتوناً بمظاهر العز والعظمة.

(2) كان كلا الامبراطورين، الفارسي والروماني، يبالغ في تدمير أرض خصمه علماً منه أنه لا يستطيع الحفاظ عليها. م م

(3) هي الامبراطورة ثيودورا. م م . عاشت من 527 إلى 541م.

(4) ألح مونتسكيو، لا سيما في روح القوانين، على أهمية نظام الأسرة وأثره في تطور المجتمع. ربط انحطاط الدول الإسلامية بالاستبداد السياسي ثم ربط هذا الاستبداد بالمناخ وبنظام الأسرة.

لكن دستور القسطنطينية يمنع هذا النهج، فتكتسب الزوجة الواحدة هيمنة مطلقة على زوجها، الأمر الذي يوهن أحياناً الحكومة.

افترق جمهور عاصمة الروم دائماً إلى حزبين يلقّبان بالزُرق وبالخُضر. سبب ذلك تعلق مشاهدي المسارح ببعض الممثلين من دون غيرهم. أثناء مسابقات عربات الخيل، التي كانت تقام في الميدان، كان الحوذي يرتدي إما اللون الأزرق وإما اللون الأخضر. فينتصر له هذا الفريق أو ذاك بحمية تصل إلى حدّ الجنون.

عمّ هذا التحزب جميع مدن الامبراطورية. كلما اتسعت مساحة إحداها وانتشرت فيها البطالة اشتد تعصب أهلها.

إلا أن الانقسام، الضروري في كل حكومة جمهورية إذ هو عمادها وضمان استمرارها، مضرّ لا محالة بالحكومة الامبراطورية إذ لا يترتب عنه سوى إبدال أمير بآخر، من دون العودة إلى سلطة القانون ومن دون محو مساوئ الجور.

كان هوى **يوستينيان** مع الزرق ولم ينصف أبداً الخضر. شجع هذا التحيز حقد كلا الحزبين على الآخر وبالتالي عزّز الاثنين[1].

في هذا الوضع ضاعت سلطة الولاة. الزرق لا يخشون القانون إذ الامبراطور يحميهم من أية متابعة، والخضر لا يحترمونه إذ لا يجدون فيه حامياً لحقوقهم[2].

بسبب هذا التحزب لم تعد للصداقة أو القرابة حرمة. لم يعد أحد يعبأ

---

(1) هذا داء قديم. يقول **سُويطون** إن **كاليغولا** كان يوالي الخضر ويكره الشعب لميله إلى الفريق الآخر. م م

(2) يروي مؤلف [65] تفاصيل نقاش دار داخل مبنى المسرح بين يوستينيان وحزب الخضر. يعطي صورة دقيقة للذهنية الغالبة في ذلك الزمن. م م

بواجب أو يقر بمعروف. هلكت أسر بكاملها من جراء انقساماتها الحزبية. كل شرير يخطط لسوء كان يناصر الزرق، وكل متضرر في نفسه أو أملاكه كان يوالي الخضر.

حكومة خرقاء إلى هذه الدرجة لا تتورع عن طرق جميع أبواب الشطط. لم يقنع الامبراطور بفرض ضرائب باهظة على الكل بل، علاوة على ذلك، خصّ كل فرد بحيف يمسّ حياته اليومية.

لا أميل بطبعي إلى تصديق كل ما جاء في كتاب **پروكوپ** المعروف **بالتاريخ السري**[1]، والذي يصف فيه **يوستينيان** بأنه أكبر طاغية عرفه التاريخ والأكثر بلادة وقسوة. يُضعف شهادته في هذا الكتاب اطراؤه المفرط في كتبه الأخرى.

مع هذا أجنح إلى تصديقه لسببين:

1. الأول أن ما يقوله يتماشى تماماً مع حالة الوهن المريبة التي صارت عليها الامبراطورية قبيل وبعد وفاة يوستينيان.
2. الثاني شاهد لا يزال قائماً إلى اليوم. أعني مجلة القوانين التي وقّعها الامبراطور المذكور، والتي تكشف أن قوانين الروم تغيّرت في ظرف سنين قليلة أكثر مما تغيرت قوانين مملكتنا الفرنسية طيلة ثلاثة قرون.

وهذه التغيرات تمس أشياء تافهة لا مسوغ لاهتمام المشرع بها[2]. اللهم إذا صدقنا ما جاء في **التاريخ السري** من أن الامبراطور كان يتاجر بالقوانين والأحكام.

بيد أن ما أوهن الدولة أكثر من أي شيء آخر هو إصرار الامبراطور على

(1) [52 د]. م م

(2) [33 و]. م م

أن يعتنق الجميع نفس العقيدة. وذاك في ظرف جعل من هذا التعنت تعدياً سافراً[1].

كما أن سلطة الرومان تعززت عندما رحّبوا بكل أنواع المناسك الدينية، تضعضعت تلك السلطة فيما بعد كلما أقدم المسؤولون عهداً بعد عهد على محق أية نحلة لم تسيطر على باقي النحل الأخرى.

في ظروف ذلك الزمن كل نحلة دينية كانت تتماهى مع قومية بعينها، أظلت تلك النحلة حية بعد الغزو الروماني، كاليهودية والسامرية، أو انتشرت في إقليم متميز فصارت عقيدة العامة فيه كنحلة **مونطان(وس)**[2] في فريجيا والثنائية[3] والسبّاتية[4] **والاريوسية في مناطق أخرى**. علاوة على أن غالبية السكان كانوا متشبثين بعقائدهم الوثنية المناسبة لعقولهم الساذجة.

قضى **يوستينيان** على جميع هذه النحل بحدّ السيف أو حرّم اعتناقها بموجب القانون. فألجأ أنصارها إلى الثورة عليه، وألزم نفسه بمحقهم بالقوة. وهكذا حوّل أقاليم شاسعة إلى صحارى قاحلة. ظن أنه يزيد من عدد المؤمنين الأتقياء، فإذا به يقلص عدد السكان.

يخبرنا **پروكوپ** أن أرض فلسطين أصبحت بيداء بعد تشريد السامرة. الغريب هو أن الامبراطور، انتصاراً لدين المسيح، خرب تلك المنطقة بالذات التي سيظهر فيها، بعد عقود قليلة، **العرب** ويمحون المسيحية منها[5].

---

(1) التعريض هنا أيضاً بالملك لويس الرابع عشر وسياسته الدينية القمعية.

(2) داعية عاش أواسط القرن الثاني الميلادي في منطقة **فريجيا** وسط تركيا الحالية.

(3) نحلة تكلم في شأنها طويلاً الكتاب المسلمون.

(4) نحلة من يوافق اليهود في هذه النقطة ويقول إن المسيح لم يلغها.

(5) قال بوسويه، الأسقف الفرنسي الكاثوليكي، إن امبراطورية أوغوست مهدت لنشر المسيحية طبقاً لمشيئة ربانية. يمكن القول، حسب نفس المنطق، إن انحطاط دولة

المحزن حقاً في الأمر، هو أن الامبراطور الذي وصل به التعصب المذهبي إلى هذا الحد، لم يكن يتفق في هذا المجال حتى مع زوجته. كان يقول بعقيدة مجمع **خلدكون**[1]، فيما أن الامبراطورة كانت على رأي مخالفيه، أكانوا، بحسب رواية **أفاغر**[2]، صادقين في قولهم أو منافقين.

عندما نقرأ عند **پروكوپ** تلك الجداول الطويلة التي تحصي بنايات **يوستينيان**، الحصون والقلاع التي شيدها في سائر الجهات، نتوهم أنه كان على رأس دولة مزدهرة. الاستنتاج فاسد.

لم تكن لقدماء الرومان حصون، إذ كانوا يعتمدون أساساً على بسالة جنودهم. يوزعونهم على طول الأنهار حيث يشيدون، على مسافات معلومة، أبراجاً يشحنونها بالمقاتلين.

لكن بعد أن ضعف الجيش وأحياناً تبدد، بل تبخر تماماً، عندها لم تعد الحدود تحمي الداخل، فلزم تحصين هذا الداخل[3]. كلما اضمحلت الجيوش تضاعف عدد الحصون. كلما تكاثرت الملاجئ قلّ الأمن.

الروم مهّد لنشر الإسلام طبقاً لمخطط إلاهي. إذا كان هذا ما يقصد إليه مونتسكيو، فإنه يساير موقفه العام من الكنيسة وتعاليمها.

(1) فسّق مجمع خلدكون (خلقدونيا) سنة 451م من ينفي ثنائية طبيعة المسيح، البشرية والربانية، ويقول إنها واحدة كما فعل أسقف الاسكندرية **ديوسْكوروس** المتوفى سنة 454م.

(2) [24 ك 4 ف 5]. م م

(3) أقام **أوغوست** تسع مناطق حدودية أو تخوم. ثم زاد عددها لاحقاً. ظهر الغزاة البرابرة في مناطق لم تسمع بهم من قبل. فارتفع عدد التخوم إلى ثلاثة عشر أيام **اسكندر سبروس** بحسب رواية **ديو كاسيوس** [18 ك 55]. في كتاب "**لمحة عن وضع الامبراطورية**" الذي يعود إلى عهد **أركاديوس وهونوريوس** وصل العدد، فيما يخص الجزء الشرقي وحده، خمس عشرة منطقة حدودية. ولم يزل العدد يرتفع إذ عدت من التخوم **پامفيليا، ليكونيا، پيسيديا**. فغطت التحصينات مجموع الامبراطورية. قبل ذلك كان **أوريليان** قد اضطر إلى تحصين روما نفسها. م م

لا تُعَمَّرُ الأرياف إلا إذا جاورتها حصون. لذلك شيدت القلاع في كل الأنحاء، كحال فرنسا عندما كانت تتعرض لغارات **النورمان**[1]. لم تكن أكثر وهناً وتفككاً، إلا حين كانت كل قراها مطوّقة بالأسوار.

هذه اللوائح الطويلة بأسماء الحصون التي شيدها **يوستينيان**، والتي سوّد بها **پروكوپ** صفحات كتابه، ليست سوى معالم تشهد على تفسّخ الامبراطورية.

(1) والانجليز كذلك. م م

الفصل الواحد والعشرون

اضطراب حال امبراطورية الشرق

في ذلك العهد كان الفرس أسعد حظاً من الروم. لا خطر عليهم من جهة الشمال، إذ كانت جبال الطوروس بين بحر قزوين والبحر الأسود، تفصلهم عن أمة الهون. وكانوا يتحكمون في المنفذ الوحيد المتاح للخيالة الذي كان ضيقاً جداً وينتهي إلى الأبواب القزوينية[1]. إن حاد المغيرون عن هذا المسلك سقطوا في مهاوٍ شاهقة.

وإذا ترجلوا فقدوا عماد قوتهم[2]. ثم يعترضهم نهر الأراس الذي يسيل في واد عميق من الغرب إلى الشرق، لا مشقة إذاً في حراسة معابره.

وكان الفرس أيضاً في مأمن من جهة الشرق. يحد البحر بلادهم جنوباً، وجيرانهم العرب منشغلون عنهم بغزو بعضهم البعض، إذ كان من السهل إذكاء نار الشقاق بين أمرائهم. لم يكن للفرس عدو حقيقي سوى الروم. هذا ما صرح به سفير ملكهم هرمزد[3]. قال: «نحن نعلم أن الروم يحاربون على جبهات شتى إذ عليهم أن يقاتلوا جميع الأمم، وهم يعلمون أننا لا نقاتل أحداً سواهم»[4].

---

(1) تعرف اليوم بشعب سردارة.

(2) [52 3/ج ك 1]. م م

(3) هرمزد الرابع أحد الملوك الساسانيين حكم من 578 إلى 590م.

(4) [37]. م م

وبقدر ما أهمل الروم صناعة الحرب، أولاها الفرس أهمية قصوى. قال بليزار لجنوده: «لا يمتاز عليكم الفرس بالشجاعة بل بالانتظام».

وكما كان للفرس تفوق عسكري كانوا يفاوضون الروم باستعلاء. بدعوى حراستهم **الأبواب القزوينية**، ألزموا خصومهم بدفع غرامة كما لو لم يكن من شأن كل دولة حماية حدودها. كل يوم يمرّ، أكان حرباً أو سلماً أو هدنة أو راحة أو مفاوضة، كانوا يطالبون تعويضاً عنه.

عبر **الأوار**، إحدى فرق البرابرة، الدانوب، فلم يعترضهم أحد إذ كان الروم منشغلين بمقاتلة الفرس كلما هاجم الأوار، وبمحاربة هؤلاء كلما أغار عليهم الفرس. اضطروا إلى مصالحة البرابرة على خراج معلوم. فضاعت هيبة الامبراطورية عند سائر الأمم.

اعتلى كرسي الحكم على التوالي **يوستين** ثم **تيبار** ثم **موريق**. بذل كل واحد من هؤلاء أقصى جهده لحماية الدولة. كان موريق يتحلى بفضائل كثيرة لولا ما كان فيه من بخل شديد لا يتصور مثله في أمير عظيم.

اقترح عليه ملك الأوار أن يطلق سراح جميع الأسرى الروم مقابل نصف قطعة فضة فديةً لكل فرد. رفض الامبراطور العرض فذبح الأسرى عن آخرهم. عند سماع الخبر ثار الجنود، وتزامنت ثورتهم مع فتنة أشعلها حزب الخضر. فاستغل الجيش الفرصة ونصّب امبراطوراً أحد قواد المائة يدعى **فوقاس** الذي أمر على الفور بقتل موريق وأولاده.

عندئذ لم تعد تسجل أخبار الامبراطورية اليونانية ـ هكذا نسمّي فيما يلي الامبراطورية الرومانية ـ إلا حوادث الشغب والتمرد والغدر. لم تعد الرعية تكن أدنى قدر من الولاء لحكامها، بل لم تعد تعرف للكلمة معنى. عزّ التوارث الطبيعي إلى حدّ أن الأمير المولود على فراش أبيه الجالس

على العرش خصّ بلقب وليد الفرفر[1]. وما أقل من أطلق عليه ذلك اللقب بين ولاة القسطنطينية!

وللوصول إلى الحكم استغل كل طامح أية جماعة وجد فيها سنداً له: الجيش، الكنيسة، مجلس الشيوخ، جمهور الفلاحين، دهماء العاصمة، رعاع المدن الأخرى، إلخ.

لما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للامبراطورية، تعددت فيها الفرق الزائغة. فوجب التبرؤ من كل واحدة منها. نفى **أريوس** أن تكون الكلمة ربّاً، **والمقدونيون**[2] أن يكون الروح القدس إلهاً، **ونسطوريوس**[3] أن تكون للمسيح طبيعة واحدة، **ويوتوشس**[4] أن تكون له طبيعتان، **والمونوتليتيّون**[5] أن تكون له مشيئتان. دُعيت المجامع لتنظر في صحة كل مقالة، اتخذت في شأن كل واحدة قرارات لم تحظ بإجماع فوري. فبدا لبعض الأباطرة فيما بعد إحياء أراء مرفوضة وعملوا على نشرها مجدداً. وبما أن اليونان أكثر أمم الأرض بغضاً للمارقين، إذ يرون في مساكنتهم أو مخاطبتهم تدنيساً لعقيدتهم، فقد عدد كبير من الأمراء لهذا السبب ولاء الرعية. ورسخ في أذهان الناس أن الخالق لا يمكن أن يأتمن على خلقه ولاةً يكثر فيهم العصيان والغي.

---

(1) Porphyrogénète.

(2) أنصار **مقدونيوس** بطريق القسطنطينية. عزل من منصبه سنة 360 ورفضت مقالته سنة 381م.

(3) رئيس الكنيسة النسطورية المعروفة لدى الكتاب المسلمين. عزل من منصبه كبطريق القسطنطينية سنة 431م، توفي سنة 451.

(4) (Eutyches) قس عاش في القسطنطينية من حوالى 378 إلى حوالى 450م. عارض نسطوريوس.

(5) مقالة تحاول التوفيق بين القائلين بثنائية طبيعة المسيح والقائلين بوحدانيتها. أوحى بها الامبراطور هرقل صدر القرن السابع الميلادي. انتصر لها البطريق سرجيوس. واجهت معارضة قوية ثم رفضها مجمع القسطنطينية الرابع سنة 680م.

في نفس الوقت انتشرت مقالة تقرر أن دم المسيحي حرام على أخيه، لا سيما بعد ظهور الإسلام. واستصغر الحكام كل جريمة لا تمس العقيدة الصحيحة. من أثار فتنة أو اعتدى على شخص الحاكم يعاقب بفقء عينه أو جدع أنفه أو جز شعره أو بتر أحد أعضائه[1]. في غياب رادع أشد استهان الكثيرون هذه الاعتداءات، إذ لا تمثل خطراً كبيراً عليهم، بل لا تتطلب منهم شجاعة فائقة.

زد على هذا احترام العامة لشارات السلطة. كل امرئ تجرأ وتحلّى بها لفت الأنظار إلى شخصه في الحين. حيازة ثوب الفرفر جريمة، كذلك ارتداؤه في المنزل. لكن متى ظهر به إنسان في الشارع تجمهر حوله تواً المارة إذ كان الناس في تلك العصور يقدسون اللّباس لا لابسه.

ثم عمّ هوس عجيب جعل كل فرد يتوق إلى أعلى المناصب. ما من رجل ذي شأن إلا وبيده نبوءات تعده بالملك.

الحمق داء لا دواء له[2]. اعتاد الوثنيون الكشف عن الغيب بفحص أحشاء القرابين وتتبع سير الطيور. أبْطلت النصرانية هذه العادات لكنها عوضتها بالتنجيم والكهانة، بتأويل ما يطفو على وجه أحواض الماء. بسبب هذه الوعود الكاذبة أقدم المتهورون على مغامرات من شتى الأنواع وجرى الأمراء وراء مشاريع وهمية زيّنها لهم نصحاؤهم.

تلاحقت الكوارث على الامبراطورية، كل واحدة أفظع من سابقتها. فربط الناس تلقائياً هزائم الحروب وغبن المفاوضات بتصرفات الولاة المشينة. كل ثورة تبرر التي تليها، نتائج الأولى تدعو إلى اندلاع الثانية. رأى الروم أسراً من مختلف السلالات تعتلي العرش، فلم يتعلقوا بأية

(1) شجع الامبراطور زينون هذا التسامح. انظر [14 ج]. م م

(2) [39 ب]. م م

واحدة منها. وبما أن الحظ حالف أفراداً من كل الطبقات وأوصلهم إلى دفة الحكم، لم يعد يوجد شخص، وإن كان خسيس الأصل ضعيف المواهب، يستصغر نفسه ويثنيها عن مراودة ذلك الحلم.

تحقق هذا الحلم للكثيرين، مرة تلو الأخرى، فرسخ الأمل في وجدان العموم، وطبع فيهم عادات طغت على سلوكهم كما لو كانت أوامر قاهرة.

يبدو أننا اليوم مقصرون، لا نستطيع أن نجاري القدماء في جرأتهم على المشاريع الكبرى. يصعب اليوم التخطيط لها سراً، إذ الأمم الحالية باتصال مستمر. لكل أمير ممثل لدى أقرانه، بل له عندهم عيون ومخبرون.

ثم إنشاء البريد السريع جعل الأخبار تطير وتصل إلينا من كل الجهات.

والمشاريع الكبرى تحتاج إلى مال وافر. مع انتشار تداول صكوك الاعتماد[1] التي هي بأيدي التجار، عادت مصالح هؤلاء لا تكاد تنفصل عن أسرار الدولة. فلا شغل لهم سوى تعقبها والتنقيب عنها.

كل اضطراب في سوق العملة، دون سبب جلي، يدفع الناس إلى البحث عن السر واكتشافه بعد حين.

وهناك الطباعة الحديثة التي وضعت الكتاب في أيدي الجميع، وتطور فنّ الرسم الذي عمّم استعمال الخرائط، وأخيراً الجرائد السياسية. كل هذه الوسائل تطلع الناس على المصالح العامة، فيستنتجون منها بسهولة المشاريع الخفية.

أصبحت المؤامرات ضد الدولة عسيرة، لأن هذه تملك البريد، فتطلع

---

(1) كومباليه.

على أسرار الأفراد.

يتصرف الحكام بالسرعة اللازمة لأنهم يملكون القوة الضرورية. أما المتآمرون فينقصهم كل شيء. فيضطرون إلى العمل ببطء. وبما أن أدنى مبادرة اليوم لا تظل سرية طويلاً، فإن أقل تردد من جانب المتآمرين يكفي لينشكف أمرهم[1].

(1) قارن مع ماكيافلي، **حواشٍ على عشرية تيت ـ ليف الأولى**، ك 3 ف 6.

الفصل الثاني والعشرون

ضعف الامبراطورية الشرقية

مع عموم الفوضى لم يستقم الأمر **لفوقاس**، فجاء **هرقل** من أفريقيا ووضع حداً لحكمه وحياته. وجد الأقاليم مخربة والجيوش مبعثرة.

ما استدرك بعض آثار هذه الكوارث حتى وثب **العرب** من معقلهم، لنشر دعوة النبي محمد وتوسيع الدولة التي أرسى قواعدها في نفس الوقت.

لم يسبق أن رأى التاريخ اجتياحاً تمّ بهذه السرعة. في رمشة عين استولى العرب على سوريا وفلسطين ومصر وأفريقيا ثم اقتحموا بلاد فارس.

رضي الرب[1] أن تمحى ديانته من هذه البقاع، لا لأنه تخلّى عن حمايتها بل لأنها، في حالتي التألق والهوان الظاهر، تقوم بنفس الوظيفة، تضفي القداسة على كل ما حولها.

لا تلازم البتّة بين عظمة الدين ومجد الممالك. قال مؤلف شهير[2] إنه يسعد عندما يمرض لأن المرض هو الوضع اللائق بالمسيحي المؤمن. لذلك يمكن القول إن الكنيسة تدرك ذروة المجد عندما تهان وتشتت وتدمر معابدها، ويمثل بشهدائها، وعندما تسود ويعمّ نفوذها يعتريها فتور وانحلال.

---

(1) يعني المسيح.
(2) **باسكال** في خواطر.

يجب ألا نرى في سرعة فتوحات العرب عامل الحماسة فقط، إذ كانوا منذ قرون يخدمون الفرس والروم كقوات مساعدة. اعتبروا دائماً، صحبة النبط[1]، من أجود رماة الأرض. لجأ إليهم الأباطرة **سبتيموس سبروس واسكندر سبروس وماكسيمان** وجندوا منهم أكبر عدد ممكن. استفادوا من نجدتهم ضد البرابرة الجرمان إذ كانوا يفتكون بهم عن بعد. أيام **ڤالنس** كان القوط لا يصمدون لهم[2]. بالجملة كانوا يعتبرون في تلك الفترة أقوى فرسان الدنيا.

قلنا سابقاً إن الكتائب الأوروبية في الجيش الروماني تتفوق دائماً على نظيراتها الآسيوية. هذا فيما يخص المشاة. أما بالنسبة للفرسان فالعكس هو الصحيح. أقصد هنا على وجه التدقيق خيالة أهل خراسان (Parthes)، عرب مضر (Osroènes)، وأهل السرات (Sarrasins). هذا الأمر هو ما أوقف زحف الرومان إذ انطلاقاً من عهد **أنطيوخوس** ظهر شعب آخر، **التتار**، له خيالة من أعلى طراز اجتاح بها آسيا العليا.

كان سلاح هؤلاء الفرسان ثقيلاً بخلاف سلاح الأوروبيين، الذي كان خفيفاً[3]، عكس حال اليوم. في تلك الأحقاب كانت أراضي **هولندا وفريزيا** غارقة تحت المياه[4]، وكانت ألمانيا مغطاة بالأشجار، مليئة بالبحيرات

---

(1) يعتمد مونتسكيو على المراجع اليونانية والرومانية، فيميز ثلاث مجموعات تنطق بالعربية. الأولى تسكن شمال سوريا، ديار مضر، هم (Osroènes)، الثانية تسكن شرق فلسطين وهم النبط (Nabatens)، والثالثة تقيم في شمال غرب الجزيرة العربية ويطلق عليهم اسم (Sarrasins). مزية الكل الفروسية.

(2) [72 ك 4]. م م

(3) انظر مقارنة بين فرسان **أوريليان** وفرسان تدمر في [72 ك 1] وفي شأن فرسان فارس [1]. م م

(4) قبل أن يجفف الإنسان المياه ويجعل الأرض صالحة للسكن. م م

والمستنقعات، فلم تكن للخيل منفعة في تلك المناطق.

فيما بعد مُهِدَت للأنهار الكبيرة مجاري قارة، فاختفت المستنقعات وتغير وجه ألمانيا، كما غيرت مناخها الأعمال التي أمر بها **فالنتينيان** على نهر **النكّار**[1]، وغيرُه من ولاة الرومان على نهر **الران**[2]. اتّسع مجال التجارة والأقاليم التي لم تكن تعرف الخيل فبدأت في استنجابها والانتفاع بها[3].

توفي **قسطنطين** ابن هرقل مسموماً، وهلك ابنه قسطان في صقليا، فاعتلى العرش قسطنطين الملحّى. رأى كبراء الأقاليم الشرقية أن يشرك في الحكم أخويه بحجة أن عقيدة التثليث تدعو إلى تتويج ثلاثة أباطرة.

ترهات من هذا القبيل لا تكاد تحصى في أخبار متأخري الروم. اهتموا بسفاسف الأمور وأداروا شؤون الدولة بذهنية متزمتة. نشبت الفتن بينهم بلا سبب وتوالت الثورات بلا مبرر.

عمّ التزمت وخارت الهمم، فدخلت الامبراطورية في سبات عميق. القسطنطينية هي البلد الوحيد في الشرق الذي اعتنق المسيحية، فمزج الورع بما عرف دائماً عن الأمم الآسيوية من جبن وتراخٍ وميوعة. من بين ألف مثال أذكر واحداً فقط: استعد **فيليبيكوس**، قائد جيش **موريق**، لمعركة حاسمة، فلما استحضر آلاف القتلى الذين ستسفر عنهم المواجهة، أجهش بالبكاء[4].

دموع من نوع آخر تلك التي جادت بها عيون **العرب** عندما عقد قائدهم هدنة مع العدو ومنعهم هكذا بسفك دماء أعدائهم[5].

---

(1) [1 ك 27]. م م

(2) لم يعد طقس ألمانيا بالبرودة التي وصفها القدماء. م م

(3) يقول قيصر: خيل الجرمان صغيرة وذميمة [10 ك 4 ف 2]. ويقول تاسيت: مواشي ألمانيا كثيرة لكنها صغيرة الحجم [63 د]. م م

(4) [66 ك 2 ف 3]. م م

(5) [41]. م م

شتان ما بين جيش متحمس وآخر متزمت، كما رأينا ذلك واضحاً أثناء ثورة شهيرة عندما كان مقاتلو **كروميل** في موقع العرب ومقاتلو **إيرلندا واسكوتلندا** في موقع الروم.

الدين الحق ينير العقول بقدر ما تعميه عقيدة فجة كالتي سادت في القسطنطينية، وربطت كل محاسن البشر وأعلى تطلعاتهم بولاء أعمى للتماثيل، إلى حدّ أن قواد الجيش رفعوا الحصار عن مدينة، وأجلوا عن أخرى[1]، بمجرد أن ظفروا بذخيرة مقدسة يتبركون بها.

لقد انحطت الديانة المسيحية في مملكة الروم إلى درجة من الابتذال تضاهي ما كانت عليه بلاد الروس قبل أن يدخل عليها أميرها الشرعي، القيصر **بطرس الأول**، إصلاحات لا يجرؤ عليها عادة إلا من دخل غازياً بلداً أجنبياً[2].

الواقع هو أن الروم ارتدّوا إلى شكل من الوثنية. لا أحد يدعي أن الإيطاليين والألمان في تلك الحقبة كانوا أقل تشبثاً من إخوانهم النصارى بشعائر دينهم. ومع ذلك كلما ذكرهم مؤرخو الروم، نعوا عليهم استخفافهم بالتماثيل والتصاوير والذخائر المقدسة، بعبارات لا تقل عنفاً عن التي هاجم بها كتّاب الكاثوليك خصمهم **كالفن**. يقول **نيقطاس**[3] إن الألمان، عندما مروا ببلاد الأرمن وهم في طريقهم إلى فلسطين، رحّب بهم السكان لأنهم لم يكونوا يعبدون التماثيل. إذا كان الطليان والألمان، في عين الروم، لا يقدسون كما يجب التماثيل، فإلى أي حدّ كانوا هم يقدسونها؟

أوشك الشرق (المسيحي) أن يعرف نفس الثورة التي اجتاحت الغرب

(1) [39]. م م

(2) كما فعل نابليون في ألمانيا وإيطاليا أو ليوطي في المملكة المغربية.

(3) [39]. م م

قبل قرنين لما أدرك الناس، غداة إحياء الآداب القديمة، ما طرق المجتمع من مغالاة وتسيّب. تلمس الجميع الدواء لهذه الأمراض، فأدى تجرؤ البعض وتنطعهم إلى تمزيق الكنيسة عوض إصلاحها[1].

أعلن الحرب على تقديس التماثيل كل من الأباطرة **ليون** (الثالث) و**قسطان** (الخامس) وابنه **ليون** (الرابع). وبعد أن أقرته من جديد الامبراطورة **ايرنة**، عاد لمحاربته **ليون** الأرميني (الخامس) و**ميخائيل** (الثاني) و**تيوفيل**. ظن هؤلاء الحكام أن لا وسيلة لكبح هذا الغلو في التعبّد إلا بالاستئصال. هاجموا الرهبان المشوشين على الدولة، وتمادوا في ذلك مفضلين سياسة القمع والتنكيل على محاولة المهادنة والترويض[2].

رمى الإصلاحيون الرهبان[3] بعبادة الأصنام، فأجاب هؤلاء أن خصومهم سحرة. قادوا الجماهير إلى الكنائس الفارغة من أية صورة أو ذخيرة للتبرك، وقالوا إنها لم تفرغ إلا لتقدم فيها القرابين للشياطين وأقنعوا الناس بذلك[4].

ما جعل النزاع حول التماثيل يشتد، وما منع العقلاء فيما بعد من إيجاد حلّ وسط وشعائر معقولة، هو أنه كان يرتبط بأشياء مادية محبّبة للنفوس. كان الأمر يتعلق بالسلطة التي ارتمى عليها الرهبان وعادوا لا يستطيعون الحفاظ عليها، أو تقويتها، إلا بالمزايدة المستمرة في ممارسة الطقوس

---

(1) الإشارة إلى الإصلاح الذي تزعمه **لوثر** و**كالفن** بداية القرن السادس عشر للميلاد، والذي أدّى إلى انقسام أوروبا الغربية إلى معسكرين متحاربين.

(2) سبق للامبراطور **ڤالنس** أن ألزم الرهبان بالخدمة العسكرية وأمر بإعدام من لم يمتثل لأمره. انظر [29 ج] و[33 ب ف 26]. م م

(3) لا يطال قولنا هذا الرهبنة كمؤسسة إذ لا يجوز أن نقول إن أمراً ما مضر لأن البعض أساء استغلاله في وقت ما أو مكان ما. م م

(4) [35 ب]، [35 ج]، [60: مادة قسطنطين بن ليون الثاني]. م م

المؤتمنون هم على إقامتها. فأصبحوا يرون في كل نقد لتقديس التصاوير طعناً في مكانتهم. كسبوا المعركة في الأخير وعندئذ تجاوز نفوذهم كل حدّ.

حصل آنذاك ما حصل بعد قرون قليلة أثناء النزاع بين **بارلام وأقيندين**[1] من جهة والرهبان من جهة أخرى، نزاع زعزع أركان الامبراطورية إلى حين سقوطها. تشاجر الناس في مسألة النور الذي أحاط بجسم المسيح في جبل طور، هل هو مخلوق أم أزلي[2]. لم يكن يعني الرهبان أن يكون الأمر هذا أو ذاك، لكن بما أن بارلام تحامل عليهم بعنف وكان يرى النور مخلوقاً لزم أن يكون في نظرهم أزلياً.

أثناء حملة الأباطرة المناوئين لتقديس التصاوير على الرهبان، عادت الدولة إلى أصولها. صرفت أموال الخزينة في مصالح العموم وتحررت أجهزتها من قيود كثيرة كانت تعيق سيرها.

عندما أرى هذا الجهل المطبق الذي فرضته الكنيسة اليونانية على أفراد المجتمع المدني، لا أملك إلا أن أتذكر ما رواه **هرودوت**[3] عن قدماء القوط الذين كانوا يفقؤون عيون عبيدهم حتى لا يلهيهم شيء عن مخض الحليب.

أعادت الامبراطورة **ثيودورا** التصاوير إلى أماكنها في الكنائس. فعاد الرهبان إلى التمادي والإسراف في استغلال تقوى العامة، بل اضطهدوا أعضاء الكنيسة المدنية. احتكروا منابر السلطة[4] وخطوة تلو الأخرى

---

(1) بارلام عاش من حوالى 1290 إلى حوالى 1350م. كان له تأثير في النهضة الإيطالية الأولى. غريغوريوس أقيندينوس عاش من 1300 إلى 1349م كتب كثيراً ضد غلاة المتصوفة اليونان. سفهت أراؤه رسمياً بعد وفاته.

(2) قارن مع مسألة خلق القرآن أيام العباسيين.

(3) [ك 4]. م م

(4) [44 ك 8]. م م

أبعدوا الموظفين الكنسيين من المهمات الأسقفية. هذا ما جعل من الإكليروس اليوناني مؤسسةً بغيضة. إذا قارناها بنظيرتها اللاتينية، إذا وضعنا سلوك بابوات روما مقابل سلوك أساقفة القسطنطينية، رأينا التعقل عند أولئك والتهور عند هؤلاء.

يا عجباً لتناقض الطبيعة البشرية! في روما القديمة لم يمنع القانون رجال الدين من المشاركة في الحياة المدنية. لم يعفهم من أي واجب سياسي، ومع ذلك نأوا بأنفسهم عن هذه الهموم. ثم جاءت المسيحية وفصلت فصلاً واضحاً بين الكنيسة والمجتمع. مع هذا تدخلت الأولى في شؤون الدنيا، لكن باعتدال، ثم انحطت الامبراطورية وأصبح الرهبان يشكلّون جلّ، إن لم نقل كل أعضاء الكنيسة. عندها تصيّد هؤلاء الرهبان، وهم الذين اعتنقوا حرفة تدعوهم بالذات إلى الزهد في الدنيا وتجنب مشاكلها، كل فرصة للمشاركة فيها. رفعوا صوتهم عالياً في كل مكان، وزعزعوا دعائم المجتمع الذي ادعوا أنهم اعتزلوه[1].

لم تحسم قضية سياسية، لم يبرم صلح، لم تعلن حرب، لم تعقد هدنة، لم تفتح مفاوضة، لم يتمّ زواج إلا بحضور هؤلاء الرهبان، كما لم يتركوا أي مقعد لغيرهم في مجالس الأمير أو مجامع الأمة.

وكم من أضرار نجمت عن تطفلهم هذا! كم من أمير نبيه حولوه إلى بليد بطول مصاحبتهم! كم من مشروع نافع أفسدوه عند التطبيق بتدخلاتهم المستمرة! هذا الامبراطور **باسيل** (الأول) يأمر الأسطول بالمشاركة في بناء كنيسة مهداة إلى القديس ميخائيل، في الوقت الذي كان العرب ينهبون جزيرة **صقليا** ويستولون على ميناء **سراقوسة**. وهذا ابنه **ليون** يسير على

(1) يبدو أننا نعيش نفس الوضع، لا سيما في عالمنا العربي.

خطاه فيستخدم البحرية لنفس الغرض تاركاً المسلمين يحتلون منطقة **طورومينية** وجزيرة **لمنوس**[1].

أعرض **أندرونيك** (الثاني) عن البحرية رأساً لأن الرهبان أكدوا له أن الخالق يبارك جهوده في سبيل توحيد الكنيسة ولن يسمح للأعداء أن يهاجموه[2]. وهذا الامبراطور كان يخشى أن يحاسبه الرب عن كل وقت يخصصه لمباشرة شؤون الدنيا، مهملاً بذلك واجباته الروحية.

من طبع اليونانيين التشدق بالكلام والتعنت في الجدال والميل إلى السفسطة. لم ينفكوا يتناظرون في مسائل العقيدة فزادوها غموضاً وشبهات. كان للرهبان نفوذ قوي في البلاط وكان البلاط متهافتاً كثير الفساد. تساندت المؤسّستان، الدينية والسياسية، على الشر دون الخير، فساءت حالتهما معاً. اشتغل الأباطرة بالنزاعات الكلامية (الثيولوجية) حيناً لإطفائها وغالباً لإذكائها، وهي نزاعات، كما هو معروف، تزيد ابتذالاً وتفاهةً كلما طالت واحتدت.

اشتكى الامبراطور **ميخائيل** (الثامن) الذي اهتز عرشه بتجدد الجدل الديني وتوالي الغزوات المدمّرة من جانب الأتراك السلجوقيين على معظم أقاليم آسيا. قال: إن بعض رعيتي، بدافع حمية دينية مفرطة، تجرؤوا على مقامي وانتقدوا سلوكي، فأثاروا الشغب ضدي. أجبروني على الاهتمام بسلامة نفسي وإهمال الأقاليم المتضررة. أوكلت إلى الولاة مباشرة مشاكلها، فأخفوا عني الحقيقة وكتموا عني ما يلزم لإصلاح الأوضاع، إما لرشوة تلقوها أو مخافة عقاب يستحقّونه[3].

(1) [71 ب]، [38 ب]. م م
(2) [44 ك 7]. م م
(3) [44 ك 6 ف 29 ترجمة الرئيس **كوزن**]. م م

كان لأساقفة القسطنطينية سلطة لا مثيل لها. كلما نشبت فتنة أو ثارت الغوغاء لجأ الأباطرة ووجهاء الدولة إلى الكنائس واضعين حياتهم بين يدي الأسقف. إن أراد سلّمهم للثوار أو حماهم منهم. وهكذا كان له، ولو بشكل غير مباشر، القول الفصل في كل قضايا الدولة.

قال **أندرونيك** (الأول) للأسقف: اشتغل أنت بشؤون الكنيسة واترك لي مهمة تدبير أمور الامبراطورية. فكان جواب الأسقف: كما لو قال الجسد للروح، لا رابط بيننا ولا حاجة لي بمساعدتك على القيام بواجباتي[1].

هذا الادعاء المجحف دفع بعض الأباطرة إلى نفي أساقفة زمانهم. لكن الجمهور، بسبب تعلقه بظاهر العبادات، كان يتطير من أعمال الأسقف الجديد. فترتب عن ذلك انشقاقات لا حدّ لها. كلما أبدل أسقف بآخر افترق المتدينون إلى مناصر له، وإلى مناوئ وَفِيٍّ لمن كان قبله وربما لمن كان قبل الاثنين.

هذا النوع من النزاع مضر بالجماعة أكثر من الذي يتعلق بالعقيدة، لأنه مثل النار الملتهبة يزيد من أوارها كل إجراء مهما يكن.

أصبحت المناظرات الحامية الشغل الشاغل لسكان العاصمة، إلى حدّ أن **جان** (يوحنا السادس) عندما اقتحم المدينة[2]، وجد الامبراطور والامبراطورة[3] يترأسان مجمعاً يناقش سبل مكافحة أعداء الرهبان[4]. وعندما حاصر **محمد الثاني** القسطنطينية[5]، كان السكان منشغلين بقرارات

---

(1) [9 ك 1 ف 1]. م م

(2) طرق جان كانطاكوزنه العاصمة سنة 1347.

(3) هما **جان الخامس** پاليولوغ، حكم من 1341 إلى 1355م، والامبراطورة **آن دي سافوا**.

(4) [9 ك 3 ف 99]. م م

(5) سنة 1453. انظر [19]. م م

مجمع فلورنسا[1]، غير آبهين بما يحدق بهم من خطر الأتراك[2].

في الخصومات العادية يدرك كل طرف أنه قد يكون مخطئاً فيضبط نفسه ويلجمها عن التمادي في العناد. أما في النزاعات الدينية، فكل خصم يعتقد بالطبع أنه على حق. فيغضب بشدة على المكابر الذي يمانع في إصلاح حاله، بل يروم إفساد من يتوخى إصلاحه.

من يتصفح تاريخ **باشيمر**[3] يقتنع على التو باستحالة التوفيق بين المتكلمين (الثيولوجيين). نجد فيه أخبار امبراطور[4] قضى كل حياته يجمعهم، يستمع إليهم، يحاول التوفيق بين آرائهم من دون أن يتوصل أبداً إلى إطفاء نار الفرقة التي، كالهدرة[5]، تموت لتنتعش في الحين. واضح أنه لو واصل معالجة المسألة بطريقته الهادئة المتأنية المتفائلة، برغبته الصادقة في إنهاء الخلاف، بسماحته في مواجهة الدسائس، لما حقّق نتيجة حتى قيام الساعة.

أذكر هنا نادرة غريبة في هذا الباب. أوعز الامبراطور المذكور إلى انصار الأسقفين **أرسين ويوسف**[6]، أن يحرر كل فريق مقالته في صحيفة

(1) اجتمع مؤتمر فلورنسا من 1439 إلى 1442م بهدف توحيد الكنيستين، الشرقية والغربية، تحت قيادة بابا روما. كان التوحيد شرطاً أساسياً ليساعد المسيحيون الغربيون إخوانهم الشرقيين ضد الأتراك.

(2) كان النقاش يدور حول صحة أو فساد قداس يقيمه مناصر للوحدة مع مسيحيي الغرب. قال الجمهور إنه يجب تجنبه كنار جهنم إذ كان يرى في الكنيسة الكبرى معبداً وثنياً. كان الراهب جنّاديوس يلعن كل من يدعو إلى التفاهم مع نصارى الغرب. انظر [19]. م م

(3) [44]. م م

(4) **أندرونيك** (الثاني) پاليولوغ. م م

(5) حيوان خرافي عند الاغريق له سبعة رؤوس، كلما قطعت رأساً تجددت في الحين.

(6) أرسين أسقف القسطنطينية من 1261 إلى 1265. عارض الوحدة مع روما. الأسقف يوسف هو خلف خلفه.

وأن ترمى الصحيفتان في النار. إن سلمت إحداهما طبقت أحكامها، إن احترق الكل انطفأ الخصام. أتت النار على الصحيفتين، فتصالح الفريق. لم يدم الصلح إلا يوماً وحداً. ما أطل اليوم الثاني حتى قال الجميع إن نبذ مقالة ما، يجب أن يكون عن قناعة لا نتيجة قرعة. وعاد الخصام أعنف مما كان[1].

لا بد للمرء أن يهتم بجدل المتكلمين، لكن دون أن يظهر لهم ذلك، وإلا زاد المتناظرون غروراً وظنوا أن كل جهد يبذل لدفعهم إلى المصالحة يدل على أن استقرار الدولة وسلامة الحكام مرتبطان بمنحى تفكيرهم.

لا يمكن الحسم في قضاياهم بالإنصات إلى تشقيقاتهم اللفظية، كما لا يمكن التخلص من عادة المبارزة بالسيف عن طريق فتح مدارس تدقق معنى الشرف والأنفة.

من قلة حكمة أباطرة الروم أنهم في بعض الحالات أشعلوا نار الخصام بعد أن خمدت. هذا ما فعله **أنسطاس**[2] **ويوستينيان**[3] **وهرقل**[4] **ومانويل كمنان**[5]. اقترحوا على الكنيسة والشعب تأويلاتهم الشخصية لنقاط غامضة من أمانة النصارى. حتى لو أصابوا الحق لما وافقهم عليه أحد. أخطأوا دائماً في أسلوب التعامل وكثيراً في الحل المقترح. تظاهروا بحذق كان أجدى بهم أن يخصصوه لمعالجة ما تقلدوه من مشاكل الدنيا. أقدموا على جدل عقيم حول طبيعة الخالق وهو لغز حجب سره عن العارفين

---

(1) [44 ك 1]. م م
(2) [24 ك 3]. م م
(3) [52 د]. م م
(4) [71: سيرة هرقل]. م م
(5) [39 هـ]. م م

كسراً لكبريائهم. فأحرى أن يُحجب ذلك السر عن كبراء الدنيا.

يخطئ من يتصور سلطة بشرية مطلقة على كل المستويات[1]. هذه السلطة الوهمية لم توجد قط ولن توجد أبداً. أعظم سلطة محدودة من بعض الجهات. هذا السلطان العثماني ما أن يفرض ضريبة جديدة[2] حتى تتعالى أصوات الإنكار توقفه على حدود لم يكن واعياً بها. وشاه إيران يستطيع أن يلزم الولد بقتل والده[3]، لكنه لا يستطيع إلزام رعيته بشرب الخمر. لكل أمة مزاج عام هو عماد السلطة، إذا صدمته السلطة صدمت نفسها وتجمّدت في الحين.

كل المصائب التي ألمت بالروم جاءت من منبع واحد مسموم، تجاهلهم طبيعة وحدود سلطة كلٍّ من الكنيسة والدولة. لذا تاهت السلطتان معاً.

الفصل بين هاتين السلطتين، الذي هو ضمان أمن كل أمة، متأصل ليس في العقيدة[4] وحسب بل في العقل وفي الطبيعة أيضاً. الأمور المتميزة حقاً، والتي لا تعمّر طويلاً إلا إذا ظلت متميزة، لا يجب أبداً مزجها[5].

لم يعرف الرومان الكنيسة كمؤسسة مستقلة. ومع ذلك كانوا يميزون السلطة الدينية عن المدنية تماماً كما نفعل اليوم. القنصل **كلوديوس پولشر**،

---

(1) منحى الكلام أن أباطرة الروم أخطأوا عندما ظنوا أن نفوذهم يمتد إلى التحكم في عقيدة الناس. لا يمكن التحكم في القلوب كما هو الأمر بالنسبة للأجسام. سيوضح المؤلف فكرته في فقرة لاحقة. ينطبق هذا الحكم على سياسة الخليفة المأمون في مسألة خلق القرآن.

(2) يعني ضريبة غير شرعية لا يوافق على جوازها جمهور العلماء.

(3) [22]. م م

(4) المسيحية.

(5) لم يصل عقلاء الغربيين إلى هذا الموقف المتسامح إلا بعد عقود من الحروب الدينية الطاحنة. مرّ العالم الإسلامي بمحن مماثلة لكن مفكريه لم يصلوا إلى نفس الخلاصة ربما لأن الخطر الخارجي كان أكبر على الإسلام منه على المسيحية.

خصم شيشرون، استغل نفي هذا الأخير خارج روما ليحوّل منزله إلى معبد للإلهة حرية.لما عاد شيشرون من منفاه طالب باستعادة منزله. نظر السدنة في المسألة وقالوا: إذا تمّ «النذر» من دون أمر صريح من الشعب، أمكن ردّ المبنى إلى صاحبه دون أن يكون في الأمر إهانة للدين. يعلق شيشرون على قرار السدنة: «لم ينظروا في القضية إلا من جهة صحة "النذر" لا القانون الذي صوت عليه الشعب. قضوا في النقطة الأولى بصفتهم سدنة وسينظرون لاحقاً في الثانية بصفتهم شيوخاً»[1].

(1) [11 هـك 4]. م م



الفصل الثالث والعشرون

لماذا تأخر وكيف تم انهيار الامبراطورية الشرقية ؟

من حق القارئ أن يعترض علينا ويقول: إن كانت دولة الروم واهية متداعية إلى الحد الذي ذكر في الصفحات السابقة، فكيف تمكنت من البقاء قروناً بعد أن انهارت شقيقتها الغربية. أظن أني أستطيع الإجابة عن هذا السؤال.

بعد أن صدمها العرب واقتصّوا منها جزءاً كبيراً انشغلوا عنها بتنازعهم على الخلافة. فاتجهت حميتهم الدينية إلى حروب أهلية متواصلة.

ثم اقتحموا بلاد الفرس وتاهوا فيها. فقدوا الوحدة والعزيمة، فلم يعد للروم حاجة إلى حشد معظم جنودهم على ضفاف الفرات.

حلّ بالقسطنطينية مهندس من سوريا يُدعى **كلّينيكوس**[1]. اكتشف طريقة لصناعة نار تنفخ في أنبوب، لا تنطفئ بالماء كنار عادية، بل تزيد التهاباً. استعمل الروم هذا السلاح الجديد واستطاعوا طيلة قرون إحراق أساطيل أعدائهم، سيما العرب الذين كانوا يأتون من شواطئ أفريقيا وسوريا لمهاجمة قاعدة ملكهم.

---

(1) ولد قرب مدينة بعلبك وكان حياً حوالى سنة 673م.

أدرجت هذه النار[1] ضمن أسرار الدولة. ألّف **قسطنطين** (السابع) وليد الفرفر كتاباً لتربية ابنه **رومان** يرسم فيه قواعد سياسة الامبراطورية. مما قال فيه: إن طلب منك بعض الأجانب إمدادهم بهذه النار قل لهم إن ملكاً نزل بها من السماء وأعطاها للامبراطور **قسطنطين**[2] شريطة أن لا يسلمها لأية أمة أخرى، وإن كل من خالف هذا الأمر احترق بنار من السماء متى تخطى عتبة الكنيسة.

كانت القسطنطينية تحتكر معظم، إن لم نقل كل تجارة المعمورة في وقت دمّر فيه **القوط** شمالاً، **والعرب** جنوباً، تجارة وصناعة باقي الأقاليم. انتقلت إليها من فارس مناسج القز، بعد أن أهملت هناك عقب الغزو العربي. فوق كل هذا كانت للروم السيطرة التامة على البحر. لكل هذه العوامل تكدست لديهم ثروات هائلة وفّرت للدولة موارد لا حدّ لها. كان يكفي أن تخمد الفتن ولو لمدة محدودة حتى يعود الرخاء في الحين ويعم مجموع البلاد.

أوضح مثال على ذلك عهد **أندرونيك كومنان** الملقب **بنيرون** الروم. رغم رذائله العديدة، كان ذا همّة عالية، لا يوافق على الظلم ويحظر إهانة الأعيان. فأثناء حكمه الذي لم يتجاوز ثلاث سنين صلحت أحوال مناطق كثيرة[3].

ونذكر أخيراً أن برابرة **الدانوب** استقروا ولم يعودوا يشكلون خطراً على الدولة، بل صاروا سداً يحميها من غارات إخوانهم.

---

(1) تسمّى النار الإغريقية (Feu grégeois). تجهل إلى اليوم طبيعة ونُسب مكوّناتها.

(2) قسطنطين الأول أو الكبير.

(3) [39 ب ك 2]. م م

وهكذا نرى أن امبراطورية الروم، وإن كانت تشكو من خلل بيّن في إدارتها، لا تنهار لأن عوامل معينة تدعمها. وهذا حال دول أوروبية معاصرة تحافظ على مكانتها، رغم ضعف بنيتها، لأنها تنعم بثروات مهمة تأتيها من الهند وأميركا الجنوبية. وهو حال دولة البابا التي لا تزال قائمة لا لسبب سوى ما تتّسم به من قداسة في عين المسيحيين. وهو حال دولة قراصنة شمال أفريقيا التي تستمر في الوجود لأنها تخدم مصلحة الدول التجارية الكبيرة بعرقلة نشاط الصغيرة[1].

أيالة الأتراك اليوم هي في نفس الوضع الذي كانت عليه الامبراطورية الشرقية. ومع هذا أرجح أنها ستعمر طويلاً. لو أصرّت إحدى الدول على مهاجمتها، حتى توشك أن تنهار، لهبّت لحمايتها في الحين الدول الثلاث التي تتحكم اليوم في تجارة أوروبا[2].

شاء الخالق أن تملك بعض الأمم[3] أراضي شاسعة لا تحسن استغلال خيراتها، لكي تستفيد من ذلك العجز الدول التجارية.

أثناء حكم باسيل وليد الفرفر انهار سلطان العرب في بلاد فارس. كان الملك آنذاك **محمد بن سبرائيل**[4]، الذي كان قد استقدم برسم الخدمة العسكرية ثلاثة آلاف من أتراك الشمال. نقموا عليه شيئاً فأرسل ضدهم جيشاً

---

(1) الجمهوريات الإيطالية في المتوسط. م م

(2) كل المخططات الرامية إلى طرد الأتراك، ومنها مخطط البابا **ليون العاشر** الذي كان يقضي أن يتوجّه إلى القسطنطينية كل من امبراطور جرمانيا عن طريق البوسنة، ملك فرنسا عن طريق ألبانيا واليونان، الأمراء الآخرون عن طريق البحر، لم تكن جدية أو تخيلها أناس لا يدركون مصلحة أوروبا. م م

ما يقوله هنا مونتسكيو هو بالضبط ما حصل بعد قرن أثناء **حرب القرم** عندما تحالفت فرنسا وانجلترا لمنع روسيا من تفكيك الامبراطورية العثمانية.

(3) إسبانيا والبرتغال وتركيا.

(4) تحريف اسماعيل؟

لم يثبت أمامهم. غضب السلطان على جنوده المتخاذلين، فاستعرضهم أمامه بزي النساء. عندها انحاز هؤلاء إلى الأتراك الذين سارعوا إلى رفع الحواجز على نهر **الأراس**، تاركين جحافل إخوانهم يتدفقون على البلاد[1].

اجتاح الأتراك بلاد فارس ومنها تسللوا إلى مملكة الروم من الشرق إلى الغرب. تصدى لهم **رومان ديوجين**، فأسروه واكتسحوا كل ما كان بأيدي الروم من أرض آسيا إلى مشارف البوسفور.

بعد هذا التاريخ بقليل، في عهد **ألكسيس كومنان**، أغار اللاتين (الإفرنج) على التخوم الغربية من أيالة الروم. منذ عقود والهوة تتّسع بين الفريقين ويشتدّ العداء بينهما. كانت المواجهة تحصل مبكراً لولا أن غريزة الخوف تتفوق على غريزة البغض في النفس البشرية. ذلك أن بابوات إيطاليا كانوا يهابون أباطرة ألمانيا فيما يمقتون فقط اليونانيين. فقدموا مدافعة أولئك على مهاجمة هؤلاء.

في ظل هذا الوضع انتشر بغتة في أوروبا خبر يقول إن الكفار[2] يدنسون الأرض المقدسة التي ولد وصلب فيها المسيح، وإن من رام التكفير عن خطاياه فما عليه إلا أن يحمل السلاح وينهض لتطهير الأرض المقدسة. كانت أوروبا آنذاك تعج برجال هوايتهم الحرب، ارتكبوا فظائع تستوجب التكفير، فإذا بهم يسمعون مرشديهم الروحيين يقولون إن التكفير يتم بممارسة هوايتهم المفضّلة. لا عجب أن يتسابق الجميع إلى رفع الصليب وحمل السلاح[3].

---

(1) [38 ج] م م. ينقل المؤلف عن مراجع يونانية مضطربة. يبدو أن هناك خلطاً بين حادثين: استقدام الترك إلى العراق أيام المعتصم والواثق وتجنيدهم في فارس أيام البويهيين. القصة المذكورة تنطبق على الحالة الثانية، إذ هكذا بدأت الدولة السلجوقية.

(2) يعني المسلمين.

(3) قارن مع ما يقوله عادة المؤلفون النصارى في سرّ الفتوحات الإسلامية.

وصل الصليبيون إلى المشرق. حاصروا مدينة **نيقيا**، اقتحموها ثم سلّموها للروم. استغل هؤلاء دهشة المسلمين فتعبأوا بقيادة **ألكسيس**[1] وجان[2] **كومنان** وتعقبوا الأتراك المنهزمين حتى مجرى الفرات.

لكن مهما تكن الفوائد التي جناها الروم من حملات الصليبيين ، لا يسع أي حاكم يرى جيوشاً جرارة بقيادة أبطال مغاوير تخترق أراضيه إلا أن يتوجس خيفة من فقدان سلطانه.

لذلك تعمد الروم تنفير الأوروبيين من المشروع كله. أينما حلوا صادفوا الخيانة والغدر والدناءات المعهودة عند أي خصم جبان.

يجب أن نعترف أن الفرنسيين الذين افتتحوا الحملة الصليبية تصرفوا بطريقة جعلت الناس يكرهونهم أشد الكراهية. ألف **أندرونيك كومنان**[3] كتاباً شحنه بالشتائم ضدنا. نرى من خلال أقواله أننا كأمة، عندما نحل عند غيرنا، نتحرر من كل القيود وأن العيوب التي تلصق بنا اليوم هي بالضبط تلك التي كنا نُرمى بها في الماضي.

قام أحد الفرسان الفرنسيين وجلس على كرسي الامبراطور. فلما وبّخه القومس **بودوان**[4] قائلاً: أما علمت أنه يجب عليك اتباع عادات من تحل بينهم؟ أجاب: حقاً! أي فظ هذا الذي يجلس ويترك جماً غفيراً من الفرسان واقفين؟

---

(1) الأول

(2) الثاني

(3) **أندرونيك** الأول روى سيرة أبيه ألكسيس الثاني. انظر [13 ك 10 و11]. م م في نسخ أخرى الإشارة إلى آن **كومنان** وملحمتها **الالكسيادة** (Alexiada) التي تؤرخ لحياة الكسيس الأول.

(4) بودوان الأول قاد الحملة الصليبية الرابعة. توج امبراطوراً سنة 1204 وتوفي سنة 1205م.

والألمان الذين جاءوا بعدنا، رغم أنهم من أكثر الخلق طيبوبة، أخذوا بتبعات طيشنا، فلم يجدوا أينما حلوا إلا النقمة والغضب[1].

أخيراً بلغت الكراهية بين الفريقين ذروتها. اغتاظ أهل **البندقية** لسوء معاملة تعرض لها بعض تجارهم، وغلب على الفرنسيين الطمع والجشع وغيرة كاذبة على الدين، فمالوا جميعاً على الروم، وحوّلوا ضدهم الحملة الصليبية.

وجدوهم كما وجد مؤخراً **التتار**[2] سكان الصين، غير مدرّبين على القتال. راح الفرنسيون يستهزئون بلباسهم الشبيه بلباس المخنثين[3]. وكانوا يتجولون في شوارع العاصمة بفساتين مطرزة حاملين دواة وقرطاساً استخفافاً بأمة هجرت مهنة الحرب. وبعد المواجهة رفض الصليبيون انضمام أي من الروم إلى جيشهم.

اجتاح الصليبيون الجزء الغربي من الامبراطورية ونصبوا أميراً عليهم قومس **فلاندرة**. وقع الاختيار عليه لأنه ينتمي إلى بلد لا يزاحم الإيطاليين ولا يبعث في نفوسهم الغيرة. ظل الجزء الشرقي بيد الروم يحميهم من الترك الجبل، ومن الروم البحر.

لكن إِنْ سهل على الإفرنج الغزو استحال عليهم الاستقرار. بعد حين عبر الروم البحر من آسيا إلى أوروبا. استردوا القسطنطينية وجلّ المناطق الغربية.

إلا أن هذه الامبراطورية الجديدة لم تكن سوى شبح الأولى، بسبب تقلص مواردها واضمحلال نفوذها.

---

(1) [39 هـ ك 1]. م م

(2) المانتشو في هذه الحال.

(3) [39 د ف 3]. م م

لم تتعد في آسيا نهري مندرس وسكرية وفي أوروبا تفتّتت إلى دويلات مستقلة.

ثم أثناء حكم الافرنج انشغل هؤلاء بالحرب فيما غادر الروم العاصمة. فانتقلت التجارة إلى موانئ إيطاليا ولم تعد القسطنطينية تستفيد منها.

وحتى التجارة الداخلية فإنها آلت إلى الإفرنج. لما عاد الروم إلى قاعدة ملكهم كانوا يهابون كل شيء. فلم يجرؤوا على مضايقة أحد. تقربوا إلى حكام جنوى بإعفاء تجارهم من كل جمرك[1]. وحتى لا يثيروا حفيظة أهل البندقية، أعفوا تجارهم أيضاً من كل الرسوم مع أنهم لم يعقدوا معهم صلحاً بل مجرد هدنة.

قبل استيلاء الأفرنج على القسطنطينية كان مانويل كومنان[2] أهمل كلياً الأسطول البحري. إلا أن التجارة كانت لا تزال مزدهرة، فكان من السهل إعادة بناء الأسطول. أما في الوضع الجديد، بعد أن أعرض الروم رأساً عن التجارة، عاد الداء بلا دواء إذ العجز يولّد عجزاً أكبر.

هذه دولة تشتمل على جزر لا تعدّ، يخترقها البحر في كل اتجاه ويحيط بها من كل جانب. ومع هذا لا تملك مراكب للملاحة، فانقطعت الصلات بين أقاليمها. قيل للسكان أن يبتعدوا عن الشواطئ تلافياً لغارات القراصنة[3]، وبعد حين جاءهم الأمر باللجوء إلى الحصون اتّقاء لهجمات الأتراك.

الواقع هو أن هؤلاء كانوا في تلك الحقبة يخوضون ضد الروم حرباً من نوع خاص. كانوا يتعاطون إلى قنص البشر بالمعنى الحرفي للكلمة.

---

(1) [9 ك 4]. م م

(2) مانويل الأول اعتلى عرش الامبراطورية من 1180 إلى 1183م.

(3) [44 ك 7]. م م

يقطعون أحياناً مائتي ميل داخل البر ليقوموا بعملهم التخريبي. بسبب تعدد سلاطينهم كان يستحيل استرضاء جميعهم بالهدايا ولا ينفع إبرام صلح مع بعضهم دون البعض[1]. تحمسوا لاعتناق الإسلام لأنه وافق غريزتهم وأعطاهم مبرراً لنشر الدمار في أرض النصارى. زد على ذلك أنهم من أبشع الخلق[2]، ونساؤهم في مستوى بشاعتهم. فما أن وقع بصرهم على بنات يونان حتى عادوا لا يطيقون مضاجعة غيرهن[3]. دفعهم شغفهم إلى التمادي في سبي النساء. لا ننسى أن النهب طبع فيهم إذ ينحدرون من الهون الذين ألحقوا أكبر الأضرار بالامبراطورية الرومانية[4].

اجتاح الأتراك ما تبقى من أيالة الروم في أرض آسيا. من نجا منهم فرّ بعيداً نحو البوسفور، ومن وجد مركباً عبر إلى برّ أوروبا. فضاق الإقليم باللاجئين، قبل أن يبدأ العدد يتناقص. نشبت حروب ثم تفاقمت إلى حدّ أن استغاث كل فريق بالأتراك راضياً بشرط فظيع وأخرق، هو استرقاق كل من أسر في أرض الخصم[5]. وهكذا بغية القضاء على المنافس، ساهم الجميع في خراب الوطن[6].

---

(1) [9 ك 3 ف 96]، [44 ك 11 ف 9]. م م

(2) هذا أصل خرافة يتناقلها أهل الشمال. يرويها جورنانوس [29] مؤداها أن **فيليمر** ملك القوط دخل أرض **الجيط** فوجد فيها نساء يتعاطين السحر. أبعدهن عن جيشه، فتهن في البيداء حيث واقعهن ذكور من الجن. هكذا نشأت أمة **الهون**، من أكثر الأمم توحشاً. سكنت أولاً المستنقعات، تغلب عليها النحافة والبشاعة والذبول. تنطق بما يُوهم أنه لغة بشرية.

(3) يوصي قسطنطين وليد الفرفر أن يخفي السكان ثروتهم ويحجبوا نساءهم كلما دخل البرابرة العاصمة. انظر [14 ج] وكذلك [19 ف 9]. م م

(4) [29].م م

(5) [9 ج]. م م

(6) أوَ ليس هذا وصف حال غرناطة قبل سقوطها؟

نجح السلطان **بايزيد**[1] في توحيد الأتراك بإخضاع كل أمرائهم. فكان في وسع العثمانيين أن يحققوا في ذلك التاريخ المبكر ما حققوه لاحقاً على يد **محمد الثاني**[2]، لولا أن باغتهم **التتار** وكادوا أن يستأصلوهم.

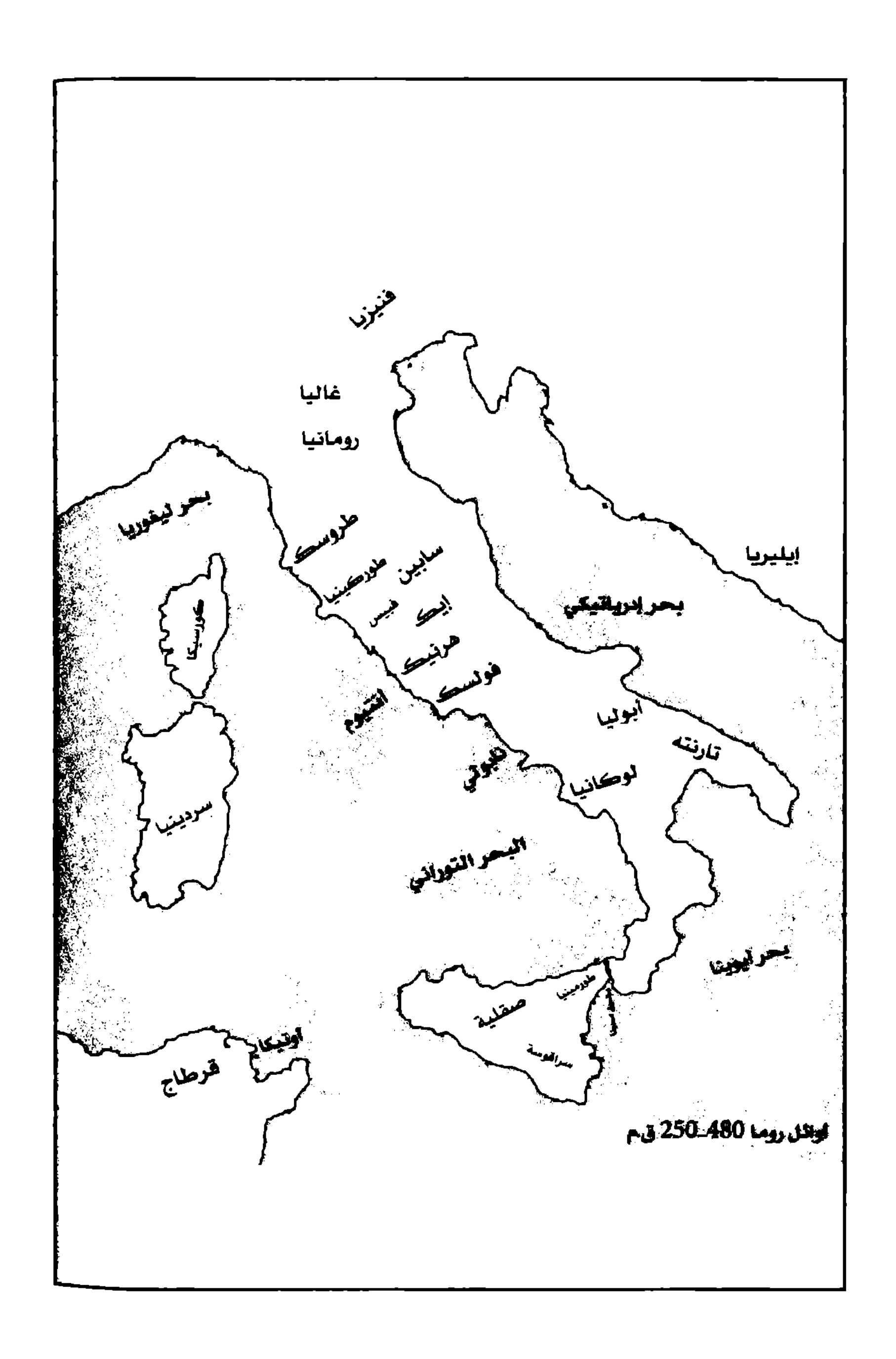
لا أقوى على متابعة ذكر المصائب التي تلت. أقول فقط أن الامبراطورية، تحت آخر حكامها، انحصرت فيما وراء الأسوار، حالها حال **الران** الذي، عند مصبّه في المحيط، يختزل إلى جدول ماء.

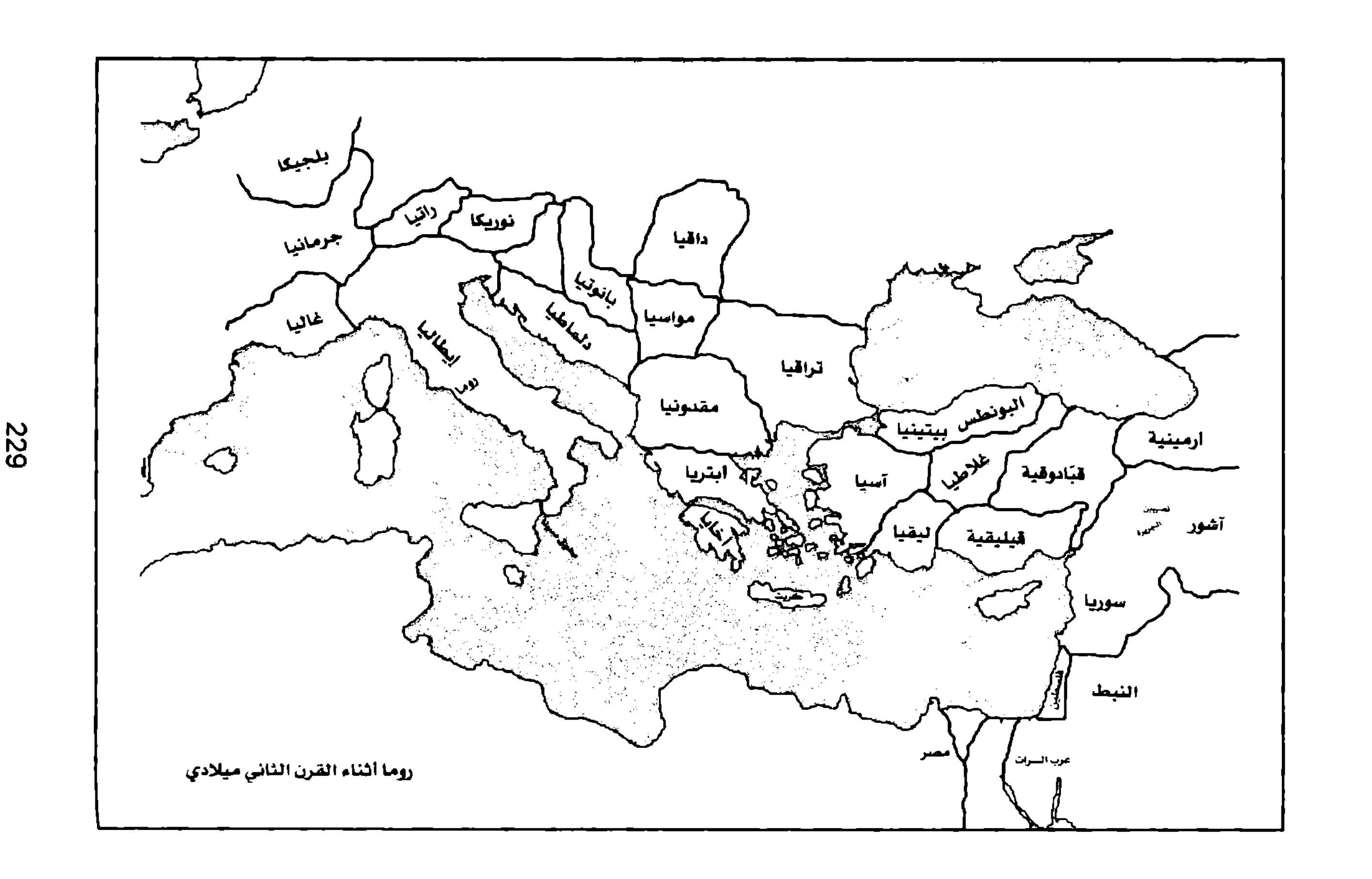
---

(1) الملقب يلديريم. حكم من 1399 إلى 1402م حيث انهزم أمام جيش **تيمور لنك**.

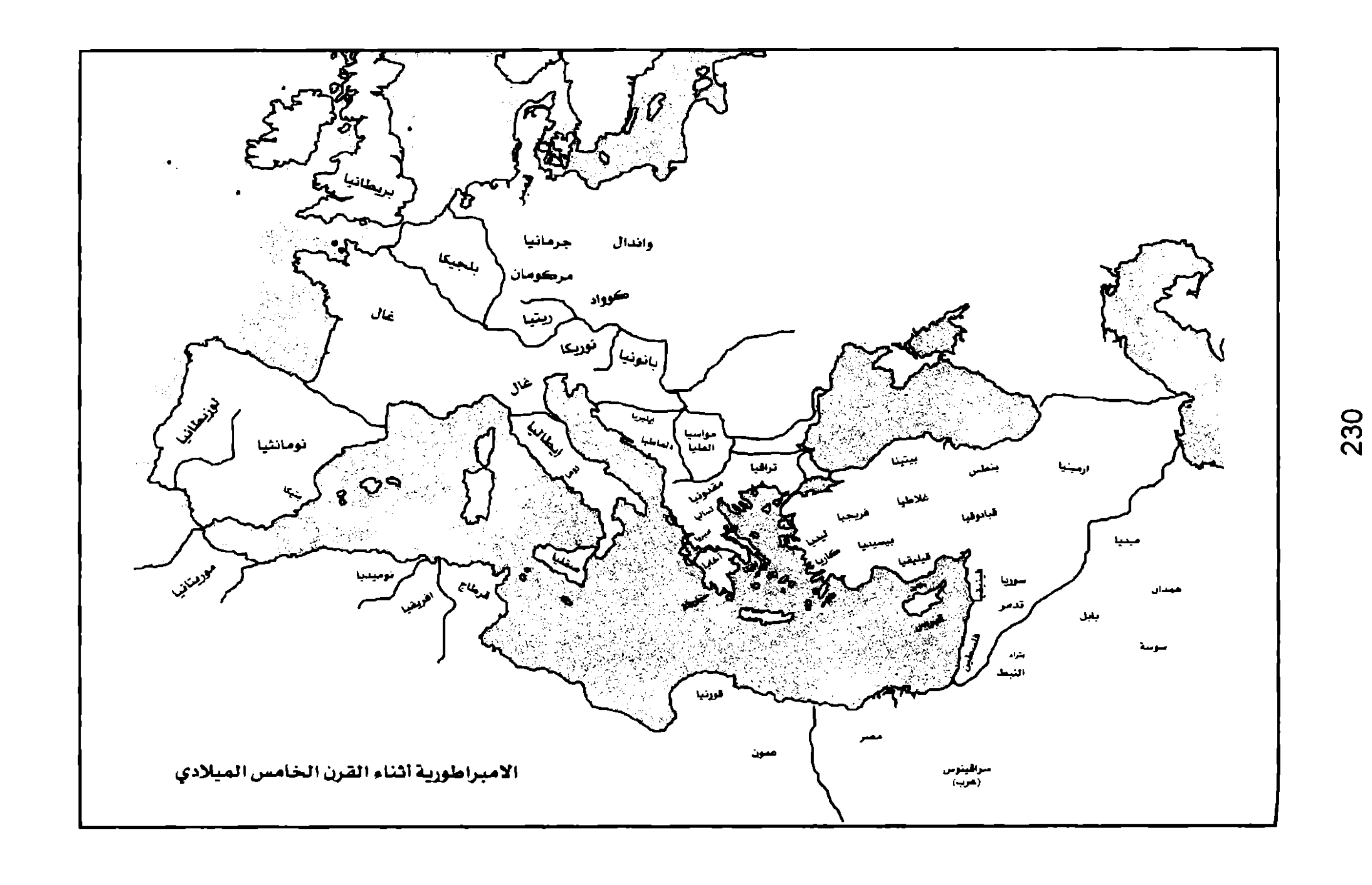
(2) الملقب بالفاتح. تولى السلطنة مرتين من 1444 إلى 1446 ومن 1451 إلى 1481م.

الخرائط

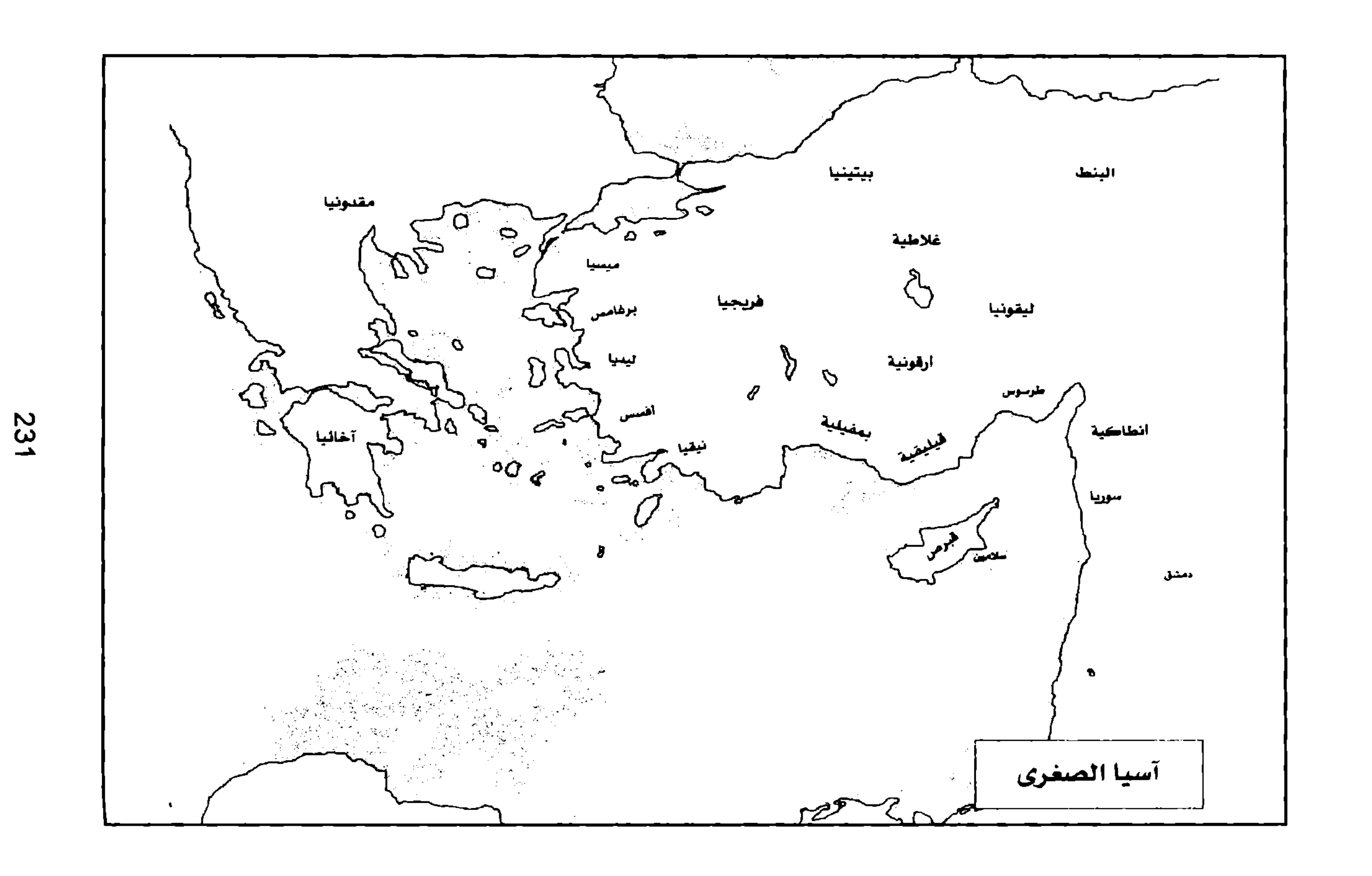

فنيزيا
غاليا
رومانيا
بحر ليغوريا
طروسك
طوركينيا
سابين
فيس
إيك
هرنيك
فولسك
انتيوم
كورسيكا
سردينيا
بحر ادرياتيكي
ايليريا
ابوليا
تارنته
لوكانيا
البحر التوراني
بحر ايونيا
صقلية
طورمينا
سراقوسة
اوتيكا
قرطاج
اوائل روما 480ـ250 ق.م

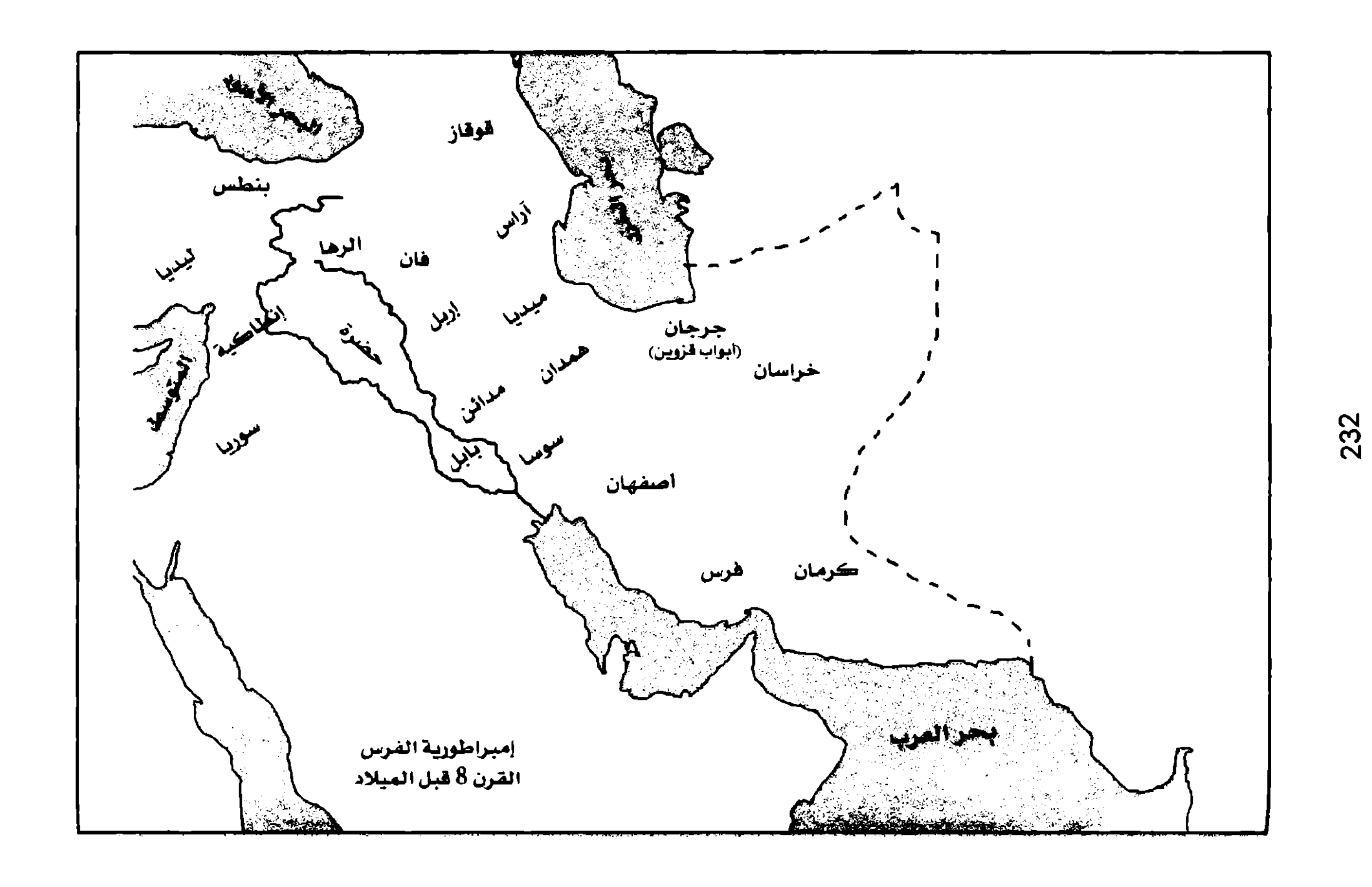


روما أثناء القرن الثاني ميلادي



بريطانيا
جرمانيا
واندال
بلجيكا
مركومان
كوواد
غال
ريتيا
نوريكا
بانونيا
غال
لوزيطانيا
نومانثيا
ايطاليا
موسيا العليا
تراقيا
بيتينا
بنطس
ارمينيا
غلاطيا
فريجيا
قبادوقيا
بيسيديا
قيليقيا
سوريا
تدمر
ميديا
همدان
بابل
سوسة
النبط
نوميديا
افريقيا
قرطاج
صقلية
موريتانيا
قورينا
مصر
صعون
سراقينوس
(عرب)
الامبراطورية أثناء القرن الخامس الميلادي


آسيا الصغرى
البنط
بيتينيا
مقدونيا
غلاطية
ميسيا
فريجيا
ليقونيا
برغامس
ليديا
ارقونية
طرسوس
افسس
انطاكية
بمفيلية
قيليقية
آخائيا
نيقيا
سوريا
قبرص
سلاميس
دمشق


قوقاز
بنطس
آراس
الرها
فان
ليديا
إربل
ميديا
جرجان
(ابواب قزوين)
إنطاكية
همدان
خراسان
مدائن
سوريا
سوسا
بابل
اصفهان
فرس
كرمان
بحر العرب
إمبراطورية الفرس
القرن 8 قبل الميلاد

Références de Montesquieu	مراجع مونتسكيو
1- Ammien Marcellin (Ammianus Marcellinus). né en 330 à Antioche *Histoire romaine. Ecrite en 390. couvre la période 335-378*	أميان مرسلان
2- Appian (Appianus) c.160 à Alexandrie - *De Bello civile* - *Liber lybicus* - *Syriac.*	أپيان
3- Aristote (-384/-322) *Politiques*	أرسطو
4- Athénée (Athenaeus), c.230 *Deipnosophistae (Banquet of the learned)* *Extraits, cite Nicolas de Damas Ctesicles*	أثناوس
5- Augustin d'Hippone (354 - 430) *La cité de dieu*	أغوسطين
6- Aulu-Gellé (Aulus Gellius) *Nuits attiques*	أولو ـ جلّة
7- Aurelius Victor, 4ème s. *Origo Gentis Romanae (attrib.)* *De viris Illust.*	أوريليوس ڤيكتور
8- Bible hébraïque *1er livre des Macchabees*	توراة اليهود

9- Cantacuzène Jean (empereur byzantin, 1341 - 1354) — جان كنطاكوزنه
- *L'histoire des deux Andronic*
- *Histoire des Empereurs Jean Paléologue et Jean Cantacuzène*

10- César Jules — يوليوس قيصر
La guerre des Gaules

11- Ciceron (-106 / -43) — شيشرون
- *Tusculanes*
- *Des offices*
- *Lettres familières*
- *Lettres à Atticus (éditèes par l'abbé de Mongaut)*

12- Chardin Jean (1643 - 1713) — جان شردان
Voyage en Perse et aux Indes orientales

13- Comnène Andronic, emp. Byzant. 1183 - 85 — أندرونيك كومنان
Histoire d'Alexis Comnène

14- Constantin Porphyrogénète, emp. Byzantin, 912 - 959 — قسطنطين وليد الفرفر
De Administrando Imperii
Extraits des ambassades (cite Dexippe, Malchus, Denys d'Halicanasse)

15- Denys d'Halicarnasse (Dyonysius of Halicarnassus), c. -25 — دوني هاليكارناس
Antiquités romaines

16- Dexippe (Dexippus), 210 - 270 — دوكسيپ
Histoire romaine

17- Diodore de Sicile (Diodorus Siculus), c. -40 *Bibliotheke Historike*	ديودور الصقلي
18- Dion Cassius, 150 - 235 (résumé par Xiphilin) *Histoire romaine*	ديو كاسيوس
19- Ducas Michel *Histoire des derniers Paléologues*	ميشال دوكا
20- Duchêne André, 1584 - 1640 *Script. Normann.* *Histor. Veteres*	أندريه دوشان
21- Ephorus, -405 / -330 *Historiaï, apud Diodorus*	أفوروس
22- Eusèbe de Césarée (Eusebius), 265 - 340 *Vie de Constantin*	يوزاب القيصري
23- Eutrope (Eutropius, 4ème s.) *Histoire romaine*	يوتروپ
24- Evagre (Evagoras) le scolastique, fin 6ème s. *Histoire ecclésiastique, de 431 à 594*	إڤاغر
25- Extraits des vertus et des vices *cite Dion Cassius, Polybe, Jean d'Antioche*	مقتطفات عن الفضائل والرذائل
26- Florus, 2ème s. *Abrègé de l'histoire de Tite-Live*	فْلُروس
27- Frontin (Frontinus), 40 - 103 *Stratemagata*	فْرونتان
28- Hérodien (Heriodianus), 165 - 250 *Vie d'Alexandre Sévère*	هروديان

29- Jornandes, 6èmes. — جورناندس

De rebus geticis
De reg succes

30- Josèphe (Josephus Flavius), 37 - 100 — يوسف فلاڤيوس

De bello judaico
Contra Appion

31- Historia Augusta, 117 - 284, collection éditée par Isaac Casaubon (1559 - 1614) — التاريخ الأوغسطي

Parmi les auteurs: Elius Lampredius
Jules Capitolin,
Vie de Max. et
Balbien

32- Justin (Marcus Jumianus Justinus), 2ème ou, 3èmes. — يوستين

Histoire universelle (abrégèe de celle de Trogus Pompeius)

33- Justinien, emp. Byzant, 527 - 565 — يوستينيان

Codex. Digesta. Pandectas.
Institutiones. Noveles.

34- Lactance (Lactantius), né en 250 — لاكْطانس

De la mort des persécuteurs

35- Léon le grammairien (Leo Grammaticus) — ليو النحوي

Vie de Léon l'Arménien
Vie de Théophile

36- Mariana Juan, 1537 /- 1624 — خوان ماريانا

Histoire d'Espagne

37- Ménandre (Menander Protector), ap. 550 *Ambassades*	منانذار
38- Nicéphore Bryenn-César, 1062 - 1137 *Vie de Basile et Léon* *Vie de Constantin Ducas et Romain Diogène*	نيقفور بريين - قيصر
39- Nicetas, 12èmes. *Vie d'Andronic Comnène* *Vie de Jean Comnène* *Vie de Manuel Camnène* *Histoire oprès la chute de Constantinople*	نيقطاس
40- Notice de l'Empire, post. à Arcadius (408) et Honorius (423)	لمحة عن حال الامبراطورية
41- Simon Ockley, 1678 - 1720 *History of the Saracens, 1708 - 1718*	سيمون أوكلي
42- Orose (Orosius) de Tarragone, 5èmes. *Histoire universelle*	أوروز طراغونة
43- Othon de Freising, 1114 - 1158	أوطو فريسينغ
44- Pachymère (Pachymeres), 1242 - 1310 *Histoire romaine*	پاشيمار
45- Perrault Claude, 1613 - 1699 *Essais de physique*	كلود پيرو
46- Philostorgue (Philostorgius), m.430 *Histoire ecclésiastque*	فيلوستورغ

47- Photius, 9ème s. — فوطيوس

Bibliotheca,
abrégé d'Olympiodore, fin 4ème s.
chronique des années 407 - 425

48- Pline le Jeune, 61 - 113 — پلين الأصغر

Histoire naturelle

49- Plutarque (Plutarchus), 46 - 120 — فلوطارخ

Vie des hommes illustres

50- Polybe (Polybius), -202 / -120 — پوليب

Histoire

51- Priscus (Priskos), m. vers 472 — پريسكوس

Histoire gothique
Relation d'ambassade

52- Procope (Procopius) de Césarée, 1ème moitiè du 6ème s. — پْرُوكوپ

Histoire mêlée
Histoire des guerres, des Vandales, des Goths, des Perses.
Histoire secrète

53- Relations de voyages — رحلات

54- Saint-Réal abbé de, 17ème s. — سان ريال

55- Salluste (Sallustius Crispius), -86 / -35 — سالوست

Conjuration de Catilina
Guerre de Jugurtha
Histoires

56- Salvien (Salvianus), m. ves 484 — سالڤيان

Du gouvernenent de Dieu

57- Socrates (Sokrates Scholasticus), né c. 379 — سقراطس

Histoire ecclésiastique, 306 - 436

58- Sozomène Hermias (Sozomenos) — سوزومان
Histoire ecclésiastique

59- Suétone (Suetonius), contemporain de Trajan et Hadrien — سُويطون
Vie des douze Césars

60- Suidas, encyclopédie du $10^{\text{ème}}$s. — سويداس
Art. Constantin fils de léon

61- Sulpicius, Servius Rufus, contemporain de Cicéron — سولپيسيوس
Lettres

62- Symmaque (Symmachus), 345 - 458 — سوماخ
Lettres

63- Tacite (Tacitus), 55 - 117 — تاسيت
Annales
Histoires
Moeurs des Germains

64- Theodoret de Cyr (heodoretos de Cyrrhus), 393 - 448 — تيودورت القرّي

65- Theophanes (le Confesseur), 752 - 818 — ثيوفان
Chronographia

66- Theophilacte (heophylactus Simocattes, mort après 640) — ثيوفيلاكت
Histoire de l'empereur Maurice

67- Tite-Live (Titus Livius), de -59 à +17 — تيت ـ ليف
Histoire romaine

68- Valére- Maxime (Valerius Maximus), contemporain de Tibère — فالير ماكسيم
Faits et dits mémorables

69- Végéce (Vegetius), 4èmes. — فجيس
Des choses militaires

70- Xiphilin Jean (Xiphilinus John), 11èmes. — زيفيلان
Résumé de l'histoire de Dion Cassius
Vie de l'empereur Hadrien

71- Zonaras Jean (Zonares John), 12èmes. — زوناراس
Abégé de l'histoire universelle

72- Zosime (Zosimus), 5èmes. — زوسيم
Histoire de l'Empire romain

ملوك روما

754 ق.م. تأسيس مدينة روما
753

715	(Romulus) وفاة رومولوس......................
671	Numu نوما....................................
640	Tullus hostlius تولوس هوستيليوس............
616	Ancus Marcius أنكوس مَرْقيوس...............
579	Tarquin Priscus طاركوين بريسكوس..........
534	Servius Tullius سربيوس توليوس...............
509	Tarquin le Superbe طرد طاركوين المغرور.......

أهم محطات تاريخ روما الجمهورية

509 ق.م تأسيس الجمهورية

493	تأسيس وكالة (نقابة) الشعب
450	الألواح الاثنتا عشرة
390	هجوم شعوب الغال
291 - 343	الحروب ضد السامنين
275	هزيمة فيهروس (Pyrrhus)
241-264	الحرب البونيقية الأولى
201 -215	الحرب البونيقية الثانية
188	هزيمة انطيوخوس
168 -171	الحرب ضد پرسيُوس (Persée)
146 -149	الحرب البونيقية الثالثة
133	وفاة تيباريوس غراكوس (Gracchus)
121	اغتيال كايوس غراكوس
104-111	حرب يوغورتا
101-103	هجوم قبائل القمبر والطوطون
88 -91	ثورة شعوب إيطاليا على روما
83 -88	الحرب ضد ميتريدات
79 -81	دكتاتورية سولا (Sylla)
71-73	ثورة العبيد بقيادة سپارتاكوس (Spartacus)
67	حملة پومپيوس ضد قراصنة المتوسط
61	دكتاتورية الثلاثي پومپيوس (Pompée)
	كراسوس (Crassus)
	قيصر (César)
50-58	قيصر يغزو بلاد الغال
48	قيصر ينتصر على پومپيوس
44	اغتيال قيصر
42	انتصار انطوان وأوكتاف (Octave)
31	فوز أوكتاف على انطوان (Antoine)

27	أوكتاف يلقب بأوغوست (Auguste)	

قياصرة روما

44 ق.م	وفاة يوليوس قيصر	Jules César
	أوغوست	Auguste
37	تيبار	Tibêre
41	كايوس كاليغولا	Cais Caligula
54	كلود	Claude
68	نيرون	Néron
69	غالبا	Galba
	أوطون	Othon
	بيطاليوس	Vitelius
79	ڤسپازيان	Vespasien
81	تيتوس	Titus
96	دوميتيان	Domitien
98	نربا	Nerva
117	طرايان	Trajan
138	أدريان	Hadrien
161	انطونين	Antonin
180	مارك اوريل	Marc Aurèle
192	كومّود	Commode
193	پرتيناكس	Pertinax
	ديديوس يوليان	Didier Julien
	بسينيوس نيجر	Pescennius Niger
	ألبان	Albin

Septime Sévère	سبثيم سبروس	211
Caracalla	كراكلا	217
Geta	جيطا	
Macrin	ماقرين	218
Elagabal	ألَغَبال	222
Alexandre Sévère	اسكندر سبروس	235
Maximin	ماكسيميان	238
Gordien I and Π	غورديان 1و2	
Balbin	بالبان	
Pupien	پوپيان	
Gordien ш	غورديان 3	244
Philippe	فيليپ العربي	249
Dèce	داقيوس	251
Gallus	غالوس	253
Valerien	ڤالريان	260
Gallien	غاليان	268
Claude Π	كلود 2	270
Aurélien	أوريلْيان	275
Tacite	تاسيت	276
Probus	پروبوس	282
Dioclétien	ديوكليزيان	305
Maximin	ماكسيمان	
Constance Chlore	قسطانس الشاحب	
Galère	غالير	
Licinus	ليقينوس	324
Constantin le Grand	قسطنطين الكبير	334
Constantin Π	قسطنطين 2	340

Constant I	قسطان	350
Constance II	قسطانس 2	361
Julien	يوليان	363
Jovien	جوڤيان	364
Valentinien I	ڤالنتينيان 1	375
Valens	ڤالنس	378
Gratien	غراتيان	383
Valentinien II	ڤالنْتينْيان 2	392
Théodose le Grand	ثيودوز الكبير	395
Honorius	هونوريوس	423

أباطرة الشرق

Arcadius	أركاديوس	408
Théodose II	ثيودوز2	450
Marcien	مارقيان	474
Léon I	ليون 1	
Léon II	ليون 2	
Zénon	زينون	491
Anastase I	أنسطاس	518
Justin I	يوستين 1	521
Justinien I	يوستينْيان	565
Justin II	يوستين 2	578
Tibère II	تيبار 2	582
Maurice	موريق	602
Phocas	فوقاس	610

Héraclius I	هرقل 1	641
Constantin III	قسطنطين 3	
Héraclius II	هرقل 2	
Constant II	قسطان 2	668
Constantin IV	قسطنطين 4	685
Léon III	ليون 3	740
Constantin V	قسطنطين 5	775
Léon IV	ليون 4	780
Irène	إيرين	802
Léon V	ليون 5	820
Michel	ميخائيل 1	829
Théophile	تيوفيل	842
Basile I	باسيل 1	886
Léon VI	ليون 6	912
Constantin VII	قسطنطين 7	959
Théodora	ثيودورا	1056
Romain Diogène	رومان ديوجين	1078
Alexis Comnène	ألكسيس كومنان	1118
Jean Comnène	جان كومنان	1143
Manuel I	مانويل 1	1180
Alexis II	ألكسيس 2	1183
Andronic	اندرونيك 2	1185
Michel Paléologue	ميخائيل پاليولوغ	1282
Andronic II	اندونيك 2	1328
Jean V Cantacuzène	جان كنْطاكوزنه	1355
Jean VI Paléologue	جان پاليولوغ	1376

فهرس

Ch Sh — ش

T — ط

L   ل

N ن

H — هـ

محتوى الكتاب

مونتسكيو

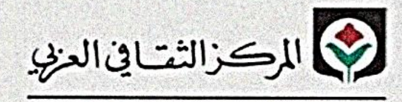
تأملات في تاريخ الرومان

يقول المدققون إن كتاب مونتسكيو كان متجاوزاً حتى عند صدوره، وهو اليوم متجاوزاً أكثر بعد التحولات التي طرأت على مناهج التاريخ أثناء القرن التاسع عشر.

التأملات جزء من مشروع أوسع تجسد لاحقاً في كتاب روح القوانين. ما هي علاقات كل قانون أعلى (كل دستور، كل شريعة) بالعوامل المتواجدة معه، المناخ، الاقتصاد، الأخلاق، الأعراف، الطقوس الدينية، الذهنية العامة...إلخ. تاريخ روما، شهادة الرومان على أنفسهم، هو أول مختبر يجرب فيه المؤلف صحة فرضياته في هذا المجال.

ISBN 978-9953-68-463-4





المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
cca_casa_bey@yahoo.com
markaz@wanadoo.net.ma